الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
– قسنطينة –

كلية الآداب و العلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

عنوان البحث

قصص أولي العزم من الرسل

– دراسة فكرية، جمالية –

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الدراسات القرآنية

إعداد الطالبة :
ليلى بلخير

إشراف الدكتور:
أحمد رحماني

السنة الجامعية : 1420هـ/1421هـ
1999 م / 2000 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى والديّ الكريمين - حفظهما الله -

إلى رفيق دربي زوجي الشريف

إلى كل من علمني حرفا شققت به الطريق

خاصة روح معلمتي الأولى فتيحة عباس - رحمها الله -

وأستاذي إبراهيم عباسي - رحمه الله -

إلى شهداء الكلمة الطيبة، النورانية والسائرين

في ركابهم، في كل زمان ومكان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

بداية لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر لصاحب الفضل الأول
الله - عزّ وجلّ على إكرامه لي بشرف التتلمذ في رحاب كتابه الحكيم
وأخصّ بالتقدير والشكر والديّ الكريمين حفظهما الله على
ما تكبداه من مشاق لتعبيد مساري العلمي.
وفي هذا المقام، أنوه بجهودي أستاذي الفاضل الدكتور أحمد رحماني
في رعاية هذا البحث المتواضع وإخراجه إلى النور.
وأقدم إليه أسمى آيات العرفان والتقدير على ما أسداه لي
من توجيهات قيمة وأغدقه من رعاية علمية.
دون إغفال كل من ساهم من قريب أو بعيد في تذليل صعوبات البحث
ماديا أو معنويا وأخص منهم أشقائي الثلاثة: الأمين، عبد المجيد، يحي
وزوجي الشريف وكل أساتذة معهد الحضارة الإسلامية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم ا لله الرحمان الرحيم

يعد قصص أولي العزم من الرسل، من أكثر المواضيع خصوبة وثراء، حيث توزعت على معظم سور القرآن وانفردت بسيمات جمالية معجزة، وهي جزء لا يتجزأ من إعجازه الفذ الذي لا يمكن أن نتلمس أفانين الجمال فيه بالدراسات الجزئية للصيغة والأساليب، بل لابد من تتبع الأصول الفنية والقواعد العامة بنظرية كلية، ومنه كان موضوع بحثي، **قصص أولي العزم من الرسل – دراسة فكرية جمالية** - محاولة لدراسة بنية قصص أولي العزم على ضوء الأبعاد الأساسية، المتمثلة في البعد العقدي، والبعد الاجتماعي، والبعد الحضاري لربط العناصر الشكلية بوشائجها، وهذا تحقيقا للهدف من اختيار المنهج الجمالي، في تناسبه مع أدبية الإعجاز القرآني، في وحدة الفكر والفن، ولأن أي دراسة تمس نسق المنظومة القصصية بعزل الهيكل عن المضمون، أو التركيز على الأفكار والمقاصد مفصولة عن بنيتها الشكلية محكوم عليها بالقصور.

هذه الجدلية المطروحة دوما في الدراسات النقدية التي تمس الآثار البشرية، تطرح معنا بإلحاح أكبر في محاولة دراسة قصص أولي العزم من الرسل، ومن هنا وجدنا قيمة ضافية في الوقوف على الأبعاد الأساسية لقصص أولي العزم، لاستكناه الظواهر المطردة، والسنن المشتركة، كخطوة أساسية لإدراك الجمال في نسقه الموحد، ومنظومته الشاملة، لعناصر الفكر والفن .

أما الهاجس المحوري الذي تحددت في نطاقه إشكالية البحث فهو السؤال عن هوية الفئة المقصودة بالصيغة بما أن صيغة أولي العزم، ذكرت مرة واحدة في القرآن ولم يلحق بها أي تخصيص أو بيان.

الأمر الذي أثمر إشكالية في تحديد هوية أولي العزم بين القول بخصوص الصيغة، والقول بعمومها،والقول بتكافؤ الفرضيتين.

من هم أولو العزم ؟! لماذا اختلف أهل التفسير في تحديدهم؟

وبقدر تمكننا من معرفة حقيقتهم طبيعيا، نتمكن من تحديد دراسة نمط الشخصية جماليا، ومن ثمة إن كشف هويتهم الخاصة يفتح أمامنا باب إشكالية أخرى .

لماذا ذكرهم القرآن بهذا التخصيص؟

هل القصد من ذلك لفت النظر إلى وجود قواسم مشتركة بينهم؟ وإن كان الأمر كذلك فما هي الخصائص التي توحد مسارهم ؟!

وبما أن قصص أولي العزم، تتمحور حول شخصيات لأنبياء بعينهم، هل يمكن أن نعد قصص أولي العزم نموذجا قرآنيا لقصص الشخصيات؟ وما هو منهج دراستها؟ والأمر يطرح انشغالا أعمق عن طريقة عرضهم في القرآن الكريم لكشف خواص البنية القصصية التي تميزهم. لأن تحديد هوية الشخصيات ، أفرز إشكالا جديدا عن المنهج المناسب لكشف مواطن الجمال في قصص أولي العزم.

وكيف يمكن توظيف الجمالية منهجا للدراسة، بما يتناسب مع منهج القرآن في عرض القصص؟ وما هي الطريقة المثلى، لرصد حركة شخصيات أولي العزم في فضائها المكاني المختلف وسيرورتها الزمانية في عهد نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ ؟

وما هي قيمة الإشعارات الزمنية والمكانية في عرض شخصيات أولي العزم ؟

وتتدرج الفصول والمباحث في الإجابة عن هذه الأسئلة، لتحقيق الأهداف الآتية:

1-إضافة دراسة أكاديمية لمكتبة - الدراسات القرآنية -.

2-الارتقاء العلمي المنهجي بالدراسات الجمالية لقصص الأنبياء والرسل على المستوى الفني، وعلاقته بالمستويين الفكري والنفسي.

3-الوقوف على القواسم المشتركة بين أولي العزم من الرسل بتتبع السنن والقوانين العامة، والظواهر المطردة لاستجلاء الآثار والقيم .

4-التأكيد على النظرة الكلية في دراسة قصص أولي العزم، المستوحاة من منهج القرآن في عرض القصص وتوجيه النظر لاستشراف قواعد فنية عامة للدراسات الجمالية .

5-إبراز قيمة المنهج الجمالي وفق التصور الإسلامي في دراسة قصص القرآن، وقصص أولي العزم.

6-توجيه الفن والنقد للإفادة من الدراسات الجمالية لقصص الأنبياء، وأولي العزم خاصة، للخروج بنظريات جمالية أكثر دقة، كما فعل البلاغيون مع الصورة والبيان.

أما عن منهج البحث فليس الهدف من دراسة قصص أولي العزم من الرسل، الإلمام وتتبع جزئيات كل قصة على حده.وإنما الانطلاق من المنهج التحليلي والتركيبي، إلى استقصاء الخصائص المشتركة، والسنن والظواهر المطردة .

وإن كان الغالب في الدراسة التطبيقية، المنهج التحليلي النقدي، فقد استخدمت في بعض جزئيات، الفصل النظري التمهيدي، المنهج الوصفي التاريخي.

ولذلك تتبعت الخطوات التالية :

1-كان المنطلق قد بدأ بتحديد المصطلحات الأساسية للموضوع وذلك بإفراد فصل تمهيدي نظري كمفتاح للمباحث التطبيقية .

2-بالنسبة لصيغة أولي العزم، تم التحقيق فيها استنادا إلى المعاجم، وكتب العقيدة وأمهات التفسير، في البحث عن الأدلة المرجحة، للزمرة الخاصة من الأنبياء، وانتهينا إلى قرينتين :

أ-تتبع ما جاء به علماء السلف، وشراح الأثر والمفسرون الأوائل.

ب-اعتماد آيتي الأحزاب والشورى، كمنطلق لمناقشة المفسرين وشراح الأثر في آرائهم؛ لإثبات الصلة بين إجمال صيغة العزم في آية الأحقاف، وتفصيلها في آيتي الأحزاب والشورى.

3-وعلى العموم تم تتبع المصطلحات في مسارها التاريخي وبحث دلالاتها من مصادرها وأصولها، وعرض آراء المختصين والباحثين حول استعمالاتها، مع مناقشتها، ومحاولة الترجيح.

4-ترجمة وجيزة لأهم الأعلام الواردة.

5-اتبعت في الدراسة التطبيقية الخطوات الأتية :

أ: دراسة نماذج قصصية لأولي العزم في سورة واحدة، وهي سورة الأنبياء.

ب: الاعتماد في معظم جزئيات المباحث على جمع الحلقات الخاصة بقصص أولي العزم في السور المتفرقة، وفق منهج اختزالي انتقائي، للوقوف على القوانين العامة، والظواهر المطردة على مستوى المنظور والبنية، مع مراعاة خواص السياق الداخلي لوحدة السورة القرآنية، والسياق الخارجي، ويتمثل في وقائع الرسالة الخاتمة، وأحداث السيرة.

وتتحقق الجمالية منهجنا المتبع من خلال التركيب بين الخطوتين.

ج: و قد استفدت من المنهج الاحصائي، بتوظيف جداول أحصر فيها النماذج القصصية من النصوص السردية، سواء في السورة الواحدة أو في السور المتفرقة، لتيسير الوقوف على القواسم المشتركة منها، وإبراز السنن والظواهر التي تسير عليها.

6- الاعتماد في تحليل النماذج القصصية على أمهات التفاسير والدراسات المتخصصة في القصص القرآني، والمراجع النقدية الخاصة بنقد الرواية الإنسانية .

7-حرصت على استهلال الفصول والمباحث، بتوطئة تطرح الإشكال الذي تتدرج جزئيات المباحث في حله، وأختم كل مطلب و مبحث و فصل خلاصة أضمنها نتائج الدراسة.

على الرغم من اهتمام الباحثين والدارسين بالمواضيع المتعلقة بالقصص القرآني عموما،وقصص الأنبياء والرسل خصوصا، ومع حرصي الكبير على الاطلاع على كل ما يمت إلى موضوعي بصلة، فإني لم أجد دراسة بالعنوان والمنهج ذاته.

وربما كانت دراسة محمد فتحي حافظ قـــورة؛ "القرآن وأنباء الأنبياء في الحديث عـــن المعجـــزة الخالدة، وأولي العزم من الرسل" في ظاهر العنوان أكثر اتصالا بموضوع بحثي، ولكن في الحقيقة هي أبعد ما يكون عن المنهج والأهداف التي سرت عليها في دراستي لقصص أولي العزم، حيث اكتفـى بجمع الحلقات المتعلقة بقصة كل نبي على حده.

ويمكن تصنيف الدراسات السابقة في موضوع القصص القرآني عموما إلى اتجاهين، اتجـــاه مغرق في الجانب الفني لدرجة تأويل المقصد، وتحريفه، مثل كتاب " الفن القصصـــي في القـــرآن الكريم"لمحمد أحمد خلف الله، واتجاه مغرق في الجانب الفكري الـــتربوي الوعظـــي، محتشـــما في استفادته من الأساليب الجمالية المبتكرة مثل كتاب محمد شديد " منهج القصة في القرآن " وبكري الشيخ أمين في كتابه " التعبير الفني في القرآن ".

ولا ننكر الاستفادة الجليلة التي فتحت لنا أفاقا واسعة في البحث، في محاولة ردم الهوة بـــين الاتجاهين بما يخدم جمالية القصص القرآني، وتتمثل في جهود سيد قطب الجدير بقصب الســـبق في رؤيته للمنهج، وتنظيراته للعناصر واستشرافه للمقاصد والآثار ، ومعظم من جاء بعده لم يضـــف جديدا بل غرف من معينه، وقد حققت تلك الإشارات والوقفات سواء في كتابة التصوير الفـــني أو الظلال فتحا كبيرا للدراسات الجمالية في القصص القرآني .

دون أن نغفل التنويه بجهد سليمان عشراتي في كتابه "الخطاب القرآني"، الذي يعد إضافـــة قيمة، في مجال توظيف المناهج النقدية المعاصرة، بما يكشف عن جماليات النص القصصي القـــرآني، دون نقض لخواصه المعجزة .

تشتمل الرسالة على مقدمة، وثلاثة فصول، تحت كل فصل ثلاثة مباحث.

كان الفصل الأول تمهيدا، يعرض: **قصص أولي العزم مصطلحا ومنهجا**، ويتعلق أساسا بتحديد المصطلحات، والفصل يطرق الجانب النظري في مباحث ثلاثة ويعد مفتاحا أساسيا للمباحث التطبيقية.

المبحث الأول: التعريف بأولي العزم، وهو عصب محوري محرك لكل المحاور، وأولية طرحه من ضرورة الكشف عن هوية الشخصيات المقصودة بالصيغة، ليكون المنطلق بمعرفة من هم أولوا العزم؟ سابقا عن أي هاجس آخر.

المبحث الثاني: القصص القرآني مصطلحا ومنهجا، إن معرفة حقيقة أولي العزم، كشخصيات محددة، يطرح انشغالا عن طريقة عرضهم في القرآن الكريم، ولايتم ذلك إلا بمعرفة خواص البنية القصصية التي تميزه وصولا للمنهج المناسب لدراستها.

المبحث الثالث: الجمالية مصطلحا ومنهجا، بما أنّ المنهج الجمالي قد حدد اختيارا، حاولنا البحث في الجذور الاصطلاحية، والخواص المنهجية للجمالية، وذلك للكشف عن قيمته لدراسة القصص القرآني، وقصص أولي العزم خاصة.

أما الفصل الثاني وعنوانه: **جمالية عرض الأبعاد الأساسية في قصص أولي العزم**، يعد محاولة لدراسة القواسم المشتركة بين الأنبياء الخمسة عليهم السلام، دراسة عمودية للظواهر المتكررة، والسنن والقوانين العامة التي واكبت سيرهم، وذلك لأن من أهم خواص الجمالية منهجا، الاستناد إلى تصور إلهي واضح الأبعاد والمقاصد، شامل للكون والإنسان يواكب حركة المجتمعات الإنسانية على مر الزمان واختلاف المكان، ويفصل ذلك في المباحث التالية:

المبحث الأول: البعد العقدي، حاولنا من خلاله الوقوف على جمالية التناسق السنني بين وحدة الرسالة، ووحدة القانون الإلهي العام وصلته بالحرية الإنسانية، بالتركيز على المحور الثابت الذي توارثه أولوا العزم من الرسل جيلا بعد جيل أي الإيمان والتغيير الذاتي.

المبحث الثاني:جمالية عرض البعد الاجتماعي في قصص أولي العزم، وذلك بالوقوف على جمالية التناسق السنني بين وحدة القانون وحركة المجتمع وهو يطرق الجانب العملي للتصور في حركته الفاعلة في المجتمع، ما دامت رسالة التوحيد التي حمل لواءها أولوا العزم إلى المجتمعات

الإنسانية، وما يدور فيها من تجليات للفعل ولرد الفعل، من خلال الوقوف على القانون السنني العام المتحكم في سقوط المجتمعات ونهضاتها، أي الإيمان والتغيير الاجتماعي.

المبحث الثالث: جمالية عرض البعد الحضاري، حاولت خلاله دراسة التناسق السنني بين وحدة الرسالة وحركة التاريخ، وذلك بالتأكيد على الرباط المتين بين التصور والتعمير من خلال تواصل الرسالات وتظافرها لإيصاله للإنسانية، أي (الإيمان والتغيير الحضاري).

أما الفصل الثالث وعنوانه: **جمالية عرض العناصر الفنية في قصص أولي العزم**، محاولة لدراسة أهم العناصر المشكلة لبنية قصص أولي العزم، كوسيلة أساسية لاستكناه الجمال، من خلال الوقوف على بنية الشخصية والتجليات الفنية للزمان والمكان، وذلك في ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: جمالية عرض الشخصية في قصص أولي العزم، وهي محاولة لدراسة بنية الشخصية وخواصها الجمالية.

المبحث الثاني: جمالية الزمان وقيمته في عرض شخصيات أولي العزم، ويقف بنا على دلالة الزمن في رسم شخصيات أولي العزم وقيمتها الجمالية.

المبحث الثالث: جمالية المكان وقيمته في عرض شخصيات أولي العزم، ويتطرق إلى جمالية توظيف المكان في السرد القصصي القرآني وقيمته في رسم شخصيات أولي العزم.

ثم تأتي الخاتمة لتتضمن أهم النتائج؛ وذيلت الرسالة بالفهارس.

وختاما أحمد الله تعالى لأنه أتاح لي من فضله فرصة التتلمذ في مدرسة القرآن، وأسأله التوفيق والسداد لاستحقاق هذا الشرف العظيم، ولله الحمد من قبل ومن بعد .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل التمهيدي

قصص أولي العزم مصطلحا ومنهجا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة:

يتعلق هذا الفصل في أوليته التمهيدية أساسا بتحديد المصطلحات « فتعمد الحديث في أي فن معرفي، بتحاشي أدواته الاصطلاحية يمثل دربا من التشويه، لا يتغاضى عنه، إلا عند مراعاة السياق الثقافي الأعم، على أن هذا التجاوز يظل محكوما بهامش دقيق، كدقة مضايقه المعرفية الأخرى »[1].

والفصل يطرق الجانب النظري في مباحث ثلاثة، ويعد مفتاحا أساسيا للمباحث التطبيقية.

المبحث الأول: أولوا العزم مصطلحا.

المبحث الثاني : القصص القرآني مصطلحا ومنهجا

المبحث الثالث: الجمالية مصطلحا ومنهجا

1- عبد السلام المسدي ، المصطلح النقدي، مؤسسات عبد الكريم للنشر والتوزيع تونس، أكتوبر 1994 ص11.

المبحث الأول

أولوا العزم مصطلحا

توطئة :

إن أولية السؤال عن هوية أولي العزم مهمة كمفتاح أساسي لسبر أغوار الموضوع ومسلك أي دارس يتوضح من تحديد منطلق سيره ثم حصر الوسائل اللازمة للوصول إلى الأهداف المسطرة ومنه كان هذا السؤال المحوري : من هم أولو العزم ؟

وللإجابة عنه لابد من تتبع الصيغة في القرآن الكريم ثم في المعاجم وكتب العقيدة، قبل مناقشة المفسرين في آرائهم، وذلك من باب حصر الوسائل المعتمدة في هذا المبحث .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول

حقيقة أولي العزم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا :أولوا العزم في القرآن

إن السؤال عن حقيقة أولي العزم كمنطلق أولي يظهر من تتبعنا لصيغة أولي العزم في القرآن الكريم، حيث وردت مرة واحدة فقط في سورة الأحقاف ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[1] والإشكال ليس في الدلالة اللغوية للصيغة، فلا خلاف في ذلك عند جمهور اللغويين والمفسرين، وإنما الإشكال في الدلالة الاصطلاحية وما تحمله من مقاصد.

بما أن صيغة أولي العزم ذكرت مرة واحدة و لم يلحق بها أي تحديد للفئة المعنية بالوصف،فإن ذلك يقتضي فرضيات.

- الفرضية الأولى: تقول بأن إطلاق أولي العزم دون تعيين الزمرة الخاصة يفيد العموم، فهل يتحقق المقصد من شمولية الصيغة لكل الرسل ؟
- الفرضية الثانية: تعتبر صيغة أولي العزم،تخصيصًا لبعض الأنبياء دون غيرهم، وإذا كان الأمر كذلك، فمن أي وجهة يتم تحديد هويتهم، ما دامت الصيغة بمعزل عن أي إسم من الأسماء ؟
- الفرضية الثالثة:وهي القول بتكافؤ الفرضيتين، ما دامت لا توجد قرينة واضحة تحدد الزمرة الخاصة، أو تُغلِبُ تعميم الصيغة ومن ثمة لابد من البحث في المعاجم اللغوية والقرآنية ، لتحديد دلالة الصيغة على ضوئها .

ثانيا : أولوا العزم في المعاجم

من معاجم اللغة وجدنا في لسان العرب بعض الإضاءات الهامة في تحديد هوية أولي العزم"وأولوا العزم من الرسل الذين عزموا على أمر الله فيما عهد إليهم، وجاء في التفسير أن أولي

1- الأحقاف 35

العزم، نوح إبراهيم وموسى عليهم السلام ومحمدﷺ من أولي العزم أيضا، وفي التنزيل ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾، وفي الحديث ليعزم المسألة أي يجدّ فيها ويقطعها والعزم الصبر، وقوله تعالى في قصة آدم﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، قيل العزم والعزيمة هنا الصبر أي لم نجد له صبرا، وقيل لم نجد له صريمة ولا حزما، فيما فعل والصريمة والعزيمة واحدة، وهي الحاجة التي عزمت على فعلها يقال طوى فلان فؤاده على عزيمة أمر إذا أسرها في فؤاده "[1] ونخلص إلى الملاحظات التالية:

1- الدلالة اللغوية لصيغة العزم عند ابن منظور لا تشمل كل الأنبياء، وهو بذلك يعزز الفرضية الثانية بأن أولي العزم صفة خاصة ببعض الرسل، وليس عامة.

2- عدم الركون إلى الدلالة اللغوية الصرفة، بل اعتمد على خلاصة التفاسير في تحديد هوية أولي العزم، وقد ذكر في المتن أربعة أسماء، واستدرك الناشر الإسم الخامس وهو عيسى عليه السلام.

3- لم يصرح بأي دليل على ترجيح الأنبياء الخمسة دون غيرهم .

من المعاجم القرآنية وجدنا في المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم مادة"رسل"[2] تحديدا لأسماء أولي العزم من خلال ما جاء في سورتي الأحزاب والأحقاف﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ، وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[3] و﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[4] ونخلص إلى الملاحظات الآتية :

1- تعامل المعجم مع صيغة أولي العزم، كمسلمة لا خلاف حولها.

2- لم يحدد المعجم أسماء أولي العزم بإطالة شرح أو تفصيل بيان، بل اكتفى بتحديد مادة "رسل" بعنوان موجز يخصص صيغة العزم على بعض الرسل" الرسل : أولوا العزم منهم "[5]

1- ابن منظور،لسان العرب،دار بيروت،دار صادر،م12،ص400

2- محمد بسام رشدي، محمد عدنان سالم، المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم، دار الفك دمشق سورية، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ط 1 ،1416ه ، 1995 م ، ص501

3- الأحزاب 7

4- الأحقاف 35

5- المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم،ص501

3- الاعتماد على ما جاء في سورة الأحزاب فقط للتفصيل فيم أجملته صيغة أولي العزم المذكورة في سورة الأحقاف.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام، هل الأنبياء الخمسة الذين ذكروا في سورة الأحزاب لهم علاقة بصيغة أولي العزم في سورة الأحقاف؟! وما هي قرينة الربط بينهما.

ومحاولة الإجابة عن هذا السؤال تصلنا بضرورة الوقوف مع كتب العقيدة، ما دام الإيمان بالرسل من أكبر دعائمها، وكيف لا ؟ وهم حملة العقيدة وسفراؤها إلى الأمم.

ثالثا: أولوا العزم في كتب العقيدة

من كتب العقيدة وقفنا مع كتاب أصول العقيدة الإسلامية، للإمام الطحاوي في الفصل في هوية أولي العزم "وأما أولوا العزم من الرسل، فقد قيل فيهم أقوال أحسنها ما نقله البغوي[1] وغيره عَن ابن عباس[2] وقتادة[3] أنهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وهم المذكورون في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الأحزاب7، ومن قوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ الشورى13 "[4].

ونخلص إلى الملاحظات التالية :

1- الإقرار بوجود خلاف، في تحديد هوية أولي العزم.

2- عدم وجود نص ثابت عن الرسول ﷺ للفصل في هوية أولي العزم. لأنه لو وجد فعلا لكان الأجدر بصاحب العقيدة الطحاوية من إيراده في هذا المقام .

1- البغوي: 436ه-510ه/1044م-1117م

وهو الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي،فقيه ومحدث ومفسر، انظر وفيات الأعيان ج2 ص136-137، الأعلام ج2 ص259

2- ابن عباس: هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم،بن عم رسول الله ﷺ حجة في التفسير والحديث والفقه ولد قبل ثلاث من الهجرة وتوفي عام 68ه . انظر غاية النهاية في طبقات القراء ج1 ص425-426

3- قتادة: هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي،المفسر الفقيه المحدث،توفي سنة 118ه انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ج7 ص171

4- الطحاوي، أصول العقيدة الإسلامية،دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة الجزائر ص96

3- حجية ما جاء به علماء السلف وشراح الأثر: ابن عباس وقتادة، المفسرون الأوائل، خاصة لتعلق الأمر بالأصول العقيدية.

4-الاستناد إلى آيتي الأحزاب والشورى في تحديد أسماء أولي العزم.

ومن خلال ما سبق يمكن الخروج بنقاط واضحة يمكن اتخاذها كمعالم أساسية.

1- الدلالة اللغوية لصيغة العزم تفيد الخصوص باعتبار العزم صفة خاصة ببعض الأنبياء المقصود بها قوة الإرادة، والصبر، والقرينة واضحة من إخراج آدم عليه السلام من هذه الزمرة، بصريح الآية ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾[1] أي إرادة قوية، فمن هم أولوا العزم إن أثبتت القرينة اللغوية خصوصيتهم ؟

2-الاعتماد في الدلالة اللغوية في إفادة تخصيص بعض الأنبياء بصيغة العزم، لا يقدم أي دليل لترجيح أسماء بعينها. دون بقية الأسماء .

3- ضرورة الاستعانة بالمعاجم القرآنية وكتب العقيدة في البحث عن الأدلة المرجحة للزمرة الخاصة من الأنبياء مادام الخلاف الأساسي ليس في عموم أو خصوص صيغة العزم بل في تحديد هوية الزمرة الخاصة، ومعرفة من م أولوا العزم الذين خصهم القرآن بالذكر.

4- وفي البحث عن الأدلة المرجحة يمكن الاستناد على عدة قرائن :

-**القرينة الأولى**: تتبع ما جاء به علماء السلف وشراح الأثر، والمفسرون الأوائل.

-**القرينة الثانية**: اعتماد آيتي الأحزاب والشورى كمنطلق، لمقارنة بين آراء المفسرين وشراح الأثر و ذلك لإثبات الصلة بين إجمال صيغة العزم في آية الأحقاف وتفصيلها في آيتي الأحزاب والشورى، لتحديد هوية أولي العزم.

وهذا ما سوف نحاول الوصول إليه في المطلب الثاني.

1- طه /115 .

المطلب الثاني

أولوا العزم عند المفسرين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة:

اختلف المفسرون حول صيغة أولي العزم، بين القول بإفادتها خصوص الأنبياء والقول بعمومها وبين التسليم بتكافؤ الفرضيتين سواء بسواء، دون تغليب لكفة عن الأخرى، وفي ذلك تضاربت الأقوال في تحديد هوية أولي العزم. وللوصول إلى نتيجة فاصلة حاولنا تقسيم المفسرين إلى فئتين، فئة القائلين بتكافؤ الفرضيتين، و فئة القائلين بخصوص صيغة أولي العزم حتى نتمكن بعد مناقشة الأدلة من الترجيح.

أولا: مع القائلين بتكافؤ الفرضيتين

1- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري[1]

وهو من المصادر الجامعة للتفسير بالمأثور حيث وقف على الدلالة اللغوية، لصيغة أولي العزم في معرض تفسيره لسورة الأحقاف، في قوله تعالى﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[2] قائلا« يقول تعالى ذكره لنبيه محمد-ﷺ- مثبته على المضي لما قلده من عبء الرسالة وثقل أحمال النبوة -ﷺ-، وآمره بالإتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لاقوا فيه من قومهم من المكاره ، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد»[3] فهو يتكئ

1- هو محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري ولد سنة 224 توفي 300 ه ببغداد، كان إماما في التفسير والفقه والتاريخ . انظر وفيات الأعيان ج4 ص191-192.

2- الأحقاف35.

3- الطبري جامع البيان في تفسير القرآن دار الفكر بيروت 1397 1978م9 ج 26 ص24.

على الدلالة اللغوية لصيغة أولي العزم، في التنويه بصفة الصبر كمقصد أساسي للاحتذاء والتأسي، ويراعي بعد ذلك التمحيص في عرض الأقوال باقتضاب ودون إرسال "وقيل أن أولي العزم منهم كانوا الذين امتحنوا في ذات الله في الدنيا بالمحن ، فلم تزدهم المحن إلا جدا في أمر الله كنوح وإبراهيم وموسى وأشباههم، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثني يونس[1] قال أخبرنا ابن وهب[2] قال ثنى ثوابه بن مسعود عن عطاء الخرساني[3] أنه قال فاصبر كما صبر أولي العزم من الرسل نوح وإبراهيم وموسى، وعيسى ومحمد -ﷺ- ."[4]

ولم يصرح بميله لهذا القول، كدليل يثبت خصوصية أولي العزم، ويردفه بقول آخر يفيد عموم الصيغة وهو" ما حدثني به يونس قال أخبرنا بن وهب،قال بن زيد[5] في قوله ، فاصبر كما صبر أولي العزم من الرسل قال كل الرسل كانوا أولي عزم، لم يتخذ الله رسولا إلا كان ذا عزم فاصبر كما صبروا "[6] والظاهر أن الأمر محل نزاع بين القائلين بالخصوص والقائلين بالعموم ولا يوجد أي نص ثابت قطعي من سنة رسول الله-ﷺ- لترجيح كفة عن الأخرى، وبالتالي اكتفى الطبري بعرض آراء أهل التأويل وهي أثار وشروح المفسرين الأوائل دون أدنى محاولة للترجيح بينهما .

وعلى نفس النسق في آية الشورى، لا يوضح أي علاقة بين الخمسة المذكورين ، وصيغة أولي العزم يقول "شرع لكم من الدين ما وصى به، وهو أن أقيموا الدين، وإن كان معنى الكلام ما وصفت، فمعلوم أن الذي أوصى به جميع الأنبياء وصية واحدة وهي إقامة الدين الحق، ولا تتفرقوا فيه."[7]

1- يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة الصدفي، أبو موسى المصري من رواة الحديث الموثوقين ولد سنة 170ه وتوفي سنة 264ه

- انظر تقريب التهذيب ج2 ص349 ، وتهذيب التهذيب ج11 ص385-386

2- ابن وهب عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم أبو محمد المصري الفقيه من رواة الحديث الموثوقين توفي سنة 97 وروى عن ثوابة بن مسعود التنوخي.

- انظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال م4 ج16 ص277 . 282 وتقريب التهذيب ج1 ص545

3- عطاء بن أبي مسلم أبو عثمان الخرساني، من رواة الحديث توفي سنة 35. انظر تقريب التهذيب م4 ج1 ص676

4- جامع البيان في تفسير القرآن ج26 ص24

5- ابن زيد هو التابعي محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ بن عمير بن جدعان القريشي التيمي المدني، من رواة الحديثانظر تهذيب التهذيبج3 ص665

6- المصدر السابق ج26 ص24

7- المصدر السابق ج25 ص10

وبالنسبة لآية الأحزاب ، ويؤكد على الميثاق القاسم المشترك بين الخمسة المذكورين دون الإشارة إلى أنهم المعنيون بأولي العزم "وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، ميثاق أخذه الله على النبيين خصوصا أن يصدق بعضهم بعضا ، وأن يتبع بعضهم بعضا."[1]

ونخلص إلى جملة ملاحظات :

1- استند إلى الدلالة اللغوية، لصيغة أولي العزم، مع التنويه بمقصد التأسي ألا وهو الصبر وقوة التحمل.

2- عرض شروح المفسرين الأوائل، والمأثور من آراء أهل التأويل المختلفة، دون ترجيح بينها.

3- عدم وجود نص قطعي ثابت عن الرسول -ﷺ- للفصل في هوية أولي العزم.

4- التعرض لآيتي الأحزاب والشورى دون إيضاح العلاقة بين الأنبياء الخمسة المذكورين وبين صيغة أولي العزم.

2- التفسير الكبير (للرازي)

وعلى نفس النسق يتعرض الرازي[2] للخلاف بين القائلين بخصوصية أولي العزم، وبين القائلين بعموميتها دون فصل أو ترجيح في وقفته مع الآية الكريمة" ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي أولوا الجد والصبر والثبات وفي الآية قولان الأول أن تكون كلمة من للتبعيض، ويراد بأولي العزم بعض الأنبياء، قيل هم نوح صبر على أذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم على النار وذبح الولد، وإسحاق على الذبح ويعقوب على فقدان الولد، وذهاب البصر ويوسف على الجب، والسجن، وأيوب على الضر وموسى قال له قومه (إنّا لمدركون) قال (كلا إن معي ربي سيهدين) وداود بكى على زلته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها، وقال الله تعالى في آدم (ولم نجد له عزما) وفي يونس (ولاتكن

1- المصدر السابق ج21ص79

2- هو الإمام الفقيه الشافعي المفسر النحوي الأصولي،فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري،ولد في 544ه وتوفي 606ه ، وفيات الأعيان ج4 ص248 -252

كصاحب الحوت)، والقول الثاني : أن كل الرسل أولوا عزم و لم يبعث الله رسولا إلا كان ذا عزم وحزم، ورأي وكمال عقل ولفظة (من) في قوله (من الرسل تبيين لا تبعيض كما يقال، كسيته من الخمز، وكأنه قيل اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم."[1]

ويختلف الأمر كثيرا في وقفته مع آية الأحزاب السابقة﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ، وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ حيث يحاول إيجاد تفسير مقنع لخصوصية المذكورين في الآية الكريمة فقد "خص بالذكر أربعة من الأنبياء، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، لأن موسى وعيسى كان لهما في زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجا على قومهما، وإبراهيم كان العرب يقولون بفضله، وكانوا يتبعونه في الشعائر بعضها ونوحا لأنه كان أصلا ثانيا للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان، وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح، فنقول خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الإرشاد للأولاد، ولهذا لم يكن في زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب وأما نوح فكان مخلوقا للنبوة، وأرسل للإنذار، ولهذا أهلك قومه وأغرقوا. "[2]

ورغم أنه لم يصرح لا لفظا، ولا ضمنا أن أولي العزم هم الخمسة المذكورين في الآية، إلا أن في قوله تدليل وجيه على خصوصية الأنبياء الخمسة، واستحقاقهم للامتياز والريادة يؤكده في سورة الشورى مع آية ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ .

" وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة "[3] ومن ثمة نخلص إلى أن الرازي تعامل مع صيغة أولي العزم تعاملا سطحيا حذرا، دون معالجة محكمة، اكتفى ببسط الأقوال دون ترجيح الكفة، بالأدلة المقنعة فهو لم يظهر ميلا لأي طرف وحتى في تدليله على امتياز الأنبياء الخمسة لم يصرح أنهم أولوا العزم على الرغم من تحديده لبعض الخصائص المميزة، مثل: أكابر، أصحاب الشرائع، أصحاب الأتباع.

1- الرازي،التفسير الكبير،دار إحياء التراث العربي،ط3،ج25،ص35.

2- التفسير الكبير ج25 ص197.

3- التفسير الكبير ج27 ص156

3- الكشاف (للزمخشري)

بالنسبة للزمخشري[1] في كشافه، يهتم بالدلالة اللغوية أكثر من الدلالة الاصطلاحية، و لم يفاضل بين دعوى خصوص الصيغة على بعض الأنبياء، وعمومها على الجميع عليهم السلام « أولوا العزم، أولوا الجد والثبات، والصبر و(من)، يجوز أن تكون للتبعيض ويراد بأولي العزم، بعض الأنبياء، قيل هم نوح، صبر على أذى قومه كانوا يضربونه، حتى يغشى عليه، وإبراهيم على النار، وذبح ولده وإسحاق على الذبح، ويعقوب على فقد ولده، وذهاب بصره، ويوسف على الجب، والسجن، وأيوب على الضر، وموسى قال له قومه إنا لمدركون، قال كلا إن معي ربي سيهدين، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال إنها معبرة فاعبروها، ولا تعمروها، وقال الله تعالى في آدم، و لم نجد له عزما وفي يونس، ولاتكن كصاحب الحوت، ويجوز أن تكون للبيان فيكون أولوا العزم صفة الرسل كلهم.»[2]

يكشف لنا الزمخشري عن المفهوم اللغوي لصيغة أولي العزم على أساس أنها صفة للخصوص من الأنبياء الكرام عليهم السلام جميعا ويعضد هذا الاحتمال بأقوال تتفاوت لتحديد هوية أولي العزم، مدعومة بتعليل بسيط للصفات التي منحتهم استحقاق هذه الدرجة.
وينتهي بنا إلى التسليم بجواز إفادتها عموم الأنبياء، دون تغليب لكفة على أخرى.

أما في معرض تفسيره لآية الشورى، فيقدم إضافة بالغة القيمة، دون تصريح بهوية أولي العزم « ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ﴾ دين نوح ومحمد، ومن بينهما من الأنبياء، ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه »[3] وقد أضاف صفة مميزة للأنبياء الخمسة عن غيرهم هي كونهم الأعلام، الذين نستدل بوجودهم.

1- الزمخشري: هو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري،الإمام الكبير في علوم الدين والتفسير واللغة والأدب كان متكلما معتزلي المذهب ولد سنة 467ه توفي سنة 538ه . انظر وفيات الأعيان ج5 ص168-173 . الأعلام ج7 ص178.

2- الزمخشري،الكشاف،دار المعرفة بيروت د.ط ج3 ص451.

3- الكشاف ج3 ص 399-400.

4- التحرير والتنوير (للطاهر بن عاشور)

ونلمس عند الطاهر بن عاشور، الاهتمام الكبير بالدلالة اللغوية، دون تحديد لهوية أولي العزم بصريح اللفظ إذ يقول «وأولوا العزم، أصحاب العزم، أي المتصفون به والعزم نية محققة على عمل أو قول، دون تردد قال تعالى﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، وقال ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾، وقال سعد بن ناشب من شعراء الحماسة يعني نفسه.

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكتب عن ذكر العواقب جانبا

والعزم المحمود في الدين، العزم على ما فيه تزكية النفس وصلاح الأمة، وقوامه الصبر على المكروه، وباعث التقوى، وقوته شدة المراقبة، بأن لا يتهاون المؤمن عن محاسبة نفسه قال تعالى﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾وقال ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ وهذا قبل هبوط آدم إلى عالم التكليف.»[1]

يحاول الطاهر بن عاشور الكشف عن دلالة أولي العزم في المعجم اللغوي والقرآني بدقة وعناية؛ ثم يتعرض للخلاف القائم بين دعوى الخصوص والعموم ويبني رأيه على ما جاء في القرآن من إخراج آدمعليه السلام من صيغة العزم« وعلى هذا تكون (من) في قوله (من الرسل) تبعيضية، وعن ابن عباس أنه قال : كل الرسل أولوا عزم، وعليه تكون(من بيانية) وهذه الآية اقتضت أن محمدا-ﷺ- من أولي العزم، لأن تشبيه الصبر الذي أمر به، بصبر أولي العزم، من الرسل يقتضي أنه مثلهم لأنه ممتثل أمر ربه، فصبره مثيل لصبرهم، ومن صبر صبرهم كان منهم لا محالة. »[2]

ونلمس أن ابن عاشور لا يفصل في الأمر، وكأني به يقول إن صيغة أولي العزم تحتمل الخصوص والعموم سواء بسواء .

بينما يبني فرضية الخصوص على إخراج آدم بصريح النص من أهل العزم يبني فرضية العموم على قول ابن عباس، القاضي بإطلاق الصيغة على جميع الأنبياء عليهم السلام والأمر على إطلاقه لا يعد دليلا قويا صدوره عن ابن عباس ، ويفسر الأمر بدلالات إلحاق محمدﷺ بأولي العزم؛ على أساس التأسي والاقتداء بنهجهم في الصبر وقوة التحمل، ويوسع الدائرة أكثر لكل متمثل لصبر أولي العزم يتسمى باسمهم.

1- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، تونس 84 ج26 ص67.

2- التحرير والتنوير ج25 ص51.

أما في آية الشورى، فيقدم تعليلا لخصوصية الأنبياء الخمسة المذكورين، دون تصريح مباشر، بأنهم أولي العزم المعنيين في آية الأحقاف "دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن نوحا، أول رسول أرسله الله إلى الناس، فدينه هو أساس الديانات قال تعالى﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح ﴾ ونبيين من بعده، ولأن دين إبراهيم هو أصل الحنفية، وانتشر بين العرب، بدعوة إسماعيل إليه، فهو أشهر الأديان بين العرب وكانوا على إثارة منه، في الحج والختان، والقرى، والفتوة، ودين موسى، هو أوسع الأديان السابقة، في تشريع الأحكام، وأما دين آخر وليضمن التهيئة إلى دعوة اليهود والنصارى إلى دين الإسلام. "[1]

هي وقفة لتفسير اجتماع الأنبياء الخمسة عليهم السلام في آية الشورى، أما في وقفتهم مع آية الأحزاب، ويظهر الاهتمام البالغ للجزئيات اللغوية" ﴿ ومِنكَ ومِن نُّوحٍ﴾ الخ هو من ذكر بعض الأفراد العام، للاهتمام بهم، فإن هؤلاء المذكورين أفضل الرسل، وقد ذكر ضمير محمد-ﷺ-، قبلهم إيماء إلى تفضيله على جميعهم، ثم جعل ترتيب ذكر البقية على ترتيبهم في الوجود، ولهذه النكتة خص ضمير النبي، بإدخال حرف (من) على مجموع الباقين، فكان قد خص، باهتمامين، اهتمام التقديم واهتمام إظهار اقتران الابتداء، بضميره بخصوصه غير مندمج في بقيتهم -عليهم السلام- "[2]

وأهمية رأي ابن عاشور تكمن في إشارته لأفضلية المذكورين في الآية على عموم الأنبياء عليهم السلام جميعا،دون ربط صلتهم بصيغة أولي العزم في آية الأحقاف،ربما لميله أنها صيغة عموم تسع الإنسانية قاطبة .

ومن جهة أخرى ينوه بأفضلية النبي الخاتم محمد-ﷺ- في تقديمه بالذكر على بقية الأنبياء الذين عرضوا بترتيبهم في الظهور، واستقلاله بضمير يميزه عن الباقين عليه السلام جميعا.

1- التحرير والتنوير ج25 ص51

2- التحرير والتنوير ج21 ص275

ونخلص إلى النقاط التاليـــــة:

1- يحتفل بن عاشور بالكشف عن دلالة أولي العزم في المعجم اللغـــوي، والقـــرآني بدقـــة وعناية.

2- يتعرض للخلاف القائم بين دعوى الخصوص والعموم دون ترجيح لجهة عن الأخرى.

3- يبني فرضية خصوص الصيغة على بعض الأنبياء، من النص القرآني الذي يذكر آدم مجـــردا من صفة العزم، ويبني فرضية العموم على قول ابن عباس دون تقديم سند يرجع إليه، موسعا لدلالـة الصيغة فكل متمثل لصبر أولي العزم، يدخل دائرهم.

4- ينوه بأفضلية الأنبياء الخمسة عليهم السلام المذكورين في آيتي الأحزاب والشـــورى، دون التصريح بعلاقتهم بصيغة أولي العزم في آية الأحقاف، ربما لميله الضمني أنها صيغة عمـــــوم ليـــس للأنبياء فقط بل كل من سار في نهج صبرهم وقوة تحملهم، يعد من أولي العزم ويتسمى باسمهم.

وبعد مناقشة القائلين بتكافؤ فرضيتي العموم والخصوص، نخلص إلى الآتي :

1- عناية المفسرين في هذا القسم بالدلالة اللغوية لصيغة أولي العزم، في المعجم اللغوي والقرآني.

2- التعرض للخلاف القائم بين القائلين بالخصوص والقائلين بالعموم، دون ترجيح لكفة عـــن أخرى.

3- عرض المأثور من شروح المفسرين الأوائل دون محاولة ترجيح وهذا دليل على عدم وجـــود نص قطعي ثابت عن الرسول-ﷺ- فصل في هوية أولي العزم.

4- محاولة تحديد بعض الخصائص المشتركة بين الأنبياء الخمسة المذكورين في آيـــتي الأحـــزاب والشورى دون التصريح بعلاقتهم بصيغة أولي العزم المذكورة في الأحقاف.

5- يمكن الاستناد على الخصائص في ضبط دلالة العزم مـــــن الدلالـــة اللغويـــة إلى الدلالـــة الاصطلاحية، مثل أصحاب الشرائع، الأعلام، الرواد الكبار، الأكابر أصحاب الكتب، ...

6- التنويه بأفضلية الأنبياء الخمسة المذكورين في آيتي الأحزاب والشورى، تشريفا لمقامـــــهم، وإعلاء لشأنهم.

7- لا يمكن التوصل لإجابة علمية كاملة عن السؤال المطروح بداية من هم أولوا العـــزم؟ إلا بعد عرض ومناقشة الطرف الثاني القائلين بخصوص صيغة أولي العزم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا : مع القائلين بخصوص صيغة أولي العزم

1-تفسير ابن كثير

أما ابن كثير[1] فقد أوضح في تفسير آية الأحقاف السابقة، اختلاف الأقوال في تحديد هوية أولي العزم واكتفى بترجيح أشهرها، مع اعتماد آيتي الأحزاب والشورى دليلا قائما بذاته«وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال، وأشهرها أنهم نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد-ﷺ- قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء، في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى»[2] ورغم عدم احتفاله بذكر الأقوال المتضاربة فلا يهمل الفرضية الثانية القائمة على أساس تعميم الصيغة على جميع الرسل عليهم السلام، حيث يقول يحتمل« أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل، فتكون (من) في قوله من الرسل لبيان الجنس»[3] وهذا لا ينقض التصريح المباشر.

بل يحاول من جهة أخرى فصل الإشكال ضمنيا بربط الأنبياء الخمسة عليهم السلام بصيغة أولي العزم في معرض تفسيره لسورة الشورى «﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ، وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام ، وآخرهم، وهو إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ »[4]

ونخلص إلى الآتي :

1-صرح ابن كثير في تفسير آية الأحقاف أن المقصودين بصيغة أولي العزم هم الخمسة المذكورين في آيتي الأحزاب والشورى، مع الإشارة إلى الفرضية الثانية بعموم الصيغة من باب التقديم والعرض، لا لنقض ما جاء سلفا.

1- هو الإمام المحدث الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن الخطيب شهاب الدين أبي حفص عمر بن كثير القريشي الشافعي ولد سنة 701ه ألف في التفسير والتاريخ توفي سنة 774 . انظر النجوم الزاهرة ج11 ص123 .

2- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر ج26 ص173.

3- المصدر السابق ج26 ص173.

4- المصدر السابق ج25 ص110.

2- ويمكن تفسير هذا القلق العلمي، بعدم وجود قرينة ربط صريحة بين صيغة أولي العزم في سورة الأحقاف وبين أسماء، الأنبياء الخمسة عليهم السلام، في كل من الأحزاب والشورى.

2 –روح المعاني للألوسي

ومع الألوسي في تفسيره نجد العمق في الكشف عن الأسرار والإيغال في فهم المعاني والدقة في انتقاء الألفاظ حيث يقول في آية الأحزاب السابقة" ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، تخصيصهم بالذكر مع اندراجهم في النبيين اندراجا بينا للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع، واشتهر أنهم هم أولوا العزم من الرسل صلوات الله تعالى وسلامه. "[1]

فالألوسي يصرح تصريحا مباشرا بخصوصية الأنبياء الخمسة عليهم السلام المذكورين في الآية، ويظهر فضلهم بوضعهم في جملة الرسل عامة، بامتيازهم بالريادة، وهم أصول الشرائع، وبقية الرسل عليهم السلام فروع مكملة، وكان به يسلم بأن هذه الخصائص المميزة لشخوصهم الكريمة سبب شهرتهم بصيغة أولي العزم.

أما في آية الشورى﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ فقال" وإيذان بأن ما شرع سبحانه لهم صادر عن كمال العلم والحكمة كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام، تنبيه على كونه دينا قديما أجمع عليه الرسل والخطاب لأمته عليه الصلاة والسلام، أي شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، ومن بعده من أرباب الشرائع وأولي العزم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرهم به أمرا مؤكدا وتخصيص المذكورين بالذكر، أشير إليه من علو شأنهم، وعظم شهرتهم ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الاتباع، لاتفاق كل على نبوة بعضهم، واختصاص اليهود بموسى عليه السلام والنصارى بعيسى عليه السلام. "[2]

1- الألوسي تفسير روح المعاني،إدارة الطباعة المنيرية ج21 ص154

2- روح المعاني ج25 ص20

والنص الثاني يعضد سابقه ويؤكده، وفيه تفصيل وبيان لخصوصية الأنبياء الخمسة عليهم السلام وتقديم قرائن دالة على جدارتهم بصيغة أولي العزم، وتتمثل في الآتي:

1- علو شأنهم بحسبهم حملة أصول الشرائع، وغيرهم فروع مكملة.

2- عظم شهرتهم لأنهم أكثر الأنبياء انتشارا وذيوعا.

3- لاستمالة قلوب الكفرة إلى الاتباع وذلك لأن صيغة أولي العزم تظهر الوشيجة الكبرى بين أصول الأنبياء، وتؤكد على القواسم المشتركة التي تصل أتباع موسى عليه السلام وأتباع عيسى عليه السلام بما جاء به محمد-ﷺ-.

والألوسي يحاول كشف سر تقديم محمد-ﷺ- في آية الأحزاب، وتقديم نوح عليه السلام في سورة الشورى، في معرض حديثه عن أولي العزم، حيث يرجع تقديم محمد-ﷺ- بالذكر في آية الأحزاب، رغم تأخره في البعث لشرفه وعلو مكانته ولا يناقض ذلك تقديم نوح عليه السلام في آية الشورى "وإذا لكل مقام مقال، ومقام هناك وصف دين الإسلام بالأصالة والمناسب فيه تقديم نوح، وكأنه شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم، وبعث عليه محمد-ﷺ- خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء والمشاهير."[1]

نستشف الدقة في انتقاء الألفاظ، والتمحيص في المعاني في وقفته مع صيغة أولي العزم في آية الأحقاف[2] "والعزم يطلق على الجد والاجتهاد في الشيء وعلى الصبر عليه."[3]

ونلحظ تمتع الألوسي بالقدرة الفائقة على التحقيق العلمي،فبعد قيامه بتحديد التعريف اللغوي لأولي العزم، حاول ضبط المفهوم الاصطلاحي من خلال عرض رأي القائلين بعموم الصيغة على كل الأنبياء، والقائلين بخصوصها، مع إظهار ميله للفريق الثاني "وإليه ذهب أكثر المفسرين أن (من) للتبعيض فأولوا العزم بعض الرسل عليهم السلام."[4]

وعلى نفس النسق يسير في الكشف عن هويتهم، بعد عرض الأقوال المختلفة في شأنهم، يترع للترجيح بينها، باعتماد الأنبياء الخمسة المذكورين في آيتي الشورى والأحزاب "وهذا أصح

1- روح المعاني ج21 ص154

- انظر الكشاف ج3 ص229

2- الأحقاف35

3- روح المعاني ج26 ص35

4- روح النعاني ج26 ص35

الأقوال، وقول الجلال السيوطي[1]، إن أصحها القول بأنهم خمسة هؤلاء الأربعة، ونبينا -عليهم السلام- أجمعين وأخرج ذلك ابن أبي حاتم[2]."[3]

من ذلك نخلص إلى النقاط الآتية :

1- انتهاج الألوسي للأسلوب العلمي في معالجة صيغة أولي العزم.

2- أقر إقرارا مباشرا بخصوصية الأنبياء الخمسة المذكورين في سورة الشورى والأحزاب مع مزيد من التفصيل والبيان، بتقديم قرائن دالة على جدارتهم بصيغة أولي العزم من خلال عرض خواصهم المميزة.

3- حدد المفهوم اللغوي لأولي العزم، مع محاولة ضبط المفهوم الاصطلاحي من خلال عرض رأي كل فريق، مع ترجيح أصح الأقوال مدعوما بما جاء به السيوطي وهو الحجة في التفسير بالمأثور .

3- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي

تعرض السيوطي للدلالة اللغوية لصيغة أولي العزم في آية الأحقاف تعرضا يسيرا، ثم توغل في إيراد الأقوال المتضاربة في الفصل في هوية الفئة المقصودة بالصيغة مع ترجيح أصحها ضمنيا، بجعله في صدارة الأقوال ابتداء "واخرج بن أبي حاتم وابن مردويه[4] عن ابن عباس قال أولوا العزم من الرسل النبي -ﷺ- ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى."[5]

وفي ذلك تأكيد على عدم وجود أي أثر لحديث من الرسول-ﷺ- في الفصل في هوية أولي العزم، وترجيح السيوطي لكفة القائلين بخصوص الصيغة وتحديده للفئة الخاصة، نابع من عقلية

1- وهو الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي،شافعي المذهب ولد سنة 849ه وتوفي سنة 911ه ، الأعلام ج3 ص301 ، الشذرات ج8 ص51

2- هو عبد الرحمان بن محمد،أبي حاتم بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، أبو محمد ، حافظ للحديث، من كبارهم وله تصانيف مشهورة منها الجرح والتعديل والتفسير ولد سنة 240ه وتوفي سنة 327ه ، الأعلام ج3 ص324

3- روح المعاني ج26 ص35

4- ابن مردويه هو أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني أبو بكر،ويقال له ابن مردويه الكبير، حافظ مؤرخ مفسر من أهل أصبهان، له كتاب التاريخ وكتاب في تفسير القرآن ومسند ومستخرج في الحديث ، ولد سنة 323ه وتوفي سنة 410ه ، الأعلام ج1 ص261 ، الشذرات ج3 ص190

5- جلال الدين السيوطي،الدر المنثور في التفسير بالمأثور،دار المعرفة بيروت،د.ط ؛ د.ت ، ج6 ص45

مجتهد، يمحص الآراء ويدقق الأسانيد، وبتسليمه بهذا الرأي معناه ترجيح لخلاصة شروح المفسرين الأوائل وآثارهم، التي لها حجيتها العلمية، خاصة بعد توثيقها من طرف الأعلام المختصين، وهي الموصولة إلى حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنه، وهو من المفسرين الأوائل المعتمدين، ومنه قبس الألوسي وأكثر المفسرين المعاصرين في تحديد هوية أولي العزم.[1]

4- في ظلال القرآن لسيد قطب

سيد قطب في ظلاله لم يقف مع الدلالة الاصطلاحية، لأولي العزم في آية الأحقاف، وعرج على الدلالة اللغوية عرضا في سرد بعض فصول السيرة النبوية، لمعاناة الرسول-ﷺ- والتنويه بالمقصد من سوق الآية، لتثبيت قلبه وشد عزيمته، بالسابقين من أولي العزم عليهم السلام جميعا[2].

بينما الأمر مختلف في معرض تفسيره لآية الأحزاب حيث يصرح بأن الأنبياء الخمسة المذكورين في الآية، هم أولوا العزم، دون تعرض لأقوال المختلفين مع التركيز على الميثاق، " إنه ميثاق واحد مطرد من لدن نوح عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد-ﷺ-، ميثاق واحد ومنهج واحد وأمانة واحدة يتسلمها كل منهم حتى يسلمها، وقد عمم النص أولا ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ ثم خصص صاحب القرآن الكريم وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين ﴿ وَمِنْكَ ﴾ ثم عاد إلى أولي العزم من الرسل وهم أصحاب أكبر الرسالات قبل الرسالة الأخيرة."[3]

وبعد بيان أصحاب الميثاق عاد إلى وصف الميثاق نفسه، على أساس أنه القاسم المشترك بين أولي العزم[4]، وهو من كل ذلك يقف بنا وقفات عميقة بالغة الأثر، وقيمة في إجلاء مصطلح أولي العزم، ويصل بنا لتحديد خواص ومميزات الأنبياء الخمسة.

ونصل إلى أنه لم يحفل بعرض الأقوال المتضاربة، بل حسم المسألة نهائيا في تصريحه بهوية أولي العزم فهم أصحاب الميثاق المختارين، الذين ذكروا في آيتي الأحزاب والشورى.

1- وهبة الزحيلي،التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ط1/1411ه 1991م ج25 ص40 .

2- سيد قطب،في ظلال القرآن،دار الشروق ج 26 ص3275-3276.

3- في ظلال القرآن ج21 ص2729-2730.

4- في ظلال القرآن ج26 ص3275-3276.

بعد عرض أهم ما جاء به القائلون بخصوص صيغة أولي العزم نخلص إلى الآتي :

1- تجنب معظم المفسرين الإطالة في عرض الأقوال المختلفة، والاكتفاء بالمشهور منها، مع ترجيح أصحها .

2- تحقيق الدلالة اللغوية لصيغة أولي العزم مع محاولة ضبط الدلالة الاصطلاحية، من خلال عرض الآراء وترجيح خلاصة ما جاء به شراح الأثر المفسرين الأوائل.

3- الإقرار المباشر بخصوصية صيغة أولي العزم، مع اعتماد الخمسة المذكورين في آيتي الأحزاب والشورى كدليل في تحديد هويتهم عليهم السلام.

4- تقديم قرائن دالة على جدارة الأنبياء الخمسة المذكورين في آيتي الأحزاب والشورى بصيغة أولي العزم، من خلال عرض خواصهم المميزة.

5- وأم النتائج هو التوصل إلى الإجابة عن السؤال المطروح بداية. من هم أولوا العزم؟ هذا السؤال الذي وجدنا عند القائلين بخصوص صيغة أولي العزم، جهدا علميا وقصدا منهجيا للإجابة عنه، من خلال التحرر من الإسهاب في عرض الأقوال ومناقشتها مع ترجيح أصحها، واعتماد تحقيقات الأئمة الأعلام المتخصصين في التفسير والحديث في تحديد هوية أولي العزم، وهم الخمسة المذكورين في آيتي الأحزاب والشورى، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام جميعا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني

القصص القرآني مصطلحا ومنهجا

توطئة:

إنَّ لعرض شخصيات أولي العزم في بنية قصصية قيمة بالغة،لأن القصة من أكثر الفنون صلة بالإنسان ، واحتفل القرآن بعرض القصص للتعبير عن الواقع المتحرك في سيرورته من أول الخلق إلى يوم البعث .

فهل في القرآن الكريم قصة ، بكل المقاييس الشكلية للقصة المعروفة في النقد ؟!

وبما أن القرآن الكريم كتاب عقيدة وشريعة أساسًا ما هو المنهج الذي عرضت به القصة في القرآن ؟!، ومن ثمة هل يمكن دراسة القصة في القرآن بالمناهج النقدية المعاصرة ؟!، وما هو المنهج المناسب لطبيعة القصة في القرآن ؟

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول

القصة القرآنية مصطلحا

السؤال الأولي هل يوجد مصطلح "قصة"في القرآن الكريم ؟ وهل يتطابق مع المصطلح النقدي للقصة ؟ أم له هوية خاصة ؟

أولا: مصطلح القصة في القرآن

حقيقة لم يرد لفظ"قصة"في القرآن وإنما الذي ورد فيه،لفظة "القصص" -بفتح القاف-، ولكن الدلالة اللغوية تجمع بين الكلمتين ، وتوحد بينهما ، لأن القصة والقصص من مادة واحدة هي قص وردت "قصص" في صيغتي الفعل والاسم[1] وفي مواضع عدة، وفي هذا الجدول حصر لأهم الآيات .

1- محمد اليعلاوي، أشتات في اللغة و الأدب و النقد ، دار الغرب الإسلامي، ط1/ 1992 حوليات الجامعة التونسية، عدد24 / 1985 ص 337.

الآيـــــة	السورة	الرقم
﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ﴾	القصص	25
﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾	النحل	118
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾	غافر	78
﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾	النساء	164
﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾	يوسف	05
﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾	هود	120
﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾	يوسف	03
﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾	الكهف	13
﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾	طه	99
﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾	الأعراف	7
﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾	هود	100
﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾	الأنعام	57
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾	النمل	76
﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾	الأنعام	130
﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾	الأعراف	176
﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾	القصص	11
﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾	آل عمران	62
﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾	الكهف	64
﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾	يوسف	111

وأول إفادة نستخلصها من هذا الجدول أن لفظة "قصص" مألوفة ومتداولة على مختلف السياقات ودلالاتها اللغوية مشتقة من أصل المادة ، وهي قصَّ.

ولإيضاح هذه الدلالة ، نسير مع ابن منظور في لسان العرب نجد عنده احتفالا ، وعناية بالغة بالرجوع إلى القرآن الكريم واعتباره مصدرا في تحقيقاته اللغوية الدقيقة ، إذ يقول في هذا الصدد "القص البيان ، والقاص الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها و ألفاظها قال تعالى ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر يتبعانه"[1].

وبناء على ذلك فإن دلالة القصص الاصطلاحية محدودة ومقتصرة على استرجاع الأحداث الماضية "فالقص للأثر أشبه بما يعرف في عصرنا هذا بتصوير البصمات، أو رفع الآثار، وتصويرها ليستدل منها على ما وراءها من أحداث مضت، وليمسك بما يقدر على إمساكه منها"[2] ومعنى هذا أن القصة في القرآن تعرض الأحداث الماضية و بالتالي يتم عزل كل ماله صلة بالوقائع و الأحداث المتعلقة بدعوة محمد-ﷺ- لأن أصل التسمية القرآنية يحدد المصطلح ويضبطه على تتبع الأثر للأحداث الغابرة .

وفي هذا الصدد يقول ابن عاشور" والقصة :الخبر عن حادثة غائبة عن المُخبَر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصا ، مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم وجمع القصة قصص بكسر القاف و أما القصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص ، وهو مصدر سمي به المفعول، يقال قص على فلا ن إذ أخبره يخبر"[3] ومن ثمة نقول أن النصوص الواردة في شأن محمد -ﷺ- ليست قصة" وذلك لأن القرآن في نظمه وفي منهجه وفي أغراضه قد تكفل بكل الأحداث الدائرة والمستقبلة بعيدا عن الأسلوب القصصي ونهجه."[4]

1-ابن منظور،لسان العرب،مادة (قص) دار بيروت 1956،ص 73-75

2- عبد الكريم الخطيب،القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،دار الفكر العربي ط1/ 1384هـ-1964م،ص8

3- تفسير التحرير و التنوير ج1،الكتاب الأول المقدمة 7،ص 64

4- السيد عبد الحافظ عبد ربه،بحوث في قصص القرآن،دار الكتاب لبناني ط1 /1972،ص46

ولذلك نجد اهتمام الدارسين والباحثين بكل صغيرة وكبيرة عن سيرة محمد-ﷺ-[1] من ناحية التفسير الموضوعي وليس في الدراسات الفنية؛وهذه النصوص و إذ لم تشكل بنائيا قصة فهي تمثل الهيكل الجامع، الذي تنتظم فيه قصص الأوليين في بنية كلية، وأيضا شخصية عليه السلام بالنسبة لكل الشخصيات المعروضة، تمتاز بالشهود الواقعي على أحداث حية ومعاشة، ولذلك نعتبرها حاملا لقصص السابقين، والشهود الحضاري في مواكبتها لخدمة المجتمع الواقع المتجدد، وقصص الأوليين تعتبر، خلفية ثابتة من لبنات الحقيقة، تتكئ عليها الرسالة الخاتمة، تستمد منها الدعم المعنوي في التأسي بأخبار السابقين ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[2].

والدعم المادي في إقامة الحجة على المكابرين، وعرض السنن الكلية الجامعة وفي هذا الصدد لا يمكن اعتبار كتاب القصص الرمزي في القرآن الكريم ،دراسة فنية لجوانب من شخصية محمد-ﷺ- في القرآن الكريم، والكاتب قد حدد هدفه البعيد عن هذه النقطة في قول" وقد اخترت للكتاب اسم القصص الرمزي في القرآن بديلا عن الاسم الأول، ما وراء الآيات ، لمناسبته للموضوعات أو القضايا التي ترمز لها الآيات ، ولا تصح عنها" [3]

وهو يصب جهده في البحث عن ما وراء الآيات ، ويسرد قصصا للتفصيل في بعض إشاراتها على سبيل ذكر أسباب النزول .

وما جاء به محمد كامل حسن المحامي عن سورة عبس لا يمكن اعتباره قصة ، لأن مادة القصص القرآني من الماضي البعيد وليس من الأحداث الراهنة والمشاهدة ؛ إذ يقول " وصورة عبس سرد قصصي بديع لقصة حدثت للنبي-ﷺ- حيث زاره رجل فقير أعمى

1- عبد الصبور مرزوق،السيرة النبوية في القرآن الكريم،مطبوعات رابطة العالم الإسلامي،السنة الأولى 1401ه العدد 6 مكتبة رحاب د.ت ؛ د.ط ص 196-197

2-هود 120

3- أحمد محمد جمال،القصص الرمزي في القرآن،مكتبة رحاب الجزائر ط1987/5 ص11

فأعرض عنه النبي، وهي من القصص التي يظهر فيها الرسول بكل ما يمكن أن يتعرض له الإنسان من أخطاء نفسية .. وكيف يمكن أن يقوم مثل هذه الأخطاء.»[1]

وإلى جانب كونها من الأحداث الدائرة في محيط الدعوة الخاتمة أيضا كنص بعيد كل البعد عن بنية القصة، ونستشف ذلك من قوله في نفس المقام« وقد أجمع المفسرون على أن هذه القصة ابتدأت حينما استقبل الرسول-ﷺ- في بيته قوما من أشراف قريش» [2] وهذا دليل على أن السورة اكتسبت بنيتها القصصية من نصوص السيرة النبوية، لأنها كنص قرآني ليست قصة، لعدم توفرها على العناصر البنيوية للقصة.

و يعتمد الباحث من جهة أخرى مصطلح الخيال أثناء دراسته للقصص القرآني« و إذا كان الباحثون في فن كتابة القصة قد قسموها إلى قسمين، رئيسيين وهما القصة الواقعية، والقصة الخيالية، فإني أرى أن قصص القرآن الكريم كلها - بلا استثناء — تعتبر فريدة في نوعها، فهي تجمع بين الواقعية والخيال، في إعجاز تتقاصر عنه وتتضاءل إزاءه قدرة أي كاتب قصصي، مهما بلغ شأوه أو رسخت قدمه في ميدان التأليف القصصي» [3]ومصطلح الخيال بعيد عن طبيعة القصص القرآني، و إن كان القصد منه في الأمثلة المقدمة، جمال العرض، وروعة التصوير[4].

ثانيا: المصطلح النقدي والقصص القرآني

يعد كتاب "الفن القصصي في القرآن"، أول سابقة في التعامل مع القصص القرآني بالاصطلاحات النقدية، في رسالة علمية، وهو يصرح بقصده الفنية الصرفة في دراسة القصص القرآني، « ذلك لأننا حين نذكر لفظ قصة، إنما نقصد شيئا آخر، أهم من متابعة الخبر أو الحديث، نقصد ذلك العمل الأدبي الذي يكون نتيجة تخيل القاص، لحوادث وقعت من بطل لا وجود له أو لبطل له وجود، ولكن الأحداث التي دارت حوله في القصة لم تقع أو وقعت

1- محمد كامل حسن المحامي، القرآن والقصة الحديثة،دار البحوث العلمية ط1 ص114

2- المرجع السابق ص114

3- المرجع السابق ص : 14 – 15

4- القرآن و القصة الحديثة ص: 14 – 15

للبطل، ولكنها نظمت في القصة على أساس فني بلاغي، فقدم بعضها، وأخر آخر، وذكر بعضها، وحذف آخر، أو أضيف إلى الواقع بعض لم يقع، أو بولغ في تصويره إلى الحد الذي يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية، والمألوفة، و يجعلها من الأشخاص الخياليين، وذلك هو الذي نقصده عندما نذكر لفظة قصة في الميدان الأدبي، و هو الذي نقصد إليه من درسنا للقصص الفني للقرآن الكريم. "[1]

ويغفل الباحث في قرنه بين المصطلح النقدي للقصة، والمصطلح القرآني ، التباين بينهما في الطبيعة، الأول بشري والثاني إلهي، وهو تطرف ومغالاة في الحكم على القصص القرآني بالمقاييس النقدية ومحاولة إلباسها لبوسا يضيق بطبيعتها ،وينقض خواصها الحيوية .

وأسفر عن تشدد بعض الباحثين في إخراج القصص القرآني، عن كل ما يمت إلى الفنية بصلة، والتهيب من المقاييس النقدية واصطلاحاتها، واجتنابها تماما في تحديد مصطلح القصص القرآني وما جاء به بكري الشيخ أمين خير مثال، حيث يقول: "وإن جئنا نستعرض مدورد في القرآن الكريم من قصص، وجدنا معظمها إن لم نقل جميعها –يخرج عن الحدود التي رسمها النقاد للقصة الفنية، وتتمرد عليها، ولا تندرج تحت لوائها، إن تعريف القصة –كما تواضع عليها كثير من رجال فنها –لا ينطبق كل الانطباق على مفهوم القصة القرآنية"[2].

ويتعجب من مسلك محمد أحمد خلف الله وإذ لم يصرح باسمه "والعجيب أنَّ نفرًا من الباحثين في القصة القرآنية أراد أن يطبق على قصة القرآن ما يطبقه النقاد على القصة الفنية، فراح يبحث في مصادرها، ويفتش عن منابعها فيعيدها مرة إلى الأسطورة ، ومرة إلى التاريخ، ومرة إلى البيئة ومرة إلى الكتب السماوية السابقة، من توراة وإنجيل، وزبور، ومرة إلى العقلية العربية وهكذا. "[3]

1- محمد أحمد خلف الله،الفن القصصي في القرآن الكريم،مكتبة الأنجلو المصرية ط3 /1965،ص 119

2- بكري الشيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم،دار الشروق ط 4/1400هـ،1980م ص216.

3- المرجع السابق ص 217.

وهو في مسلكه يبتعد عن المنهج العلمي الموضوعي، حيث يرد على التطرف، بتطـــرف أشد، حيث اعتمد في حكمه على فنية القصة القرآنية من خلال تعريف ناقد واحد، " ولا نعلم لماذا يريد بعض الكتاب التضييق من معاني القرآن الكريم، وهو الكتاب السماوي الذي لم يفرط في شيء من أمور الحياة، التي تهم الناس إلا وأتى به، فتقيد الدكتور بكري الشيخ أمين بتعريـف معين، أو بفهم معين للقصة القرآنية أخرجه عن التأني في الحكم، وكاد حواره أن ينقلب تعنـت وحديثه إلى سباب، فضاق ذرعا بدارسي القصة القرآنية."[1]

ويحاول أبو جندي في نقده لما جاء في التعبير الفني إثبات انطباق المصطلح القرآني مـــع المصطلح النقدي للقصص من خلال عرضه لآراء النقاد على مختلف العصور ،ســـواء في الأدب الغربي أو العربي وجعل معياره المطلق في إثبات فنية القصة القرآنية، قصة يوسف عليه السلام، ويبلـــور من خلال فصول دراسته ،تعريفه للقصة، فهي في نظره "وسيلة من وسائل التعبير الفني ينثرهـــا الكاتب، فيبرز بها ما يشغل الناس من أمور الحياة، وما تتصف به نفوسهم من خلال، وأخـــلاق لينصح أو يرشد أو يعظ أو ينقد، أو يلاحظ،وهي بهذا لوحة فنية جميلة تتمدد على صفحتـــها ألوان حياة البشر، وأنماط سلوكهم، وصور أفعالهم، بكل أنواعها المتقاطعة، والمتوازية،المتطابقـــة والمتضادة، مرآة صافية للحياة،إذ أحسن نصبها، أعطت أفضل المناهج، لتقويم الحياة ونخلها مـــن الشوائب. "[2]

وهذا التعريف في عمومه ينطبق مع ما جاء عند د.عزيزة مريدن أن القصـــة "تتنـــاول الحياة الإنسانية التي تشمل الوجود في مختلف نواحيـــه الماديـــة والروحيـــة المحسوســـة وغـــير المحسوسة ."[3]

1- خالد أبو جندي،الجانب الفني في القصة القرآنية ،دار الشهاب باتنة ص127.

- أنظر التعبير الفني ص217.

2- الجانب الفني في القصة القرآنية ص126.

3- عزيزة مريدن،القصة والرواية ، دار الفكر 1980ص25.

وأيضا بما جاء به محمد يوسف نجم "القصة مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب وهي تتناول حادثة واحدة، أو حوادث عدة تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة، على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض. "[1]

ومن ذلك نجد في كل هذه التعريفات القاسم الذي يصل بينها وبين القصة القرآنية، في بنيتها الهيكلية، الخاصة، حيث يمكن تمييز شكلها من جسم السورة القرآنية، فهي جزء منها ووسيلة لتوصيل أهدافها، حيث تتناول الحياة الإنسانية، وتعرض الشخصيات في حركة التاريخ في صُوَرٍ تطبيقية، وعِبَرٍ موحية ومؤثرة؛ ومن ذلك هل القصص القرآني، يتطابق شكليا وفنيا مع المصطلح النقدي للقصة؟!

والسؤال يفتح أمامنا باب البحث عن طبيعة القصص القرآني ؟!النصل بعدها لتحديد مصطلح القصة في القرآن .

ثالثا: طبيعة القصة القرآنية

ونحاول تلخيصها في النقاط التالية، بناء على ما سبق، من الأصل الاشتقاقي، والدلالة اللغوية إلى آراء المفسرين والباحثين .

أ – القصة القرآنية من صميم الطبيعة المعجزة، في مصدرها الرباني السامي، عن طاقة البشر .. وبالتالي لا نجد فيها من ذاتية الرسول-ﷺ – شيئا بل هي خلاصة الوحي الإلهي ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[2]

ب – واقعية القصة القرآنية بقطعية ثابتة، حيث تمثل "الصدق والواقع، فقد أقر القرآن، الصدق، كمنهج أدبي، ورفض أعذب الشعر المبالغات، وصحح الأخبار، وحرر الوقائع كلها من

1- محمد يوسف نجم،فن القصة،دار صادر بيروت،ط1/1996ص9.

2- يوسف 3

الأساطير والخرافات وأبعدها من التهاويل والمغريات، بحيث تصبح الصورة الحقيقية ما يقدم بين أيدي الناس »[1] وهذا تأكيد على حفظ النص القرآني جملة من خطر أي تحريف .

ونلمس حرص الخطاب القرآني على تعزيز هذه الطبيعة المعجزة ، لصلتها الوثيقة بحجية الوحي والرسالة [2] لأن محمدا -ﷺ-، مشهور بأميته، و لم تكن هوايته سرد القصص والأخبار، وهذا تأكيد للإعجاز المستمر، خلال نزول القرآن وفق الوقائع و إيراد القصص حلقات متفرقة «ونستطيع أن ندرك أولا قيمته التربوية ، فتلك في الواقع هي الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة في حقبة تتسم بميلاد دين، وبزوغ حضارة. »[3]

وخاصية الواقعية في طبيعة القصة القرآنية ثابتة غير قابلة للتغيير أو التطور ، و لا يمكن بأي حال إسقاطها بإخضاعها للمقاربات النقدية البشرية ، وهي ذات الطابع الرباني من مصدر خبير بكل الوقائع و لا يعتد بما جاء به أحمد محمد خلف الله، لأنه ينقض هذه الطبيعة الربانية التي تسم القصة في القرآن .

«أما الآيات التي يصف القرآن فيها بعض القصص بهذه الصفة الحق، من مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾، ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ فليس فيها ما يدل دلالة قطعية على أن المقصود بهذه الصفة إنما هي الأحداث التاريخية، بل لعل رأيا آخر هو الراجح، هو أن هذه الصفة إنما تطلق على المقصود من هذه القصص من أمثال التوجيهات الدينية والأغراض القصصية »[4].

وفي ذلك مجانية للصواب شكلا ومضمونا [5]، فلا مجال لتجريد القصة القرآنية، كصورة معجزة متفردة من هذه الصفة التي تعد من الثوابت والأصول المقررة فقد «بنيت بناء محكما من لبنات الحقيقة المطلقة ، التي لا يطوف بحماها طائف من خيال ، و لا يطرقها طارق منه.»[6]

1- أنور الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، دار الكتاب اللبناني بيروت مكتبة المدرسة ص335 ط2 /1975.

2- عدنان محمد زرزور، علوم القرآن ، مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، المكتب الإسلامي بيروت دمشق ط1/ 1401ه -1971م ص 366-369.

3- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الفكر دمشق 1402ه 1981م ص 174.

4- الفن القصصي في القرآن ص 257.

5- عدنان محمد زرزو علوم القرآن ص 366 - 369.

6- القصص القرآني في منطوقه و مفهومه ص 42.

وواقعية القصة القرآنية لها قيمة جمالية ضافية عن القيمة الشكلية «ومن هنا تكمن أهمية القصة القرآنية التي تتعامل مع الواقع، بدل من المحتمل، محققة بذلك عنصر الإقتناع عمليا وليس مجرد إقناع، لما هو محتمل الوقوع.»[1]

جـ – البناء الفني غير مقصود في القصة القرآنية « إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل. »[2] و لكنه يدخل في صميم الإعجاز القرآني.

فالقصص القرآني لا ندرجه على الإطلاق في مجال فني خاص ومستقل عن المجال القرآني العام «لان المقاصد التي يوحي بها السياق، هي التي توجه أسلوب العرض، وتتحكم في ترتيب الأحداث، وتسلط الأضواء على العنصر المراد إبرازه .»[3]

ونخلص إلى أن القصة في المنظور القرآني تختلف في طبيعتها تماما، عن القصة في المنظور النقدي، وذلك في ربانية المصدر، التي تصدر عنه واقعية الأحداث، و صدق الوقائع، الأمر الذي يتحكم في تحديد مصطلح القصة في القرآن، و يسمه بسمة خاصة .

وبناء على ما سبق نخلص إلى الآتي :

1. لم يرد لفظ قصة في القرآن، وإنما ورد لفظ قصص، والدلالة اللغوية، تضبط المصطلح وتحدده على تتبع الأثر للأحداث الماضية لأن مادة القصص القرآني من الماضي البعيد.

2.النصوص القرآنية التي أنزلت في شأن محمد-ﷺ- لا تشكل بنائيا قصة ، بل تمثل الهيكل الجامع الذي تنتظم فيه قصص الأولين في بنية كلية .

1- محمود البستاني،دراسات فنية في قصص القرآن،دار البلاغة ط 1 / 1989 ص7 .

2- سيد قطب،التصوير الفني،دار المعارف ط9 / ص119.

3- التهامي نقرة،سيكولوجية القصة في القرآن،الشركة التونسية للتوزيع ص93.

- انظر محمد الغزالي،نظرات في القرآن الكريم،دار الشهاب للطباعة والنشر باتنة ط6 / ص117 .

3. لا يمكن تحديد مصطلح القصص القرآني بإخضاع الطبيعة الربانية المعجـــزة للمقـــاييس النقدية البشرية ، و لا التشدد في عزل القصص القرآني عن كل ما يمت إلى الفنية بصلة ؛ والتعامل مع الإصطلاحات النقدية للقصة بموضوعية علمية، كوسائل وأدوات نأخذ منها مـــا يتوافق مع طبيعتها .

4. مصطلح القصص القرآني لا يتطابق شكليا وفنيا مع المصطلح النقدي للقصة، بل له هويـة خاصة تتحكم فيها الطبيعة المعجزة، التي تفوق قدرة البشر، وتندرج عنها واقعيـــة الأحـــداث، وصدق الوقائع، وهذا لا يمنع من الإستفادة من الجهود الإنسانية في النقد .

5. يمكن تحديد مصطلح القصص القرآني على ضوء ما سبق – مع الإشادة بجهد سيد قطب وسبقه– بـــالآتي:

القصص القرآني جزء من القرآن و وسيلة جمالية لتوصيل أهدافه، تعرض لمسار الإنسانية في حركة التاريخ، وليست تاريخا مجردا أو تخليدا لسير ذاتية، ولا روايـــة أوهـــام مختلفـــة، أو زخارف فنية من نسج الخيال، هي درس تطبيقي واقعي، ثري بالدلالات العميقـــة، والصـــور المؤثرة في ألوان زاخرة متنوعة، معبرة عن أعماق الإنسان بلغة الوجدان الدافقة بالحياة تغذيـــة لملكاته الفنية، وارتقاء بالذوق الإنساني أصالة ومقصدا .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني
القصة القرآنية منهجا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة:

انتهينا من أن تحديد مصطلح القصة القرآنية تتحكم فيه الطبيعة العلوية المعجزة، وهنا مكمن الاختلاف بينها و بين المصطلح النقدي للقصة، وبما أن القصص القرآني وسيلة لأداء مقاصد القرآن، والبناء الفني غير مقصود لذاته ؟ فهل معنى ذلك أنه غير موجود تماما ؟! أم يأتي عرضا ؟ أم أن القصص القرآني يملك بناءه الفني من واقعيته نفسها ؟

وإذا قلنا أنها وسيلة جمالية، وأنه يمكن تمييزها هيكليا من جسم السورة، فما هو منهج القرآن في عرض القصص ؟

أولا: منهج القرآن في عرض القصص

منهج القرآن هو طريقة القرآن في العرض، بما أن كل سورة في القرآن، وحدة متكاملة تختلف فيها الوسائل، وتجتمع المقاصد والأهداف، فالقصة إحدى وسائلها المتسقة وفق المقصد العام، والقرآن ليس كتاب قصص[1].

ولذلك اقتضت الضرورة معرفة أسباب نزول الآيات ، لأن منهج القرآن في عرض القصص مرتبط بأحداث ووقائع الرسالة الخاتمة، كما هو مرتبط بوحدة السورة، هيكلا ومقاصد «وهذا المنهج القرآني هو الذي تستمد منه القصة منهجها، فهو الذي يحدد وظيفتها

1- محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن،دار الفكر العربي، د.ت ؛ د.ط ص 149

وهدفها، لأن كل قصة إنما جاءت لتعالج موضوع سورتها، علاجا فنيا، من ثنايا ظروف عهد التنزيل.»[1]

وماله من قيمة جليلة في فهم أغراض القصص ومقاصدها الكلية، ومن ثمة استنباط السنن العامة، ومعرفة تطبيقاتها العملية في الواقع لأن القصة القرآنية في منهجها متصلة بالهدف المحوري للمنهج القرآني العام« وبهذا كانت أغراض القصة القرآنية سائرة في هذا الاتجاه، في كل ما عرضه القرآن من تاريخ وصوره من واقع، حتى رأينا القصة التاريخية الواحدة تتكرر في أكثر من سورة، على أساس علاقتها بالفكرة التي تتحرك السورة في إطارها وحاجة الفكرة إلى بعض جوانب القصة. »[2]

ويتجلى لنا منهج القرآن في عرض القصص، في ربطه بين الماضي والحاضر، و تأكيده على وحدة الرسالات، في توصيل الدرس العملي التطبيقي من خلال تحرك الأنبياء السابقين، في مواقف حية شاخصة .

وإلى جانب ذلك يعتمد منهج القرآن في عرض القصص على« الطريقة المباشرة الصريحة، بعيدا عن الإيحاء والرمز مع الاهتمام بجوهر الخبر، لا تفاصيل الخبر، والتركيز على العبرة المستمدة من النواميس الكونية للمجتمعات، و السنة الطبيعية التي تحكم البشر، وبذلك حرر القصة من كل ما يتعلق بالتفاصيل التي يصبح فيها هدفا في حد ذاته، وحجابا عن الغاية الأصيلة وهي الاتصال بالنفس الإنسانية، وتقديم العبرة لها بصرف النظر عن الحواشي المتعلقة بالزمان والمكان، و بذلك ارتفع القرآن بالقصة عن الارتباط بعصر أو جيل، وربطها بالحقائق الإنسانية العامة الخالدة الصالحة لكل عصر وجيل. »[3]

وهذا تفسير عدم ظهور محورية الشخصية في القصص القرآني، بل التأكيد على محورية الفكرة الأصل التي يتحرك الجميع لتوصيلها، دون إغفال لقيمة توظيف الزمان والمكان في المنهج

1- محمد شديد، منهج القصة في القرآن، دار عكاظ للطباعة والنشر ط1/ 1404هـ 1984م ص64 .

2- محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، دار المنصوري للنشر د.ت ، د.ط ج2 ص15 – 16 .

3- خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث ص334 ، 335 .

- انظر محمد مبارك، دراسة أدبية لنصوص من القرآن، دار الفكر ط4 1973 ص101 .

القرآني لعرض القصة،لأن الزمن جزء أصيل في بنية السرد القصصي،و يمتاز المنهج القرآني بجمالية التحكم في الزمن وفق المقصد،فيعرض شخصيات الأولين على سبيل الانتقاء من الجزئيات والتفاصيل، ما يفيد حاضر زمن الخطاب، وينفتح على المستقبل في ثراء وتنوع وديمومة متواصلة .

ومن مقتضيات أداء المقصد من عرض شخصيات القصص القرآني، تحديد الفضاء المكاني الذي تحركت فيه للكشف عن مظاهر العمران والحضارة،بين حقبة زمنية وأخرى، في ذلك دلالة على أنَّ منهج القرآن في عرض القصص، قد التزم بجمال الأسلوب وفنية الصياغة، وروعة الأداء في تساوق مع المقاصد الكلية ،" باعتبار القصة فن العرض، و تقديم الحديثة بالكيفية التي تلائم موضوعها، والسياق المقدمة فيه، والغاية التي تنشدها، والمحيط الذي يتلقاها، أو تترشح له، إنها جميعا عوامل متحكمة في البنية القصصية، على اعتبار أن هذه البنية هي التي تستدعي شكلها السردي. "[1]

ومن ثمة كان الإعجاز في قمة التواشج بين الهيكل البنائي، و بين المحتوى الفكري، بحيث لا يمكن الفصل بينهما إلا إجرائيا بهدف الدراسة المنهجية .

وهو بذلك قد اعتمد على أرقى وسائل التأثير الوجداني لإيصال المقصد بأجمل الحلل، والطبيعة البشرية يجذ بها كل " مثير ومدهش، وطريف من الوقائع، وهو أثر لا يتوفر إلا نادرا مما يتطلب الارتكاز إلى لغة فنية خاصة، تنتقي من الواقع والأبطال والمواقف والبيئات عناصر محدودة، أي تصطفي بعض الجوانب التي توظف لإنارة الهدف الفكري من القصة."[2]

وأسفر ذلك عن سمة ظاهرة في كل سياقات القصص، وهي سمة التنوع بحكم كونها "معطى تربويا تحسيسيا جاهزا مرنا، لها قابلية الحضور أو الاستدعاء في كل حين، وقابلية التبلور على العديد من الصور، والسياقات .. كانت تخريجاتها السياقية القرآنية، تتنوع بتنوع المواقف، والمساقات، فهي قد تأتي مفصلة، أو مختزلة مسترسلة أو موقعة، مشهديه، أو روائية،

1- سليمان عشراتي،الخطاب القرآني،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،1998 ص/ 68

2- دراسات فنية في قصص القرآن ص/ 8

مفردة، أو مدرجة ضمن سلسة قصصية مسوقة لاستعراض أحداث رسل، ومصائر غـــابرة أو مؤجلة لغاية اعتبارية، تنسجم مع أدبية التبليغ القرآني، فالقص في القرآن لا يحـــدد خطاطـــات (shémas) جامدة لفن القصة، ولكنه يؤصل تخريجاته السردية، لتتبلور فيها القصة الواحـــدة، في صور تجعل من القص القرآني فنا مفتوحا على التنويع "[1] في أروع صوره، وأرقى أشـكاله" ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها، ويُعرض عما عداه، ليكون تعرضـــه للقصص مترها عن قصد التفكه بها، من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القـــرآن متتاليـــة، متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ، بل كانت مفرقة، موزعة علـــى مقامـــات تناسبها لأن معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع."[2]

وتتجلى قيمة المنهج القرآني في عرض القصص في توحد جمال الفكرة وجمال الأسلوب، وهذا ما أكسبها خاصية الإعجاز، وخلود الأثر، لارتباط البناء الفني بالمقصد الـــذي تســـاق لتحقيقه" وللقرآن أسلوب خاص هو الأسلوب المعبر عنه بالتذكير، وبالذكر في آيـــات يـــأتي تفسيرها فكان أسلوبه قاضيا للوطرين، وكان أجل من أسلوب القصاصين في سوق القصـــص لمجرد معرفتها، لأنَّ سوقها في مناسبتها يكسبها صفتين، صفة البرهان وصفة التبيان."[3]

ولأن النفس الإنسانية تتأثر بحركية الأحداث وحيويـــة الشـــخوص الناطقـــة بالعـــبر والعظات، أكثر من تأثير الأسلوب المباشر، وهذا بيان لشمولية منهج القـــرآن وتمـــيزه الفـــذ، وعموما " إنَّ طريقة القرآن العامة في إيراد القصص لتقرير حقائق معينة، يريد إيضاحها، وغالبـــا ما تكون هذه الحقائق هي موضوع السورة التي يرد فيها القصص، فينساق القصـــص بـــالقدر وبالأسلوب الذي يركز هذه الحقائق ويبرزها، و يحييها، فما من شك أن للقصـــص طريقتـــه الخاصة في عرض الحقائق، وإدخالها إلى القلوب في صورة حية عميقة الإيقاع، بتمثيـــل هـــذه الحقائق في صورتها الواقعية وهي تجري في الحياة البشرية، وهذا أوقع في النفس من مجرد عـــرض

1- الخطاب القرآني ص69.

2- التحرير و التنوير،ج1 المقدمة السابعة،ص64.

3- التحرير و التنوير،ج1 المقدمة السابعة،ص64 .

الحقائق عرضا تجريديا، حتى إذا انتهى القصص جاء التعقيب متضمنا، وملخصا للحقائق التي أرادها، معتمدا على وقائع القصص في تقرير الحقائق التي يقررها .»[1]

ويجمل ذلك "مأمون فريز الجرار " في تلخيص بليغ: «القصة القرآنية جزء من القرآن الكريم، لذا فإن غايتها بعض من غاياته، فما هي إلا وسيلة من التبليغ فيه، وقد جاء القرآن الكريم مصححا لعقائد الناس، ومصلحا لأخلاقهم، و هاديا لمسيرتهم، بالبشارة والإنذار بالأمر المباشر، والصورة الموحية، والقصة المؤثرة. » [2]

ومن ثمة نخلص إلى أن للقرآن الكريم منهج خاص في عرض القصص، ينسجم مع طبيعته العلوية المعجزة باعتبار النص القرآني « كلا لا يتجزأ لأنه يهدف إلى غاية واحدة وإن تنوعت مظاهر تعبيره.»[3]

ومنهج القصص القرآني جزء لا يتجزأ من منهج القرآن، لأن القصة وسيلة من وسائله لأداء مقاصده الكبرى، وهو ينزع إلى التحقيق الأمثل للجمال الفني في وحدة المحتوى والشكل.

ثانيا : منهج دراسة القصص القرآني

بعد أن انتهينا إلى منهج القرآن في عرض القصص، فهل يمكن دراسة القصص القرآني بواسطة المناهج النقدية المعاصرة ؟! وما هو المنهج المناسب لدراسة القصص القرآني ؟!

ولا يمكن التوصل إلى ذلك إلا بتتبع آراء الدارسين، والحقيقة أن جمهور المفسرين قد صرفوا همهم في التحقيقات اللغوية، والشروحات المستقصية« حيث امتازت بالإحاطة والشمول في حيز تفسير القصص القرآنية، وأعطت الجانب التفسيري والجانب اللغوي حقهما من الاستقصاء والإحاطة، وحددت الميزات البلاغية للغتنا التي تميزها من غيرها من اللغات الأخرى، وردت الأقوال إلى أصحابها فيما يتعلق بحكايات الأساطير التي وردت في قصص

1- أحمد فائز الحمصي،قصص الرحمان في ظلال القرآن،موسسة الرسالة ط1/ 1415هـ-1995م ج1 ص326

2- مأمون فريز الجرار،خصائص القصة الإسلامية،دار المنار للنشر والتوزيع جدة السعودية ط1/1408هـ- 1988م ص98

3- محمد مفتاح،دينامية النص،المركز الثقافي العربي بيروت لبنان، المغرب دار البيضاء ط1/ 1987 ص190

الأخرى، وردت الأقوال إلى أصحابها فيما يتعلق بحكايات الأساطير التي وردت في قصص الأنبياء . "[1]

وتميزت دراستهم للقصص، بالتركيز على موطن العبرة والعظة في ثنايا السورة، لكن دون إحكام خطة أو تعليل مقصد، بسبب طغيان النظرة الجزئية، و الإغراق في التفاصيل الزائدة، والمنحرفة في الغالب عن الأصل، وهذا ما يصطلح عليه بالإسرائيليات، وذلك انعكس بالسلب على نضج المنهج،حيث لم يهتموا بالقيمة الجامعة الموحدة، والمقصد العام وأحسن مثال كتاب "جامع البيان في تفسير القرآن" لابن جرير الطبري؛ وكتاب "لباب التأويل في معاني التنزيل" لابن محمد الشيمي المعروف بالخازن، و "مفاتيح الغيب" للرازي، والملاحظة أن هذه الكتب رغم قيمتها ،قد حوت مطاعن وشبهات عديدة، وانشغلت بتلمس العظة والعبرة من التفاصيل الحوشية الزائدة، دون اهتمام برد المطاعن بالحجج الدامغة المفحمة، ونغفل قيمتهم في التدقيق في الروايات، والترجيح بينها [2] .

ومع العصر الحديث كان المنهج أكثر نضجا.وإحكاما وأحسن مثال هو تفسير "في ظلال القرآن " لسيد قطب، ففيه وضوح الرؤية، ووعي بالمنهج القرآني، وإشراق الأسلوب مع بصيرة ثاقبة بالمقاصد والأهداف، وكان له قصب السبق في حسن مزاوجته في دراسة القصص في وحدة السورة القرآنية وذلك في تفسيره عموما، وفي جمع وحصر مشاهد وحلقات القصص في السور المتفرقة، وذلك في فصل مستقل ، في كتابه التصوير الفني في القرآن، وتعد النواة الأولى لمعظم الباحثين والدارسين للقصص القرآني[3] .

أما "محمد شديد " في كتابه منهج القصة في القرآن فيعتمد منهج دراسة القصص في هيكل السورة، كما عرضها المنهج القرآني "وهذا المنهج القرآني هو الذي تستمد منه القصة منهجها، فهو الذي يحدد وظيفتها وهدفها "[4] وهذا تضييق لروح المنهج القرآني، بتجريده من

1- الجانب الفني في القصة القرآنية ص86 .

2- المرجع السابق ص86 .

3- انظر التصوير الفني في القرآن ص119 .

4- منهج القصة في القرآن ص64 .

أهم خصيصة فيه، وهي الحيوية والمرونة والاتساع، وبالتالي نسجل عليه غلوه الكبير في إسقاط طريقة جمع الحلقات والمشاهد في دراسة القصص القرآني حيث يقول:" هناك من ينهج في تناول القصة في القرآن منهج الجمع والحصر، بجمع قصص كل نبي أو كل شخصية في مجموعة واحدة، على أساس أنها قصة واحدة من عدة فصول، أو عدة حلقات، وهو منهج لا يمكن أن يحقق فكرة أو يحقق هدفا." [1]

حقيقة إن دراسة القصص في نسق السورة له قيمة جليلة في إبراز المقاصد الكلية، ولكن من تمام الإعجاز المنهجي في القرآن،أنَّ ذلك كله موفور، إن درسنا القصص بجمع الحلقات المتفرقة وهذا المنهج لا يعارض المقصد ولا ينقض طبيعة النص القرآني بل إن في وفائه بالمقصد المحوري، الذي تدور في فلكه كل موضوعات القرآن ووسائله، بطريقة ثانية حجة بالغة على إعجاز القصص القرآني،في حيوية المنهج و تنوع الوسائل.

ومن ثمة نقول إنَّ طريقة عرض القصة في القرآن تنبئ عن طريقة دراستها، ولكن لا ريب أن تعدد أوجه القراءة و تعدد الفوائد هو ميدان الإعجاز الرحب، المهم في ذلك عدم نقض الأسس، و أيضا ضرورة وضع حلقات القصة في السياق التاريخي بمعرفة أسباب النزول وأحداث السيرة النبوية، لأن ذلك أَظهر لطريقة القرآن،وأولى لفهم واستنباط المقاصد من الحلقات المتفرقة، والمشاهد المتعلقة بمحور معين أو بشخصية محددة، وطريقة ضم الأجزاء المتسلسلة يؤدي إلى نقل المقصد الجامع، وفهم السنن الكلية، و تتبع الظواهر المطردة المتكررة بسورة معجزة .

ويجسد هذه الطريقة في دراسة القصص "فضل حسن عباس" وكان موفقا أيما توفيق في حسن ربطه وعمق تحليله ورده على شبهات الطاعنين، وقبل بحث كل قضية بمتعلقاتها أورد مبحثا خاصا بترتيب القصص القرآني في السور، وفي ذلك تنويه بطريقة القرآن، وتأكيد لقيمتها الجليلة[2] فقد درس قصص الأنبياء عليهم السلام في ترتيب زمني، وجمع حلقات كل قصة وأورد

1- المرجع السابق ص64 .

2- فضل حسن عباس،القصص القرآني إيحاؤه و نفحاته شركة شهاب الجزائر ص29 .

لها مبحثا خاصا بها، ومن جهة يؤكد على " أمر مهم أهمله كثيرون من الباحثين الذين عالجوا قضية القصة القرآنية، وهو أنَّ الباحث في القصة كي تكون نتائجه مقبولة، وأحكامه صحيحة، لا بد له من أن يقوم بدراسته دراسة موضوعية، وهذه لا تتم له إلا حينما تكون ركيزته الأولى بحث القصة من حيث ترتيب النزول،ليعرف ما الذي نزل أولا، وما الذي نزل بعد ذلك ،هذه هي الدراسة الموضوعية التي يمكننا أن نصدر بها أحكاما صحيحة، وأن نصل بها إلى نتائج منطقية "[1] وأكبر دليل على إنصافه، والروح العلمية التي يتحلى بها، هو إشارته لسبق جهد سيد قطب في هذا المجال ، أي دراسة القصص بضم الحلقات المتسلسلة[2].

والإشكال ليس في دراسة القصة في جسم السورة أو بجمع حلقاتها في السور المتفرقة، لأن الباحثين المنصفين قد أجمعوا على أنَّ ذلك من حيوية المنهج القرآني في عرض القصة وحجة إضافية على إعجازه، ولكن الإشكال في دراسة القصص القرآني بالمناهج النقدية المعاصرة ؟! وبذور هذا الإشكال وجدت في كتاب الفن القصصي في القرآن الكريم "لمحمد أحمد خلف الله"، فقد حاول دراسة القصص القرآني بإقحامه في المجال النقدي الصرف، وما جاء فيه باختصار،هو بناء المعطيات على المقدمات المغلوطة، دون وعي بالمنهج القرآني وخواصه في عرض القصص .

وبالتالي كانت النتائج مترتبة ضمنيا على المقدمات حيث يقول:" إن اختيار القرآن لبعض الرسل دون بعض، وإطالته الحديث عن بعض الرسل دون بعض، و تأخيره تصوير بعض الأحداث من حياة الرسول-ﷺ- وتعجيله بتصوير بعض، و اختياره لغة المرسل إليهم لتكون لغة الوحي والرسالة، إنَّ هذا كله هو الدليل على أنَّ القرآن لم يقصد من قصصه إلى التاريخ، وإنَّ الصنيع البلاغي للقرآن الذي يقوم على تخليص العناصر القصصية من أحداث وأشخاص، وأخبار من معانيها التاريخية، وجعلها صالحة كل الصلاحية لاستثارة العواطف والانفعالات حتى تكون العظة والعبرة . "[3]

1- فضل حسن عباس،القصص القرآني إيحاؤه و نفحاته ص26.

2- المرجع السابق ص27 .

3- الفن القصصي في القرآن الكريم ص254 .

والنص محاولة لإخضاع القصص القرآني للمنهج النقدي، في تجريد القصص القرآني من طبيعته العلوية المعجزة، باسم الفنية يسقط واقعية الأحداث وصدق الوقائع، وكأن الجمال والحقيقة خصمان، فهو في ذلك يحتكم إلى المنهج البشري لدراسة نص إلهي مقدس "ومن هنا يصبح من حقنا أو من حق القرآن علينا أن نفسح المجال أمام العقل البشري ليبحث ويدقق، وليس عليه من بأس في أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل، ولن تكون مخالفة لما أراده الله أو لما قصد إليه القرآن لأن الله لم يرد تعليمنا التاريخ . " [1]

وهي مغالطات لا أسس سليمة تقف عليها، وتنقض بعضها بعضا، والمنهج القرآني في عرض القصص أرقى من أن تنزله ضرورة لتشويه الوقائع، بل في ذلك دليل باهر على حيوية المنهج في قدرته المعجزة على بعث روح الوقائع الماضية صورًا مُشَاهدة ناطقة منزهة عن الزيف، والاختلاف، وبلغة المنزل عليهم لموافقته لطاقتهم.

ومن ثمة لا نغفل عن أنَّ " المناسبة الموضوعية، هي التي تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء، القرآن كتاب دعوة ودستور نظام ومنهج حياة لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ، وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق، وتحقق الجمال الفني الصادق الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق، ولكن يعتمد على إبداع العرض وقوة الحق وجمال الأداء" [2] لأن المنهج القرآني موصول بالمقصد العام .

أما الباحث التهامي نقرة في كتابه "سيكولوجية القصة في القرآن" " فيبني دراسته للقصص القرآني على أساس مخالفة مقوماتها للعناصر الفنية المتعارف عليها نقديا بحيث يؤكد أن العناصر المألوفة للقصة من أحداث وأشخاص وحوار وارتباط مكاني وترتيب زماني وعقدة ..

1- الفن القصصي في القرآن الكريم ص/ 254

2- الظلال ، ج1،ص/ 55

لا نجدها مجتمعة في القصة القرآنية، ولا موزعة توزيعا يجعل لكل منها دورا يختل بانعدامه توازن القصة. »[1]

وهو بهذا لا يقصد انتفاء الفنية من القصة في القرآن، وإنما يؤكدها على ضوء طبيعة النص القرآني والغريب أن أبا جندي سجلها من بين المآخذ[2] وهذا نتيجة لاستشهاده بالنص مبتورا عن سياقه، وبالتالي اختل المعنى لأن الباحث قد أوضح أسباب حكمه على فنية القصة القرآنية، على أساس ارتباط البناء الفني بالمقصد« لأن المقاصد التي يوحي بها السياق هي التي توجه أسلوب العرض، وتتحكم في ترتيب الأحداث، وتسلط الأضواء على العنصر المراد إبرازه.»[3]

وبالتالي حجة أبي جندي ضعيفة، في حكمه على ما جاء في سيكولوجية القصة في القرآن وذلك لأن "تهامي نقرة " يؤكد على اعتبار البناء الفني من صميم المنهج القرآني في عرض القصص ولأن أي دراسة للقصص القرآني بمعزل عن تذوق مناحي الجمال مشوبة بالقصور.

ولذلك فإن تعامل القرآن مع القصة كوسيلة تأثير بالغة القيمة في توصيل المقاصد والأهداف، فالإشكال ليس في القصة كشكل فني متميز بطبيعة علوية معجزة، و إنما في منهج دراسة القصة القرآنية ومدى صلاحية المناهج الحديثة في الكشف عن جماليات القصة القرآنية دون نقض للطبيعة المعجزة، خاصة مع تطورات المناهج و الأساليب « والتقنيات التقليدية للقصة لم تعد صالحة لاستيعاب جميع العلاقات الجديدة، التي تنشأ عن هذا الوضع الجديد، فينتج عن ذاك قلق دائم ، ويتعذر علينا أن ننظم في ضميرنا جميع المعومات التي تهاجمه لأن الأدوات الكاملة تنقصنا.»[4]

وإن كان هذا بالنسبة للقصة البشرية فنحن أحوج ما نكون في دراسة القصة القرآنية إلى منهج يسبر غورها ويكشف عن مواطن الجمال فيها، منهج يتناسب مع طبيعتها المعجزة هذه

1- سيكولوجية القصة في القرآن ص93.

2- الجانب الفني في القصة القرآنية ص109.

3- سيكولوجية القصة في القرآن الكريم ص93 .

4- ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنتونيوس، منشورات عويداد بيروت باريس ط2/1982م ص7.

الطبيعة التي تعبر عن التقاء فذ بين قمتين شاهقتين قمة الحق وقمة الجمال، وهو التقاء تناهت عن احتذائه الأبصار والبصائر[1].

ومن ذلك نؤكد «أن القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين الفنية والدينية وأن الناحية الفنية وسيلة دائما للناحية الدينية، ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى»[2] وهذا يؤدي بنا إلى التفكير في منهج شمولي يستوعب الوحدة بين الفكر والجمال « نحن الآن بحاجة إلى منهج للتحقق بالرؤية الشاملة الموضوعية و ليس الموضعية »[3] الارتقاء بجماليات القصة القرآنية من الفهم الجزئي الموضعي إلى كلية المنظور وشمولية التصور وليس كل ما ننشده إثبات فنية القصص القرآني بانطباقه على مقاييس النقد الموضوعة أساسا لدراسة النتاج البشري والتي لا تعرف استقرارا ولا ثباتا على مر العصور واختلاف البيئات ووجهات النظر بل الهدف هو الوصول إلى منهج لدراسة القصة القرآنية يتناسب مع طبيعتها ويكشف عن مكامن الجمال فيها، جمال معجز في وصله بين الفكر والفن في وحدة متسقة لا تفاوت فيها ولا تباين.

ومن ثمة « لا ينفي كونها مشرعة وبانية للفرد والمجتمع أن تكون قصة فنية سامية في أسسها ومنهجها كذلك دون أن يكون فيها أسطورة أو رمز أو خلق فني بالمعنى الذي قصدته نظرية الرواية الحديثة، أعني كذبا معللا تعليلا فنيا مقنعا أو غير مقنع ففي القصة الفنية حبكة معجزة تجلّت خلالها العلّية السببية بصورة كمال مطلق، وكما أنه لو أردنا مدرسة للبلاغة وفن التعبير البلاغي لا نجد خيرا من مدرسة القرآن كذلك الشأن بالنسبة للقصة أو فن بناء القصة الفنية نجد القرآن يمدنا بالنموذج الأوفى.»[4]

ولا ريب في كونه سابقة رائدة وفتحا كبيرا في منهجه وأسلوبه «ومن هنا فإن أعظم نتاج الأدب العربي إنما جاء من خلال تلك الإضافة القرآنية الضخمة وما تبعها من فنون وعلوم وآداب »[5] فهو واقعيا وفنيا المصدر الثابت والحجة الخالدة ولا جدل حول أوليته فهو الحجة على الجمال و هو المصدر للمناهج الفنية.

1- محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، دار الكتب الحديثة د.ط /1395هـ- 1970م ص310 .

2- حسن محمد باجودة، الوحدة الموضوعية في سورة يوسف السعودية ط2/1983م ص35 .

3- محمد الغزالي،كيف نتعامل مع القرآن،دار الوفاء للطباعة والنشر د.ط د.ت ؛ ص46.

4- الجانب الفني في القصة القرآنية ص129 .

5 - خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الحديث ص128 .

ولذلك يجدر بالباحث المنصف تحري الحيطة والحذر، أثناء مقارنة القصص القرآني بغيره ولا يجوز إخضاع الخواص المعجزة فيه إلى النقد والتشويه، بنية إثبات الجمال الفني وتطبيق المقاييس النقدية البشرية القابلة للتحوير والتعديل "ومن جهة أخرى هذه المقارنات واجبة لمن رام إظهار الإعجاز، ولا عيب في الاستظهار بالمقاييس النحوية، والبلاغية، والأسلوبية، وهي مقاييس بشرية لا محالة للاستدلال على الجمال الذي يفوق كل جمال والفن الذي يعلوا على كل فنّ. "[1]

وهو الإطار الذي تظهر من خلاله الأفكار " والظاهر أننا حين نعجب بفكرة القصة لا نلغ الإطار من حسابنا نهائيا، لأن طريقة التناول لها دخل كبير في إقناعنا بالفكرة، أو عدم إقناعنا ."[2]

وهذا الأمر ظاهر البيان في النّص القرآني عموما، وفي عرض القصص على الخصوص، وبالتالي لا مفر من استثمار الجهود النقدية الإنسانية في الكشف عن جماليات القصص القرآني، دون نقض لطبيعتها، واتساقا مع منهج القرآن في العرض، وهذا ما وجدناه مجسدًا في المنهج الجمالي، كمنهج شمولي، من صميم المنهج القرآني، في اتخاذه الجمال منهجا شاملا في عرض الحقائق والوقائع .

وسنحاول الكشف عن جذور هذا المنهج وآفاقه في المبحث الموالي .

وبناء على ما سبق نصل إلى الآتي :

1. مصطلح القصص في القرآن، لا ينطبق مع المصطلح النقدي للقصة، بل له طبيعة خاصة، من صميم الطبيعة المعجزة، في مصدرها الرباني، وتمثل الصدق والواقع .

2. منهج القرآن في عرض القصص يترع إلى الجمال الفني في وحدة المحتوى والشكل.

1- أشتات في اللغة و الأدب ص944.

2- عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة بيروت، ط4/1981، ص209.

3. منهج القصص القرآني جزء لا يتجزأ، من منهج القرآن لأن القصة وسيلة من وسائله لأداء مقاصده الكبرى.

4. لا بد من منهج يتناسب مع طبيعة القصص القرآني ولا ينقض مقوماتها.

5. دراسة قصص القرآن، وفق منهج انتقائي اختزالي للوقوف على السنن الثابتة، والظواهر المطردة على مستوى المنظور والبنية، مع مراعاة خواص السياق الداخلي لوحدة السورة القرآنية، والسياق الخارجي، ويتمثل في وقائع الرسالة الخاتمة، وأحداث السيرة .

6. استثمار الجهود الإنسانية في التفسير والدراسات القرآنية والنقد، بتسخير التقنيات والوسائل للكشف عن جماليات قصص القرآن، بما يناسب طبيعتها و يحقق مقاصدها، وهذا يتجسد في المنهج الجمالي في شموليته واستيعابه .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث

الجمالية مصطلحا ومنهجا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة :

إن من أبجديات البحث العلمي، اختيار المنهج المناسب للموضوع المدروس، لأن من شأنه إعادة ترتيب المعطيات المقررة سلفا في نسق جديد تستنشق منه أبعادا للقراءة مغايرة، وفق آليات ووسائل ثابتة تتحرك على ضوء رؤيا أو منظور واضح ومحدد للوصول إلى الأهداف المتوخاة .

ولابد من وعي كامل بالمصطلح[1] لأن "صياغة المصطلح لها ثوابت معرفية مطلقة ولها نواميس لغوية عامة كما لها مسالك نوعية خاصة، وكل ذلك يمثل الآليات التي تقتفيها المصطلحات العلمية والفنية، فأما الثوابت المعرفية فتتصل بطبيعة العلاقة المعقودة بين كل علم من العلوم، ومنظومته الاصطلاحية، وأما النواميس اللغوية فتقتضي تحديد نوعية اللغة التي تتحدث عن قضية المصطلح ضمن دائرتها، وما تختص به من فروق تنعكس على آليات صياغة الألفاظ ضمنها، فإذا جئنا إلى المسالك النوعية، فإننا نعني بها مجال الاختصاص المعرفي، الذي نتناول آلياته الاصطلاحية بالدرس."[2]

1- فاضل ثامر ،اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث،المركز الثقافي العربي،ط1/1994ص170.

2- المصطلح النقدي ص10.

وذلك لأن تداخل المصطلحات يؤدي إلى تمييع المنهج، وعدم التحكم في آلياته، مما يشكل اختلالا في بناء المعطيات، وبالتالي الدوران في حلقات مفرغة، ونقض النتائج للمقدمات، « إنَّ السجل الاصطلاحي في كل فرع من العلوم، هو الكشف المفهومي الذي يقيم للمعرفة النوعية سياجها المنطقي،بحيث يغدو الجهاز المصطلحي لكل ضرب من العلوم صورة مطابقة لبنية قياساته متى اضطرب نسقها اختل نظامها وفسد باختلالها تركيبه، فتهافت بفعل ذلك أنسجته. "[1]

وبالنسبة لموضوع – قصص أولي العزم من الرسل – يزداد الأمر صعوبة لتعلقه بخصوصية النص القرآني .

وفي هذا الصدد يمكن تصنيف مناهج الدارسين للقصص القرآني بصفة عامة إلى منهجين:

- منهج اهتم بالمضمون على أساس أنَّ القيمة الجمالية في المحتوى الفكري، ومعظم هذه الدراسات تصب في منهج التفسير الموضوعي والعلمي [2] سواء بقصد أو بغير قصد .

- ومنهج اهتم بتتبع مناحي الجمال في الشكل والأسلوب [3] .

ومنهم من تطرف كثيرا في النظرة الشكلية حتى أدى به إلى نقض المضمون[4].

وبالتأكيد أن المعتدلين في كلا المنهجين اجتهدوا في تفسير القيمة الجمالية للقصص القرآني، لكن جمود المنهج الأول على تحليل المضامين الفكرية والقيم الروحية،كان رد فعل لأصحاب المنهج الثاني للجنوح إلى الجديد من المناهج الفنية المعاصرة ولو على حساب الجوهر.

1- المصطلح النقدي ص11 .

2- أحمد رحماني،نظرية الإعجاز القرآني،مكتبة وهبية القاهرة ط 1418/1-1998 ص 40-41 .

. - انظر محمد فتحي قورة،القرآن و أنباء الأنبياء و الحديث عن المعجزة الخالدة و أولي العزم من الرسل ط1 .

3- طول محمد،البنية السردية في القصص القرآني ديوان المطبوعات الجامعية .

4- محمد أحمد خلف الله،الفن القصصي في القرآن،مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ط 3/ 1965 .

ومنه كان الهاجس المحوري عن المنهج المناسب للكشف عن مواطن الجمال في قصص أولي العزم ؟! وكيف يمكن توظيف الجمالية كمنهج للدراسة بما يتناسب مع منهج القرآن في عرض القصص ؟! هل الجمالية منهج مستورد من الفلسفات الوضعية ؟ أم هو منهج أصيل نابع من المنظور القرآني ؟!

ما هي الأبعاد الأساسية والأصول العامة لهذا المنهج ؟! وما هي آليات ووسائل توظيفه لاستجلاء جماليات قصص أولي العزم ؟! وقبل الإجابة على هذه الأسئلة لابد من محاولة تتبع مصطلح الجمالية في الفكر الوضعي وفي التصور الإسلامي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول

مصطلح الجمالية في الفلسفة الوضعية

توطئة:

إنه لمن الصعوبة بمكان تحديد مصطلح الجمالية لارتباطه بالشعور والوجدان ولأن «الجمال معنى من المعاني فهو لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بغيره، حيث نستطيع رؤيته في الإنسان وفي الأشياء وفي الأفعال والتصرفات، إنه الحيوية التي لها إمكانية دخول المجالات كلها مادية كانت أم معنوية[1].

ومنه كان اعتبار الفن ميدانا من ميادين علم الجمال لأن الجمالية أوسع دلالة من الفنية، والحقيقة أن لهذا التداخل الاصطلاحي بين الجمال والفن أثرا في صعوبة تحديد مصطلح الجمالية في الفكر الوضعي[2] مع تفاوت المذاهب الفلسفية، وفقا لطبيعة الرؤيا أو المنظور الفكري المتباين على مر العصور، وفي البيئة الواحدة، باختلاف وجهات نظر الفلاسفة والمفكرين[3].

«والمصطلح اقتبسته اللغة اللاتينية الحديثة سنة 1750، فصاغته بأداء (استايتيكا)، ثم نطق به الفرنسيون مباشرة بعد ذلك أي سنة **1753**، بأداء (استايتيك)، و هو لفظ منحدر من اليونانية (استايتيكوس)، المستنبط من كلمة تعني في دلالتها الحرفية ما يفيده فعل أحسَّ، في معناه الشعوري المجرد كما في معناه المرتبط بإحدى حواس الجسم، أما مضمون هذا المصطلح فإنه مرتبط في تاريخه بالمعارف المطلقة، غير المقيدة بقوم من الأقوام أو بلغة من اللغات أو بحقبة من حقب التاريخ، لذلك اندرجت المعرفة المتصلة بالبحث في كل ما له علاقة بالجمال ضمن الدائرة الكبرى للفلسفة ثم ضمن الدوائر الصغرى لعلم النفس و علم الاجتماع في ارتباطهما بالفن. »[4]

1- صالح أحمد الشامي، الظاهرة الجمالية في الإسلام، المكتب الإسلامي ط 1/1986-ص24.

2- رونين جورج كولنجوود، مبادئ الفن، ترجمة أحمد حمدي محمود، الدار المصرية للتأليف و الترجمة ص 10-11.

3- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة بيروت ط1 /1982 ص295 .

- أنظر أميرة حلمي مطر، فلسفة الجمال، دار الثقافة 1984 ص5.

4- المصطلح النقدي ص77 .

وبالتالي لا يمكن تحديد مصطلح الجمالية بمعزل عن المنظور الفلسفي أو الرؤيا الفكرية وقبل ذلك هل الجمالية ترادف علم الجمال ؟ أ م لها دلالة اصطلاحية خاصة ؟

«مصطلح الجمالية أينما وجدناه بعبارة علم الجمال وتنتقل إلى ما أسميناه بالدلالة التخصيصية فيكون مصطلح الجمالية دالا على سمة الجمال في الأشياء التي نتحدث عنها إذ يعني الخصيصة الجمالية في الظواهر التي تكون مدارا للبحث و الاستكشاف "[1] ولسبرغور الدلالة الاصطلاحية لا بد من تتبع جذور الجمالية أو علم الجمال في الفكر الإغريقي بداية في مسار الفلسفات.

أولا: مصطلح الجمال في الفكر الإغريقي

الجمالية لم تظهر كمصطلح علمي في الفلسفة الإغريقية، وإنما ظهرت كأفكار ونظرات «حيث توفر لهم نتاج فني وفكري (فلسفي) سمح بقيام حس نقدي عملي ومستوى علمي نظري قادا معا إلى أفكار جمالية واضحة التميز كمضمون »[2] أفلاطون[3] يبني مفهومه للجمال من نزعة مثالية قوامها المحاكاة فالوجود المادي ماهو إلا انعكاس لعالم الحقيقة الخالصة، عالم المثل عالم الحق، والخير الجمال فهو يؤكد على «فكرة التسامي ذاتها إذ لا يعطي الجمال مطلقا على مستوى الحياة فهو معدوم على هذه الأرض وموجود فوق العالم أو ما وراءه.»[4]

ويظهر في الفكر الأفلاطوني بعض بقايا التوحيد المشوب بعوارض وانحرافات «مثل هذه التصورات المنحرفة عن الجمال المطلق والعالم الأول والهبوط وغير ذلك هي من بقايا رسالة التوحيد الصافية المتناسقة التي بعث بها أنبياؤهم ورسلهم إلى جميع الأمم والشعوب»[5] خاصة في حرصه على ربط الجمال بالحقيقة المثلى والخير كواجب أخلاقي[6] ومن جهة أخرى نلمس أثر الفكر

1- المصطلح النقدي ص 81

2- إ.نوكس، النظريات الجمالية، تعريب محمد شفيق شيا، منشورات بحسون الثقافية بيروت ط 1 / 1985 ص 15

3- (427 – 328) ق – م ف فيلسوف يوناني وهو مؤسس المثالية الموضوعية، الموسوعة الفلسفية ص40

4- دني هويمان، علم الجمال، ترجمة ظافر حسن، المكتبة العلمية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط1975/2 ص38

5- عدنان النحوي، الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ط1978/2 دار النحوي ص245

6- النظريات الجمالية ص20

الوثني القائم على تعدد الآلهة فالفن على رأي أفلاطون "قد هبط على الإنسان من السماء حين جاء به الإله بروميثيوس ووهبه للبشر."[1]

تشرب أرسطو[2] الفلسفة الأفلاطونية، وأخرجها من جديد بصفة علمية مادية، محاولا التفلت من هيمنة المثالية وتفسيراتها الميتافيزقية، و"العلاقة بين جماليات أفلاطون وجماليات أرسطو فهي علاقة بين فلسفتين،متفقتين ومختلفتين في آن في المبادئ والمناهج والنتائج، فلسفة أفلاطون هي العقلانية، المتوجة بالمثالية الصوفية، بينما فلسفة أرسطو هي العقلانية المحكومة بالواقعية في جمالياتها."[3]

ومن ثمة يمكن القول أنّ الصبغة العلمية ظاهرة في اهتمام أرسطو بتحديد مجال المحاكاة، وقصرها على الفنون[4]،دون غيرها من النشاطات العقلية، خاصة في كتابه فن الشعر الذي تخصص فيه بدراسة علم البيان، وهو في أغلب الأحيان يستند لأفكار أفلاطون الجمالية ويحاول إخراجها في سورة محددة ومضبوطة، ونلمس ذلك جليا في استعمال المفاهيم المشتركة، وأرسطو أخذ عن أفلاطون فكرة الانسجام والقياس في تعريفه للجمال "لا يمكن لكائن أو شيء مؤلف من أجزاء عدة أن يكون جميلا إلا بقدر ما تكون أجزاؤه منسقة وفقا لنظام ما، ومتممة بحجم لا اعتباطي لأن الجمال لا يستقيم إلا بالنسق والمقدار."[5]

ونخلص إلى أنّ تطور الوعي الجمالي من أفلاطون إلى أرسطو، كان له دور بالغ في قيام جل النظريات الجمالية في الفلسفة الوضعية، باتجاهين مثالية أفلاطونية، وواقعية أرسطو طالسية، الأولى تنحو إلى المضمون الفكري والثانية إلى الشكل الفني .

ثانيا: مصطلح الجمالية في الفكر المسيحي

إنّ أهمية الرؤيا أو المنظور في استجلاء المفهوم الإصطلاحي للجمالية ظاهرة متكررة في الفكر الإنساني .

---

[1]- فلسفة الجمال ص57

[2]- أرسطو (384-322 ق م) فيلسوف وعالم موسوعي ومؤسس علم المنطق، الموسوعة الفلسفية ص19

[3]- النظريات الجمالية ص21

[4]- فلسفة الجمال ص57

[5]- علم الجمال ص41

علما أن المسيحية كدين سماوي أساسه التوحيد قد أصابها التحريف، وانقطعت عن خدمة الأهداف الروحية السامية، إلى الحجر على الفكر والشعور والخلط بين التوحيد والوثنية، إلا أن ملامح باهتة ظلت مرافقة لجهود الفلاسفة في البحث عن الجمالية، نجد صوفية أفلوطون [1] انعكاسا لروح التوحيد وجوهره، " فالواحد المطلق خير قبل كل شيء وهو جميل لأنه خير، فالخير هو المبدأ الذي يصدر عنه الجمال و إذا كان للجمال هذه الطبيعة فإن الوسيلة إلى إدراكه هي الروح أما الحواس فإنها لا تدرك سوى انعكاسات في ظلال للجمال وسوى إيحاءات للحقيقة. "[2]

ويسير في ركابه "سانت أوغسطين "[3] في تعريفه الجمال بأنه الوحدة[4]، وبالتالي ظهر مصطلح الجمالية اللاهوتية أو الجمالية الدينية، وقوامه أن الخالق الواحد هو مصدر الجمال المطلق، ورغم هذه المقاربات النظرية، فإن الواقع يعكس الانحراف عن المسيحية الصحيحة، وعكست أعمال الفنانين انتهاكات وأغاليط كتبة الأناجيل، وأضحت الكنائس حافلة بصور وتماثيل تمجد الوثنية[5].

ومن ثمة كان الشرخ الكبير بسبب الفصام بين الوعي الجمالي كتصور نظري يحاول إيجاد مفهوم إصطلاحي من منظور ديني، وبين الإنجازات الجمالية للفنانين، التي عانت من ضغوط الكنيسة في سعيها لاحتواء الفن، وتجميل به التناقضات الفكرية، المبثوثة في الأناجيل والتوراة الموضوعة، وأسفر عن ذلك تخنيط الوعي الجمالي في منظور أغبش.

ثالثا : مصطلح الجمالية في الفلسفة الوضعية المعاصرة

إن انصراف التفكير الجمالي في العصر الحديث عن تعاليم الكنيسة بمحاولة إلغاء مصطلح الجمالية الدينية نهائيا لارتباطها بالعصور المظلمة العقيمة، وتعويضه بما يواكب التطور المادي

1- فلسفة الجمال ص79-80.

- أفلوطون(205-270) فيلسوف مثالي يوناني ولد في مصر وعاش في روما وهو مؤسس الأفلاطونية الجديدة، الموسوعة الفلسفية ص42.

2- عز الدين إسماعيل،الأسس الجمالية في النقد العربي،دار الفكر العربي ط3 /1974 ص41 – 42.

3- أغسطين القديس (354-430) فيلسوف متصوف ولاهوتي مسيحي،إعتنق آراء قريبة من الأفلاطونية الجديدة،الموسوعة الفلسفية ص42.

4- المرجع السابق ص47.

5- الظاهرة الجمالية في الإسلام ص79 .

والتقدم العلمي، وبالتالي تأثر الوعي الجمالي بنزعتين: النزعة التجريبية والنزعة العقلية[1] وأضحى المنظور الفكري متذبذبا ومضطربا تتداخل فيه المثالية بالواقعية والعلمية بالعبثية المتطرفة.

بينما يبني "ديدرو"[2] مفهومه على إلغاء النظرة الميتافيزقية و يؤكد على نسبية الجمال[3]، كانت محاولات "بومجارتن"[4] مثمرة في إخراج المفهوم الاصطلاحي بشكل أكثر تحديدا، حين عرف علم الجمال أو الجمالية بعلم الإدراك الحسي[5].

أما فلسفة "كانط"[6] النقدية فقد وجهت الجمالية وجهة شكلية، بإفراغها من غائية المضمون وقيمة المعنى[7]،وبينما حاول " كانط" إقامة مفهوم الجمالية على أنقاض نقد الجمالية الميتافيزقية الإغريقية و الجمالية الدينية الوسيطة، قام "هيجل"[8] ببعث كل التراكمات الفكرية السابقة في فلسفته الجمالية، والتأكيد على ارتباط الجمالية بالمنظور النقدي، حيث اعتمد عليها في بناء مفهومه الاصطلاحي للجمالية وهي" تجلي الفكرة بطريقة حسية" [9]، مؤكدا على الفكرة كمحور للمتجليات الحضارية في تاريخ الفكر الإنساني، ولكن المقاييس لا تستند إلى محور واضح أساسه التوحيد [10].

1- الأسس الجمالية ص53

2- ديدرو دينى (1713-1784) فيلسوف،ومفكر فرنسي محرر وناشر" الموسوعة"ورجل الأدب وناقد الفن ، الموسوعة الفلسفية ص206.

3- غنيمي هلال،النقد الأدبي الحديث،دار العودة بيروت،ط1،1982 ص294 –296.

4- بومجارتن أليكسوندر غوتليب (1714-1762) فيلسوف ألماني ، قد أدخل في كتابه "تأملات فلسفية" 1730 مصطلح علم الجمال، الموسوعة الفلسفية ص94.

5- النظريات الجمالية ص32 .

- الأسس الجمالية ص54 .

6- كانط إيمانوال (1764-1804) فيلسوف وعالم ألماني مؤسس المثالية الكلاسيكية الألمانية، الموسوعة الفلسفية ص387.

7- النقد الأدبي الحديث ص 302 .

- انظر علم الجمال ص64.

8-هيجل(1770-1831) فيلسوف مثالي ألماني، الموسوعة الفلسفية ص566.

9- فلسفة الفن ص113 .

- علم الجمال ص70 – 71 .

10- الأدب الإسلامي إنسانيته و عالميته ص248 .

أما " شوبنهاور"[1] فقد تأثر مفهومه الاصطلاحي للجمالية بحالة التأزم النفسي التي سيطرت عليه من جراء التكالب المادي واللهث الجنوني وراء المكاسب الدنيوية [2] فأقام نظراته الجمالية على الهروب من الواقع بالانكفاء على الذات، بالتأمل الروحي الخالص وتحكمه في ذلك النزعة الرومانسية المتشائمة، فالجمالية« انعتاق ولحظة سكينة، هي تجاوز للإرادة نحو الرؤيا وتجاوز للرغبة نحو التأمل. »[3]

ويخالف "كانط" في جمالياته الممجدة للإرادة الحرة بإلغاء هذه الإرادة وكأنها عبء أو رجس يجدر الخلاص منه لنيل درجة السمو،«وغاب عن باله أن إلغاء الإرادة هو هبوط وأي هبوط وهو قتل لكل إحساس صادق بالجمال.

إن " شوبنهور" يبحث في ذاته ليكون عبدا لشيء فوجد في متاهته صنما أسماه الجمال قبع قبالته عبدا مسلوب الإرادة يتعبده في محراب مظلم و في تيه عاصف. »[4]

ومن جهة أخرى نجد الفيلسوف الإيطالي " كروتشه بندتو "[5] يبني مفهومه الاصطلاحي للجمالية على الحدس أو الرؤيا[6]، وعلم الجمال هو علم التعبير الشامل أو علم اللغويات العام[7]،وقد أقام فلسفة الروح على إلغاء دور العاطفة والشعور أو المضمون الديني أو الأخلاقي، ويتناقض في أفكاره، فيوحد بين الشكل والمضمون، ثم يعتد بالشكل في القيمة الفنية .[8]

ونخلص من كل هذه المحطات أن مصطلح الجمالية متذبذب وغير مضبوط، وكرد فعل للشطحات الجمالية المثالية قامت الفلسفة الواقعية؛ نلمس في فلسفة "ماركس"[9] ربطه بين الجمالية

1- شوبنهاور آرثور (1737-1860) فيلسوف مثالي ألماني ألف كتاب «العالم كإرادة وإمتثال»، الموسوعة الفلسفية ص266.

2- النظريات الجمالية ص183 .

3- المرجع السابق ص153 .

4- الأدب الإسلامي إنسانيته و عالميته ص247.

5- كروتشي بندتو (1866-1952) فيلسوف إيطالي مثالي النزعة، الموسوعة الفلسفية ص391.

6- فلسفة الجمال ص181 .

7- المرجع السابق ص183.

8- النقد الأدبي الحديث ص 316 .

- فلسفة الفن ص183 .

9- كارل ماركس (1818-1883) مؤسس الشيوعية العلمية وفلسفة المادية الجدلية ،الموسوعة الفلسفية ص438.

والواقع الاجتماعي والاحتفال بالمضمون الفكري كقيمة جمالية[1] وفي ذلك هدم مبدأ الفن للفن[2]، وقامت مكانه غائية مادية باسم القيم الاجتماعية والإنسانية، وبطبيعة الحال سيادة الغائية المادية على مفهوم الجمالية الماركسية قد سحق كل القيم الإنسانية، و يظهر مصطلح علم الاجتماع الجمالي أو تمركس الجمال [3] و يعني المفهوم الجمالي وعلاقته بالثورة والتغيير الاجتماعي بدافع الصراع الطبقي.

وكرد فعل لإلغاء ذاتية الفرد في السيطرة الطبقية للمجتمع سلكت و جودية "سارتر"[4] مسلكا ماديا أيضا، لكن يضع ذاتية الفرد وحريته فوق قيم المجتمع[5] وهي فلسفة سابحة في الفراغ وتنزع إلى تأليه الذات وفصم عراها من كل القيم، ومنه لا نستغرب البتة بناء مفهوم الجمالية على التناقضات والتمرد والضياع والغائية النفعية الأنانية، والتأكيد على الحاضر ونفي الغيب، ويفصل بين الجمالية وبين المضمون الفكري أو القيمة الأخلاقية [6] أو الفعالية الاجتماعية .

وبقي مصطلح الجمالية يصطخب بالنزعات المريضة، "ففرويد " يحدد مفهوم الجمالية في التعبير عن الرغبات الجنسية المكبوتة، و"هو مع رفضه لنظرية " الفن للفن " فقد أعطى المجال الجمالي دور المنفذ الخاص للميول والمشاعر الدنيا والمنحطة. "[7]

و لم يعطنا الاتجاه الرمزي مفهوما واضحا للجمالية، خاصة في إغراقه في العلاقات الشكلية في العمل الفني واعتماده على الرموز و الإشارات، من الثورة العلمية للفيزياء والرياضيات، وعلى منوالهم الشكليون الروس و أخلافهم البنيَويون[8]، في نظرتهم الضيقة لمفهوم الجمالية كمصطلح يهتم ببنية النص في هيكلها اللغوي، بعزله عن السياق التاريخي أو الاجتماعي أو الانفعالات والمؤثرات

1- النقد الأدبي الحديث ص334 .

2- إحسان عباس،فن الشعر،دار الشروق عمان،ط1/1996،ص151.

3- الظاهرة الجمالية في الإسلام ص53.

4- سارتر جان بول (1905-1980) فيلسوف وكاتب فرنسي صاحب مذهب الوجودية الملحدة،الموسوعة الفلسفية ص238.

5- النقد الأدبي الحديث ص 342 – 343 .

6- فلسفة الجمال ص19.

7- أفاسيجيف و مجموعة من المؤلفين،دراسات في الأدب والمسرح،ترجمة نزار عيون السود،منشوران وزارة الثقافة والإرشاد القومي،ص49.

8-روبرت شولز،البنيوية في الأدب،ترجمة حنا عبود،منشورات إتحاد الكتاب العرب ط1/1977 ص15 – 16.

النفسية، وأن بتشريح وتفكيك التراكيب اللغوية تتجلى القيمة، والمنطق المادي والفراغ الروحي هو الذي خول لهذا المنهج المغالاة في إقحام النظريات والوسائل العلمية والمصطلحات المناقضة لروح الجمال والتعامل مع النصوص كالجثث الجامدة تشريحا أو كالقوالب الصماء تفكيكا.

ومن سمات الجمالية الحداثية النزوع للإغراب، باستخدام رموز و شيفرات تخنق جوهر النص وتهدم قيمته الجمالية، وما دعوى "رولان بارت" إلا مثال عن هذا النزوع العجائبي بعداوته للمألوف و ثورته على المنطق الإنساني، ومنه القول بموت المؤلف، أي ضرب الإنسان في كينونته وهويته وفعاليته الاجتماعية ودوره التاريخي[1] والتناقص القائم من منهج حداثي يزعم التجرد من هيمنة الخلفيات الفكرية وسلطة الإيديولوجي و يقع في فخ العبودية، بتقديس الأنساق والبنى لدرجة إزاحة الكينونة الإنسانية عن المركز، والاتكاء على منظور عبثي متطرف.

ولعلّ الخطر ليس في تطوير الكشوفات اللغوية لخدمة الجمالية المتوازنة ولكنّه الخطر« في إعطاء النموذج اللغوي سلطة طاغية، وصنمية في التاريخ والحياة قادرة على استلاب الفعل الإنساني»[2] وتدمير كينونته وفعاليته الحضارية كطرف نقيض لتأليه الإنسان في الوجودية، و رغم محاولات الحداثة الشكلية التملص من المنظور الفكري، تبنّت منظور العبثية، وجعلت الشكل اللغوي قناعا يخفي التبعثر الفكري والفوضى الشعورية،«إن "بارت" يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه "سارتر" في مقته الجوهرية "فسارتر" يقر بوجود قدر من التكامل أو الوحدة في الشخص الإنساني حسب ما يبدوا لنا ، أما "بارت" فيؤمن بفلسفة التحلل التي تنحل فيها الوحدة المفترضة في أي فرد إلى تعددية بحيث يصبح كل منا كثرة لا وحدة.

إن بارت لا يؤمن بالوحدة ولا حتى بالله الواحد الأحد بل يدعم كل ما هو متعدد أو متقطع»[3] ومنه نستشف انعكاس المنظور على المفهوم الاصطلاحي ومن سلطة المنظور إلى سلطة اللامنظور«وهكذا يغدو الأنموذج اللغوي متسلطا على كافة ميادين البحث العلمي والاجتماعي وتكف الفعالية الإنسانية عن ممارسة أي تأثير إزاء تسلط الأنساق البنيوية واللغوية، حتى ليغدو

1- شايف عكاشة، نظرية الأدب في النقدين الجمالي و البنيوي في الوطن العربي، ديوان المطبوعات 1994 ج3 ص15 .

2- اللغة الثانية ص147 .

3- جون ستروك، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة الكويت رمضان 1416 ص77.

النموذج اللغوي بديلا للمطلق الأفلاطوني وهكذا تنسحق الذات الإنسانية أمام جبروت (الجبرية) لسلطة الأنساق البنيوية المحكمة » [1] في لهاث مسعور .

وأكبر دليل على تطرفه و عبثيته وعقمه عن صياغة مصطلح جامع مانع يستوعب الجمالية مفهوما ومنهجا، قيام البنيوية التولدية محاولة ردم الهوّة وتدارك النقص، يتزعمها " لوسيان جولدمان " في البحث عن منظور يستوعب الرؤيا للعالم[2] ودعوته للاستفادة من ثمار وعطايا المناهج السابقة، و"ميخائيل باختين" في جمالية تنزع للتكامل والشمول تحاول الربط بين سيميائية النص والرؤيا الإيديولوجية، ببعث التراث اليوناني[3]، ودعوة "تودوروف" إلى إعادة النظر في الجمالية الشكلية والتصريح بأن الأدب هو تقاطع الخطاب الأيديولوجي والفني[4].

وبالتالي تسقط كل الدعاوي الباطلة حول موت الإيديولوجيا وتكذيب النظرة الأحادية الضيقة في ازدرائها للمنظور الفكري و تجلياته الحضارية، «ولا يمكن إقامة فاعلية جمالية نقية ومعزولة عن البعد الأيديولوجي"[5]، إنها ثورة ما بعد الحداثة على الحداثة، والخروج من قطبية الذات الغربية حول نفسها إلى أفق الثقافات المتنوعة [6].

وبالتالي يمكن أن نقول إن مصطلح الجمالية في الفكر الوضعي متذبذب وغير مستقر يحكمه منظور ضيق، ورؤيا أحادية، حتى تحولت إلى تجارة كلما أفلست بضاعة، قامت على نقيضها بضاعة أخرى، والتعامل مع مصطلح الجمالية كديكور أجوف فارغ، لتجميل واجهات الفلسفات البالية [7]، وإعادة تسويقها.

1- اللغة الثانية ص147 .

2- اللغة الثانية ص139 .

3- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر القاهرة ط 1 / 1987 ص15.

4- اللغة الثانية ص136 .

5- اللغة الثانية ص136.

6- عبد الفتاح رواس قلعة جي، علم الجمال الإسلامي، دار قتيبة للطباعة و النشر و التوزيع ط 1 /1411هـ-1991م ص109 .

7- الظاهرة الجمالية في الإسلام ص53 – 54 .

"إن علم الجمال المعاصر يعلمنا أن الفن المربح هو الفن الجيد، وأن هذا الفن ذاته يغـــدوا سيئا عندما يستنفذ طاقته كبضاعة " [1]، وهو يطرح خلفيات أزمة الجمالية المعاصرة مـــن جـــراء انفصال علم الجمال عن المضمون الهادف تحول إلى علم الجمال التجاري، "و من هنا فإن النقـــد الفني و علم الجمال عامة يتوقفان على السياسة الثقافية لبورصة الأوراق المالية، وهذا يـــؤدي إلى انحلالهما وانحطاطهما المتزايد وتحولهما إلى ثرثرة فارغة تنحرف عن مختلف الاستنتاجات، بالنســـبة للأعمال الفنية عامة، وتتحول إلى وصف جزئياتها أو خصائصها الشـــكلية، وهـــذا يـــؤدي إلى اللامبدئية المطلقة، وإغفال الدور الاجتماعي للفن." [2]

وهو ما عبّر عنه "رجاء جارودي" بعد أن تنقل في ردهات الفلسفات الجماليـــة الغربيـــة المعاصرة، بإفلاس الحضارة الغربية[3] أو الترهل الحضاري المعاصر، بسبب نضوب الروافد الجماليـــة من القيم الروحية التي تهبها روح البقاء و الاستمرار.

ومنه نخلص إلى أن مصطلح الجمالية في الفلسفة الوضعية المعاصرة امتداد للجذور الإغريقيـة بفرعيها المثالية الأفلاطونية، والمادية الأرسطية، ونلخص ذلك في النقاط الآتيـــة :

1. إضطراب و تذبذب المفاهيم والأفكار على مر العصور وفي البيئة الواحدة، بل وفي الفلســفة الجمالية الواحدة، أسفر عن ضبابية المنظور الفكري، وقصوره عن بناء مصطلح جمالي، مضبـــوط ودقيق و شامل، لتناقض مفاهيمه وتضارب أهدافه.

2. اتكاء الجمالية على تعددية محورية للمنظور الفكري نظرا لتشبعها، بالقيم الوثنية المبنية علـى صراع الإنسان مع الآلهة، وإقامة كل مصطلح جمالي على منظور جديد، بعد تقويـــض المنظـــور السابق، لأن الفلسفات الجمالية في بحث دائب عن رؤيا للعالم، إلى محاولة تفجير الرؤيا بالتحرر مـــن سلطة المنظور، فأقامت منظورا للعبثية، و التطرف والأحادية العمياء الضيقة.

3. جمالية الفكر الوضعي، فقدت هويتها، المضمون متحرر من الوعي إلى اللاوعي، من وجهـة نظر الفرويدية، والشكل متحرر من الواقع، أو خارج الواقع، من وجهة نظر السريالية.

1- دراسات في الأدب و المسرح ص72 .

2- المرجع السابق ص72.

3- عبد العزيز شرف،الأدب الإسلامي و مواكب النور،دار الجيل بيروت ط1/1993،ص197.

المطلب الثاني

مصطلح الجمالية في التصور الإسلامي

توطئة:

الوعي الجمالي يتطور تبعا لتطور البنية الفكرية للمجتمع ويتشكل ضمن المنظومة الاجتماعية في حلقة وصل متظافرة في سيرورة التاريخ الحضاري للأمم.

وجماليات الأمة العربية صورة صادقة عن البيئة الطبيعية وحياة البادية البسيطة التي نقلها لنا ديوان العرب " الشعر" التي تعكس امتيازا في فهم الجمال و تذوقه وصناعته البيانية، وربما لم تعرف احتفالا بإعجاز القرآن لو لم تكن في مستوى عال من الوعي الجمالي، الذي مكن الأمة العربية من شهود أعظم نهضة جمالية في التاريخ الإنساني، لارتباطها أساسا بالقرآن الكريم وهو«نفسه يعتمد (الجمالية) في الأداء لكي يؤدي وظيفته في الحدود القصوى التي أرادها له الله.» [1]

ومن ثم لا يمكن بأي حال الحكم على الجمالية الإسلامية من منظور وثني، جعل همه منصبا على تحقير واستصغار عطاءات وجهود الأمة العربية الإسلامية، ومحاولة نسب أي قيمة أو فضل في تاريخ الوعي الجمالي العربي إلى الإغريقي وذلك لقطع صلته بجذوره الأصيلة[2].

أولا : مصطلح الجمالية في القرآن الكريم

وردت في القرآن الكريم معاني كثيرة تدور في محور الجمال والحسن كظاهرة مطردة، تتجاوز النسق اللغوي والبعد الشكلي يحكمها تصور شامل للكون والحياة، ومركزا في الحديث عن آثاره[3] ووقعه في الوجدان في قوله تعالى ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[4]

1- عماد الدين خليل، مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، الشركة المتحدة للتوزيع بيروت ص 28 .

2- الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث ص 282 .

انظر مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي لبنان ص74.

3- الظاهرة الجمالية في الإسلام ص 115 .

4- البقرة 69.

وفي الآية « كشف عن معنى الجمال وهو أنه ما يدخل السرور على النفس، فالجمال هو ما يسر لكن هل يكون معنى ذلك أن الجمال ليست له مواصفات وهيئات خارجية يمكن أن تحدد ليتيسر لنا أمر اتخاذ قواعد معينة، تجلى وفقها أسرار القيمة الجمالية لنص ما ؟» [1]

هذا من جهة ومن جهة أخرى لو تتبعنا الاستعمال القرآني لفظ " الجمال " لوجدناه لم يتجاوز الثماني مرات، واحدة بصيغة المصدر والباقي كانت صفة وكلها في مجال الأخلاق باستثناء قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾[2]

هل محدودية استعمال القرآن لفظ الجمال، معناه تضييق مجالاته وقصرها على المجال الأخلاقي؟

أم أن الظاهرة الجمالية في التصور الإسلامي كلية وشاملة؟ لا يمكن تفسيرها من وجهة شكلية عن طريق إحصاء لفظي فقط.

ثانيا: المفهوم الاصطلاحي للجمالية الإسلامية عند المفسرين

وبطبيعة الحال مادام التفسير يدور على محور القرآن الكريم، نحاول تلمس جهود المفسرين في استجلاء مفهوم الجمالية من خلال آية سورة النحل ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾[3] .

والبداية مع الإمام القشيري[4] الذي له وجهة نظر صوفية في هذه الآية الكريمة مفادها أنّ «الغني له جمال بماله، والفقير له استقلال بحاله .. وشتان ما هما ! فالأغنياء يتجملون بأنعامهم حين يريحون وحين يسرحون، والفقراء يستقلون بمولاهم حين يصبحون وحين يمسون أولئك تحمل أثقالهم جمالهم، وهؤلاء يحمل الحق عن قلوبهم أثقالهم[5] وكأنه يوحي إلى الجمال الباطني في ارتباطه بالحق العلوي، وتنزهه عن أثقال المتع الدنيوية، والجمال الظاهري المتمثل في الأموال و الأنعام.

1- نظريات الإعجاز القرآني ص4 .

2- النحل 6.

- أنظر المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم م1 / أ.ص مادة جمال ص285.

3- النحل 6.

4- هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشير بن كعب، أبو القاسم أشهر كتبه التيسير في التفسير الأعلام ج4 ص57 ، وفيات الأعيان ج3 ص205-207.

5- القشيري، لطائف الإشارات، مركز تحقيق التراث الهيئة المصرية العامة للكتاب م2 ط2 /1981 ص286.

وبالنسبة للمدرسة العقلية نجد أبا بكر الرازي[1] ينظر إلى الآية من خلال ترتيب المنافع إلى قسمين مراتب ضرورية الغذاء والدفء والنسل (منافع مادية)، والمنافع غير الضرورية (التحسينية)«واعلم أن وجه التجمل بها أن الراعي إذا روحها بالعشي وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الإراحة وتسريح الأفنية، وتجاوب الثغاء والرغاء، وفرحت أربابها وعظم وقعهم عند الناس بسبب كونهم مالكين لها.» [2]

وهو في هذا الموضع التفت إلى ترتيب الجمال على نسق الأصوليين[3]فهو في مرتبة التحسينات التي تلي الحاجيات والضروريات و لم يلتفت إلى حقيقة الجمالية وهي «حقيقة تأخذ أبعادها كعنصر له من الأصالة والأهمية والرعاية، ما لغيره من الحقائق الأخرى إنه عنصر قد روعي اعتباره ووجوده في أصل التصميم ولذا فهو ليس في بناء الإسلام من النوافل والتحسينات التي يمكن الاستغناء عنها، إنه عنصر يدخل في تكوين المادة التي تصنع البناء نفسه » [4] وهذا التجزيء والتقسيم من مقتضيات المنهج العلمي، لأن التداخل والترابط بين الأقسام الثلاثة في الحياة الإنسانية يجعل الأمور التحسينية تشكل القمة المنشودة، التي يتنافس المتنافسون لبلوغها وفق عمليتي الإتقان والإحسان لبلوغ المستوى العالي من الكمال[5].

والزمخشري يفرق بين المنافع المادية والمعنوية التي يحققها الجمال وقرن بينهما في الأصل الواحد«من الله بالتجمل بها كما منَّ بالانتفاع بها لأنه من أغراض أصحاب المواشي بل هو من معاظمها لأن الرعيان إذا روحوها بالعشي وسرحوها بالغداة فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية

وتجاوب فيها الثغاء والرغاء أنست إليها أهلها وفرحت أربابها، وأجلتهم في عيون الناظرين إليها وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس.» [6]

1- الرازي هو الإمام الفقيه المفسر النحوي الأصولي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي البكري ولد في سنة 544ه وتوفي سنة 606ه ، وفيات الأعيان ج4 ص191.

2- تفسير الكبير ج 19 ص 233.

3- الشاطبي، الموافقات، المكتبة التجارية الكبرى مصر د.ط ، د.ت ج2 ص9-12.

4- الظاهرة الجمالية في الإسلام ص10.

5- الظاهرة الجمالية في الإسلام ص124.

6- الكشاف ج2 ص322 .

و يظهر اعتناء القرآن بالجانب الجمالي، في أثره في الحياة الإنسانية وسرعة تمكنه من القلوب، وفعالية الأثر النفسي الذي يوجه حركة المجتمع نحو الكمال والرقي، وهذه القيمة العالية والفهم العميق للجمالية القرآنية كان على يد سيد قطب في ربطه بين الجمال والحياة في تصور شامل .

فالجمالية «لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة، فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة، وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات، تلبية حاسة الجمال، ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع إلى ميل الحيوان وحاجة الحيوان .» [1]

ويظهر بجلاء تميز الجمالية الإسلامية من غيرها وأنها بعيدة كل البعد عن العشوائية، بل أن كل المظاهر تؤكد « أن الجمال عنصر مقصود في بناء هذا الكون، وأن صنعة الصانع فيها بديعة التكوين جميلة التنسيق، وأن الجمال فطرة عميقة لا عرض سطحي»[2] ويحركه في ذلك هاجس محوري هو التوصل إلى حقيقة الجمالية القرآنية ومنبع الأثر المعجز[3].

ومنهج سيد قطب في التفسير يختلف اختلافا جذريا عن مناهج المفسرين السابقين في اعتمادهم على تجزئة الآيات القرآنية، على ضوء المباحث اللغوية والفقهية والتاريخية« وأيا ما كانت تلك الجهود التي بذلت في التفسير وفي مباحث البلاغة والإعجاز، فإنها وقفت عند حدود عقلية النقد العربي القديمة تلك العقلية الجزئية التي تتناول كل نص على حده، فتحلله وتبرز الجمال الفني فيه – إلى الحد الذي تستطيع – دون أن تتجاوز هذا إلى إلى إدراك الخصائص العامة في العمل الفني كله.» [4]

وقد خطى خطوات باهرة في استخلاص مفتاح المنهج الجمالي في القرآن من خلال دراسة المراحل السابقة، مرحلة التذوق الفطري، المرحلة تعكس تأثير القرآن على النفوس، دون أن نجد تعليلا

1- سيد قطب في ظلال القرآن، دار الشروق ج14 ص2161.

2- في ظلال القرآن ج23 ص2983 - 2984 .

3- سيد قطب، التصوير الفني ص18.

4- المرجع السابق ص32 .

مقنعا، المرحلة الثانية، مرحلة إدراك مواضع الجمال المتفرقة،من خلال نظرات جزئية للآيـــة وتم في الأخير استكمال خصائص المنهج الجمالي مع مرحلة إدراك الخصائص العامـــة للجمـــال الفـــني القرآني[1].

وسيد قطب يعد من المنظرين الرواد للجمالية مصطلحا ومنهجا، فقد أكد علـــى أصالـــة وتمـــيز الجمالية الإسلامية في نبعها من صميم خواص القرآن، وأقام بروح استقلالية نقدية حصيفة مقـــاصد الجمالية على ضوء مقاصد القرآن.

ثالثا : مصطلح الجمالية عند المفكرين المسلمين

لا ريب أن القرآن أعظم رسالة جمالية توقظ مكامن الإحساس بالمنطق الوجداني، أعجـــزت أرباب الفن والجمال وشغلت المفكرين والنقاد والفقهاء المتطبعـــين بســـمة العصـــر، في تداخـــل التخصصات، حيث نجد ظلالا في كتب الفقه عن فكرة الجمال والقبح العقليين[2].

وأيضا الارتباط الوثيق بين الدراسات القرآنية والنقد في الدراسات الجمالية وقد كان الحافز المحـــرك هو فكرة إعجاز القرآن [3].

ومعظم هذه الدراسات،تتزع إلى المباحث التطبيقية الجزئية على الآيات القرآنية أو النصوص الأدبيـــة والوقوف على مواطن الجمال فيها.

ومن أهم الذين يتوضح في دراساتهم الخط التنظيري لفكرة الجمالية الإسلامية، "أبو حـــامد الغزالي"[4] حيث يفصل في إدراك الجمال بين الحواس الظاهرة والبصيرة الباطنة" فالبصيرة الباطنـــة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد إدراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالفعل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجـــل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ." [5]

1- صلاح عبد الفتاح الخالدي،نظرية التصوير الفني عند سيد قطب،شركة الشهاب الجزائر ص11-13.

2- انظر وهبة الزحيلي،أصول الفقه الإسلامي، دار الفكر ج1 ص116 – 120.

3- محمد زغلول سلام،أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري،دار المعارف ط3 ص16 .

4- وهو محمد بن أحمد الغزالي الطوسي الفقيه الشافعي ، أصولي ومتكلم وفيلسوف ولد سنة 450ه وتوفي ســـنة 505ه ، وفيـــات الأعيـــان ج4 ص216-218.

5- الغزالي،إحياء علوم الدين،عالم الكتب دمشق ج4 ص255 .

والدليل على اهتمامه بفكرة الجمالية،أنه عقد فصلا في بيان معنى الحسن والجمال تفصيلا وإيضاحا لأهمية تلازم الظاهر والباطن، وقيمة الباطن في جمالية الصورة" والصورة ظاهرة أو باطنة والحسن والجمال يشملها وتدرك الصورة الظاهرة بالبصر الظاهر، والصورة الباطنة بالبصيرة الباطنة، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذها ولا يحبها ولا يميل إليها ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب إليه من البصيرة الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة، أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشاً مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة، وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة ."[1]

وقد وفق توفيقا كبيرا في استعمال مصطلح الباطن والظاهر في تحديد الجمالية الإسلامية، فمن الناحية الوظيفية الظاهر والباطن أعم أشمل من الشكل والمضمون، وهما كوحدة خاصية أصيلة من خصائص المنهج الجمالي في الإسلام[2]، وهذا يؤكد تشربه لروح القرآن في قوله﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [3] وقوله ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [4] .

وعلى نفس النسق سار ابن القيم الجوزية[5] في تقسيمه الجمال إلى ظاهر وباطن وتأكيده على قيمة الباطن في إظهار الجمال" وهذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال "[6] فالجمال الباطن يعكس أثره على الصورة الظاهرة أما جمال الظاهر "فزينة خص الله بها بعض الصور من بعض، وهي زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾"[7] وقد توغل في بسط الارتباط بين الجمال الباطن والجمال الظاهر؛ والتأكيد على قيمة الباطن في إجلاء الجمال الكامل" فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر

1- إحياء علوم الدين ج4 ص258.

2- الظاهرة الجمالية في الإسلام ،ص209.

3- لقمان 20.

4- الأنعام 120.

5- هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الحنبلي الملقب بشمس الدين المعروف بابن القيم الجوزية، فقيه حنبلي اصولي ومحدث ولد سنة 691ه وتوفي سنة 751ه ، النجوم الزاهرة ج10،ص249 .

6- ابن القيم الجوزية،روضة المحبين،ونزهة المشتاقين،مطبعة السعادة بمصر 1956،ص220.

7- روضة المحبين و نزهة المشتاقين ص221.

ويستره "[1]وقد عقد فصلا في ذكر حقيقة الحسن والجمال وذلك لانشغاله العميق بهذه القضية[2] الفكرية و علاقتها بالسلوك الاجتماعي[3] دليل التزام الظاهر بالباطن إلتزاما لا يقبل نقض أحدهما للآخر، و يمتاز الباطن بالمحورية.

ويعد أبو حيان التوحيدي[4] من السابقين في التفكير في الجماليات الإسلامية بإعطائها العناية الفائقة في البحث عن المعايير الضابطة للحسن والقبيح "حتى لا يجور فيري القبيح حسنا والحسن قبيحًا، فيأتي القبيح على أنه حسن ويرفض الحسن على أنه قبيح، ومناشئ الحسن و القبيح كثيرة، منها طبيعي ومنها بالعادة ومنها بالشرع، ومنها بالعقل ومنها بالشهوة ،فإذا اعتبر هذه المناشئ صدَّق الصادق منها وكذب الكاذب وكان استحسانه على قدر ذلك. "[5]

وهو بهذا يحاول استخلاص مقاييس الحكم الجمالي أو الأسس الجمالية، الأساس الحسي (الطبيعي)، الأساس الاجتماعي (العادة)، الأساس الديني (الشرع)، الأساس الفكري (العقل) [6] والأساس النفسي (الشهوة) .

ويؤكد على امتياز الإنسان بالعقل والمنطق بالإضافة إلى القدرة الجمالية"بالأيدي لإقامة الصناعات وإبراز الصور فيها مماثلة لما في الطبيعة بقوة النفس" [7] ويشير إلى دور المنظور الفكري في جمالية الفنون والصنائع وعلاقته بالذوق الجمالي لأن "الذوق وإن كان طباعيا فإنه مخدوم الفكر، والفكر مفتاح الصنائع البشرية، كما أن الإلهام مستخدم للفكر والإلهام مفتاح الأمور الإلهية."

وللتوحيدي كثير من النظرات الجمالية في كتابه المقابسات،والهوامل والشوامل[8] تعكس تشرب التوحيدي للتصور الإسلامي في مفهومه للجمالية وربطها بمصدر الجمال، الحقيقة العلوية.

1-روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص 222.

2-روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص231.

3-روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص 222.

4- وهو علي بن محمد بن العباس التوحيدي،أبو حيان فيلسوف متصوف معتزلي، لسان الميزان ج7 ص45-46 ، الأعلام ج4 ص326 .

5- التوحيدي،الإمتاع و المؤانسة،منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ج1 ص150.

6- الأسس الجمالية ص140.

7- الإمتاع و المؤانسة ص43.

8- الأسس الجمالية في النقد العربي ص141-142.

ومن خلال ما سبق نلمس تمييز المفكرين الإسلاميين في فهم الجمالية على ضوء القرآن الكريم، وفق منظور شامل للإنسان والكون والحياة، ويستمد حقيقته ووجوده من خلال الاتساق بين الظاهر والباطن، والجمال الباطن أرفع قدرا من الجمال الظاهر، ولا يعتدّ بظاهر منفرد عن باطنه[1]، بل يعكس الانحراف عن التصور القرآني للجمالية كمقوم ارتفاع وسمو عن القشور والسفاسف، و في هذه الحالة يؤدي الإنفصال بين الظاهر والباطن إلى اختلال في النفس والمجتمع فهذه الخاصية الأصيلة من شأنها المحافظة على دعائم المنهج الجمالي الإسلامي، وتأكيد هويته الثابتة المنزهة عن النقص لأنها مرتبطة بتصور شامل لمتطلبات الإنسان وأشواقه الروحية في كل زمان ومكان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- الظاهرة الجمالية في الإسلام ص218-220.

- أنظر محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق ط6 /1403ه - 1983م ص29.

- سمير الصايغ، الفن الإسلامي، دار المعرفة بيروت لبنان ط1 /1988 ص29.

- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي ص37.

المطلب الثالث

الجمـــالية منهجـا

توطئة:

ورغم الفتوحات الكبيرة التي عرفها المسلمون في مختلف أبواب العلوم والمعلوف إلا أن البحث الجمالي لم يظهر في مؤلفات مستقلة [1] هل معنى هذا أن الدين مناهض للتفكير الجمـالي؟ أم أن طبيعة الجمال وطبيعة الدين ينفصلان بالضرورة ؟! أم أن الأمر إدعاء مجانب للصواب لإفراغ الجمالية من محتواها الحضاري، ودعاية مموهة لتمرير مناهج الفلسفة الوضعية للاستهلاك الواســـع على أساس أنها الحاضرة الجمالية الوحيدة بترساناتها التقنية المتفوقة .

وهل هناك تفسير علمي للشبهة المقزمة للوعي الجمالي الإسلامي ؟! و مـــا هـــو مصـــدر الجمالية الإسلامية وما هي أبعادها ؟! و كيف السبيل لبناء نظرية شاملة، لصوغ منهج تطبيقـــي محكم لدراسة الآثار الجمالية ؟! و أين تكمن قيمة المنهج الجمالي وفق التصور الإسلامي في دراســة قصص القرآن عامة ؟ و قصص أولي العزم خاصة ؟!

ومنه نحاول إيجاد تفسير علمي من شأنه تسليط بعض الأضواء علـــى ملامـــح الجماليـــة الإسلامية تصورا ومنهجا .

وإن انطلقنا من شبهة القائلين بعدم وجود تفكير فلسفي تنظيري قائم بذاته عن الجماليـــة؛ فلا مجال للمقارنة بين الفلسفات الجمالية في الفكر الوضعي وجمالية تستند إلى تصور إلهي ثـــابت

1- النظريات الجمالية ص 24 .

- أنظر نجيب الكيلاني،الإسلامية والمذاهب الأدبية،مؤسسة الرسالة ط3/1403هـ ،1983م ص8-9

الدعائم، ومكمن التفاوت أن الفلسفات الجمالية الوضعية التي تمتد جذورها إلى العهد الإغريقي انطلقت من هاجس رئيسي هو حيرة البحث الدائب عن منظور لحقيقة الجمال؛ وهذا تفسير التراكمات الفلسفية التي تعبر عن الانشغال العميق بإيجاد تصور أشمل من سابقه يملأ ثغرات الفراغ الروحي والقلق الفكري .

وقد تتبعنا في البداية كيف أن كل فلسفة جمالية في باطنها محاولة لإيجاد رؤيا للعالم، وبما أن المنظور وضعي بشري يحمل دائما عجزه وقصوره عن الإلمام بكل جزئيات الكون والحياة والإنسان، نتجت عنه نظرة قاصرة لا تملك التفسير الصحيح والعلمي، وأسفرت عن انتكاسات فلسفية متكررة، في رحلة البحث عن منظور يحقق وجوده بنقض سابقه، ولو قمنا بوزن هذا التراث الفلسفي الجمالي لوجدنا قيمته الأرشيفية موجودة، ولكن لم تنجح في الوصول إلى منظور شامل يمدها بأسباب الوجود الحقيقي والفعال.

أما الجمالية الإسلامية فلم تكن بحاجة إلى تخبطات فكرية، تنتج ركاما فلسفيا لجماليات تقبح بعضها وتنقض أسسها على مر التاريخ؛ فقد وجدت دعامتها في تصور إلهي شامل للكون والحياة والإنسان "فالإسلام يقدم للناس كافة نظرة جمالية مستقرة ثابتة يتلقاها الإنسان في المجتمع المسلم منذ نعومة أظفاره في البيت والمسجد والمعهد، وسواء كان يعي المسلم النظرة الجمالية وعيا فلسفيا أم لم يكن فإن القضية كانت تربية ونشأة وعقيدة وإيمان، تجري في دمه وتنمو في فطرته وطبيعته يعيها ويحس بها وقد لا يقوى على التعبير عنها "[1]

أولا : مصادر الجمالية في التصور الإسلامي

مصدر الجمالية الإسلامية القرآن الكريم، ويضم بين دفتيه التصور الأكمل للكون والحياة والإنسان، مصدقا للكتب السابقة ومتفوقا عليها بالإحاطة والشمول والثبات من جهة ويعتمد الجمالية منهجا من صميم التصور في الأداء والتبليغ، وهذا الوصال بين الدين تصورا والجمالية منهجا يتسق مع الناموس الكوني العام وأي انحراف عن التصور هو تشويه لحقيقة الجمال، والعلاقة بين الدين والجمال مركوزة في الفطرة "هذه العلاقة عمادها وحدة الهدف ونظافة الوسيلة والفن

1- الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ص263

الذي يعمل تحت مظلة الدين وتوجيهه لا ينحرف عن الجادة أو يتصادم مع طبائع الحياة ونواميسها. »[1]

والدليل على هذا الارتباط أن التأريخ للفكر الجمالي كان متصلا بالمعتقد الديني [2] فليس غريبا أن تستمد الجمالية وجودها وهويتها من التصور الإسلامي، الغريب أن تستورد لبوسا يضيق بمحتواها ويقبح جمالياتها ويجمل المضامين المحرفة عن تصورنا وبيئتنا.

فالذين افتعلوا الخصومة بين الجمال والدين لقطع اتصالنا بمصدر جمالياتنا تعمدوا تصدير مع كل مذهب جمالي وثنا جديدا، والآن وقد سقطت مغالطة فصل الجمال عن الدين لسقوط حجيتها في الواقع، وقيام دعوات جديدة لبعث التراث والإقرار بتعددية الثقافات بعد ضمور ثقافة (الأنا)، والآن بعد أن أيقن المنصفون باستحالة الفصل بين الجمال والمنظور الإيديولوجي[3] صار لزاما من المضي قدما في إرساء الجمالية الإسلامية منهجا بديلا يحمل التصور الصحيح للإنسانية المتعطشة التي تعبت من الدوران حول نفسها دون طائل .

ويمكن إرجاع عدم وجود بحوث فلسفية مستقلة بالتفكير الجمالي، إلى الصلة القائمة بين بحث الجمال و الفلسفة، حيث أدت إلى نفور العلماء من التخصص في بحث الجمال، لأن الاتجاه إلى الفلسفة مذموم.

النظرية الجمالية إذ لم تظهر بشكل منهجي مستقل ومتخصص، فهي مبثوثة كمادة خام في مصادر متنوعة لم يعرفها الفكر الجمالي الوضعي، والمصدر الأول بطبيعة الحال القرآن الكريم ثم العلوم التي نشأت في منطلق البحث في جمالياته المعجزة، التفسير والعلوم اللغوية والنقد، وانصهرت في بوتقة الدراسات القرآنية مشكلة اتجاها جماليا غير مسبوق يدور في محور الإعجاز القرآني، وهذا دليل قاطع على التفاعل البناء بين الفكر التنظري للجمالية الإسلامية وبين الفكر التطبيقي في توجه النقاد وأهل البلاغة والمفسرين لسبر غور أعظم الأسرار الجمالية في كتاب ديني عرفته الإنسانية [4] لأن مفهوم الجمالية لم يستقل عن الطابع الديني.

1- نجيب الكيلاني،آفاق الأدب الإسلامي،مؤسسة الرسالة ط1/ 1985 ص40.

2- علم الجمال الإسلامي ص109.

- منهج الفن الإسلامي ص22-23.

3- اللغة الثانية ص136.

4- أثر القرآن في تطور النقد ص361.

وعلى قدر ما كان اتجاه المفسرين إلى الجمال الباطن، انشغل أرباب البلاغة والبيان بالجمال الظاهر في التراكيب والصيغ اللغوية" واستخلاص القواعد والمقاييس من نماذجه الرائعة وإن كان القرآن في سموه وإعجازه فوق كل القواعد والمقاييس"[1] على العلم أن نظرة التهيب من جلال النص القرآني، والدهشة من قوة أثره وروعة جماله وقدسية مصدره قد وسمت التفكير الجمالي بالتدرج المرحلي، من الذهول والعجز عن تعليل الجمال في بواكير تنزله لحداثة العهد بسحره، إلى محاولات ومقاربات إدراك وتعليل الجمال في الآيات المتفرقة، إلى مرحلة إدراك الجمال الكلي[2] من خلال رصد السنن العامة والقواعد المضبوطة والظواهر المطردة، لأن المقدس في الجمالية الإسلامية "هو المبدأ ، المقدس هو السنن والقوانين والنظم التي تحكم الكون وما وراء الكون "[3] وبالتالي فإن المقدس في النص القرآني الدافع لإدراك القوانين والقواعد الكلية كمجال حيوي لاستكناه الأبعاد السياسية لمنهج محكم للدراسة الجمالية.

وعندما برزت قضية اللفظ والمعنى في الكتب النقدية، كان الباعث المحوري؛ مكمن الإعجاز هل هو في أسلوبه أم في محتواه، أم خارج النص ؟! وذلك القول بالصرفة وهو نزوع عبثي ساذج لتخريب النظام الجمالي القائم على منطق معلل بمعايير ثابتة من بنية النص، وما يحمل من روابط وعلاقات سياقية في الداخل والخارج.

وأهم قيمة نسجلها أن التروع الباطني والتروع الظاهري في استكناه الجمالية القرآنية لم يعرف التناقضات بل اتخذ طابع التنافس العلمي الهادف للوصول إلى الحقيقة العليا، وليس طابع الصراع الثنائي القائم على نقض الآخر، وهذا أثر الانصهار والتوحد في التصور الإسلامي الذي "انطبعت فيه جميع النشاطات الحضارية في المجتمعات الإسلامية، ومن هذا البناء المعرفي الشامل والموحد تنبثق الفنون الإسلامية بجمالياتها التي تنظمها الوحدة في التنوع، كمظهر ومجتلى للمعرفة الإسلامية "[4]، هذا التنوع يؤدي إلى التكامل في حلقات متواصلة، وهو مقوم ثابت.

1- مجموعة من المؤلفين، الأدب الإسلامي المفهوم والقضية، دار الجيل بيروت ط1 /1412 ص82.

2- أنظر التصوير الفني ص32.

- نظرية التصوير الفني عند سيد قطب 11-13.

3- الفن الإسلامي ص191.

4- علم الجمال الإسلامي ص49.

وبالتالي التروع الظاهري للبلاغيين في وقوفهم على جماليات القرآن الشكلية، لم تقم على أساس نقض الباطن، بالعكس تنطلق وتخلص من تشرب المحتوى وتعزيز لجانب الباطن ومنه سارت الدراسات القرآنية على الخط البلاغي الظاهري ليس بمنطلق تصوري جديد في إنكار الباطن، بل من منطلق اجتهادي علمي بحت،محكوم بالوسائل المتاحة في البيئة الثقافية، ونلمس ذلك في انتباه الرواد القدماء إلى تعدد أوجه الإعجاز القرآني محاولين حصرها ثم يكون التفصيل والعناية بالجانب الشكلي الظاهري.

وحتى عبد القاهر الجرجاني رغم جهده النفيس لإبراز قيمة الوحدة بين الظاهر والباطن في تفسير ظاهرة الإعجاز القرآني، عن طريق نظرية النظم أي نظام العلاقات في بناء الألفاظ على المعاني، فقد كانت الصبغة الشكلية ظاهرة في التطبيق[1] وأهم نقطة أن عبد القاهر أراد أن يكون له منهجا نقديا خاصا[2] أثر تأثيرا كبيرا في التفسير، وظهر ذلك في الكشاف عن حقائق التنزيل وفي النقد عموما كدائرة منفتحة على الإنجازات الجمالية الإنسانية[3].

واستفاد سيد قطب من جهود السابقين في بلورة منهجه في فهم أسرار الجمالية القرآنية، فهما كليا للقواعد والظواهر والآثار، من خلال التأكيد على الدراسة العمودية المعمقة، وطبق تنظيراته الجمالية في كتاب التصوير الفني على تفسير الظلال، حيث كان سباقا" لبيان الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم وعرض التناسق الفني في أسلوبه وصياغته، والتناسب الموضوعي في دروسه ."[4]

ويظهر اجتهاده المبتكر في إبراز قيمة التصور الشامل للكون والحياة، في الجمالية الإسلامية موضحا الفرق من خلال عرضه للمذهب المثالي، " إن المثالية أحلام تظل أحلاماً لأنها تتطلع إلى عالم غير منظور وغير مطلوب تحقيقه، إذ هو بطبيعته غير قابل للتحقيق في عالم الأرض، أما الإسلام فهو حركة إبداعية لتحقيق تصور معين للحياة، قابل للتحقيق، وفي طبيعة النفس البشرية استعداد لتحقيقه، حين تستجيب لدعوته وحين تتأثر به تأثرا إيجابيا لا يكتفي بالمشاعر والشعائر." [5]

1- د.أحمد رحماني،نظرية الإعجاز القرآني،مكتبة وهبة القاهرة ط1/1998ص129.

2- عبد الفتاح الديدي،الأسس المعنوية للأدب،دار المعرفة ط1/1966.

3- أثر القرآن في تطور النقد الأدبي ص 357.

4- صلاح عبد الفتاح الخالدي،في ظلال القرآن في الميزان دار الشهاب ط1/1986 ص406.

5- سيد قطب،في التاريخ فكرة ومنهاج،دار الشروق،1995،ص23.

وبالتالي تحقيق التصور يتطلب منهاجا محكما ولا يمكن صياغة منهج رصين، إلا بالاستناد إلى مصادر ثرية تغني روافده، ومصادر الجمالية الإسلامية، تدور على محور القرآن الكريم، وهو أم المصادر ثم التفسير والدراسات القرآنية، والنقد في انفتاحه على الإضافات الإنسانية المتجددة.

ثانيا : الأبعاد الأساسية للمنهج الجمالي

بعد أن تبينت لنا المصادر، ما هي الأبعاد الأساسية للجمالية وفق التصور الإسلامي؟

بما أن منهج الجمالية الإسلامية، يمكن صياغته من خلال التصور كمحور ثابت، تدور على فلكه ثلاث دوائر، دائرة التفسير دائرة الدراسات القرآنية، ثم دائرة النقد في اتساعها على حقل الإبداع الإنساني المتنوع، ومن ثمة تستمد الجمالية الإسلامية أبعادها من المحور الثابت، ووسائلها من الدوائر المتلاقحة تأثيرا وتأثّرا.

والبعد "إمتداد قائم بالجسم أو بنفسه عند القائلين بالخلاء كأفلاطون، والبعد ضد القرب، وليس لهما حد محدود وإنما ذلك بحسب الاعتبار يقال ذلك في المحسوس، وهو الأكثر وفي المعقول"[1] أما علماء الكلام" فقد جعلوا البعد امتدادا موهوما، مفروضا في الجسم، أو في نفسه ،صالحا لأن يشغله الجسم "[2]

وعلى هذا الأساس نصل إلى أن الأبعاد الأساسية للمنهج الجمالي، هي إسقاطات عملية ممتدة من التصور النظري بما أن البعد هو الامتداد، وتعكس حيوية المنهج وفعاليته، وهي ثلاثة: البعد العقدي ،البعد الاجتماعي،البعد الحضاري .

أ- البعد العقدي

إستناد الفلسفة الوضعية على تعددية المحاور نتج عنه تناقض، في المعايير الجمالية،واضطراب المناهج وتضارب المذاهب، أما الجمالية الإسلامية، فقد أنتجت عن التصور الواضح الشامل معايير

1- محمد عبد الرؤوف المناوي،التوقيف على مهمات التعاريف، معجم لغوي مصطلحي، دار الفكر المعاصر،بيروت لبنان ط1/1410هـ 1995م ص136.

2- جميل صليبا،المعجم الفلسفي،بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني،بيروت لبنان مكتبة المدرسة1982، ج1 ص213.

ثابتة تستوعب الإنسان والكون في الحياة، تدور كلها على محور واحد،الإيمان بالله، وهي وحدة قياسية عامة على كل المعمورة تشترك فيها الفطرة الإنسانية، من خلال الديانات التوحيدية، ويمثلها الإسلام أكمل تمثيل؛" وإنه تصور يسعى لتحقيق بأكبر قدر من الوفاق والتناغم، بين الإنسان والوجود، وخلق إيقاع موحد، بين كافة الأطراف التي يحتويها الكون، ويضم جناحيه عليها، التحقق –كذلك – بأكبر قدر من الحضور في قلب الطبيعة والعالم، وصولا إلى الله، الحقيقة المطلقة والجمال الكامل." [1]

والبعد العقدي، هو البعد الأولي الذي يندرج تحته البعد الاجتماعي،في اتساق وتناغم.

ب- البعد الاجتماعي

وظف محمد طول البعد الاجتماعي في دراسة الشخصية [2]باعتبار التلازم بين التصور النظري والفعل الاجتماعي، والإيمان بفعالية الحركة[3]،"وحين تستقر العقيدة الإسلامية في الضمير البشري، استقرارا حقيقيا، فإنه يستحيل عليها أن تبقى ساكنة،يستحيل أن تظل مجرد شعور وجداني في أعماق الضمير،إنها لابد إن تندفع لتحقيق ذاتها في عالم الواقع ولتتمثل حركة إيجابية إبداعية في عالم المنظور،حركة تبدع الحياة كلها،وما ينشأ عنها من ألوان وأطياف، وتعمير."[4]

وهذا يتحقق من اتساق الباطن والظاهر، في وحدة منسجمة، فلا قيمة لتصور لا يصدق في واقع الحياة[5] "وتتبدى هذه الثمرة في فكر جمالي، وتصورات، وقيم، ومثل عليا جمالية، تقع جزءا من البناء الثقافي للمجتمع، وهو البناء الذي يعكس طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة في هذا المجتمع، ومستوى تطوره، وما دام البناء الثقافي محكوما باتجاه (فكري) عام معبر عن الأوضاع والعلاقات، التاريخية الاجتماعية، فإن ثمرة الصلة الجمالية محكومة بذات الاتجاه" [6]، تأثيرا وتأثرا، استمدادا وعطاءا "فالدين الجديد كان أسلوبا من أساليب الفكر، ونمطا من أنماط السلوك،فكان

1- عماد الدين خليل؛ مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي؛ الشركة المتحدة للتوزيع؛ ص،ب 746بيروت ص 176 .

2- البنية السردية في القصص القرآني ص 70-71.

3- انظر نهج الفن الإسلامي ص 44.

4- في التاريخ فكرة ومنهاج ص23.

5- النظريات الجمالية ص 26 .

6- عبد المنعم تليمة،مداخل إلى علم الجمال الأدبي؛ دار الثقافة الطباعة والنشر القاهرة 1978ص34 .

لابد له أن يترك آثارا في الحياة الفنية التي تتوج الحياة النفسية للناس، وتتمثل لأعمق منازعها وتطلعاتها "[1] كقوة مؤثرة في حياة المجتمع الجديد .

جـ- البعد الحضاري

الجمالية الإسلامية مبدئية تصورا،وبذلك تحافظ على الهوية الحضارية للأمة لأن"الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة "[2]، والجمالية الإسلامية ببعديها العقدي والاجتماعي" أوسع نظرة جمالية منفتحة على الإنسان المسلم، إنسان كوني لا تحدّه حدود الإقليمية أو العنصرية أو حتى الأرضية!! "[3] في حركة دائبة من أجل التأثير والتغيير، لم تكن على مر التاريخ مجرد بحوث نظرية أو مساجلات فلسفية، بل حركة بناءة شاملة، وبصمات المفكرين الإسلاميين النوعية والمتميزة شاهدة على التطور الحضاري المعاصر"ولولا الحرية المسؤولة التي كفلها الإسلام تنظيرا وتطبيقا لما كان لهذه الإبداعات العقلية والتحليلية ذلك الوجود القوي المؤثر." [4]

لأنّ قيمة الجمالية الإسلامية ليست في الانزواء والتقوقع، بل في الانفتاح الهادف على الثقافات بحصانة التصور الثابت الذي يمدها بأسباب البقاء ومقومات التأثير، ويكفل لها إيجابية التلاقح الثقافي الهادف بما يعلي جانب التصور الإسلامي ولا يجعله محل نقض،جمالية خصبة" بانفتاحها على شتى المذاهب الفنية مادامت منسجمة في اتجاهاتها وتفاصيلها مع الكون والإنسان الإيجابية في سبيل الحق والعدل الأزليين،وفي إطار الجمال المبدع بعيدا عن التزييف والكذب والتناقص." [5]

وهذا ما فعله المفكرون الإسلاميون منطلقين من هذه القيمة الباهرة بوزن الثقافة اليونانية والفارسية والهندية، بميزات التصور الإسلامي فلا نلمس احتذاء أعمى أو انزلاقا إلى القيم الوثنية

1- شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين ط5/1981/ص322.

2- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر 1986/ص94.

3- عماد الدين خليل، في النقد الإسلامي المعاصر، مؤسسة الرسالة ص39-40.

- عماد الدين خليل، الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي، مؤسسة الرسالة ط2 /1401-1981ص81 .

4- آفاق الأدب الإسلامي ص97-98.

5- في النقد الإسلامي المعاصر ص40.

"من خلال تقدير لطبيعة الفكر الأصيل المفتوح على قيمه وقواعده والمتصل بكل ما يترجم إليه من الفكر البشري دون أن يجعله مسيطرا عليه أو يترك له التأثير الذي يشوه ذاتيته ومفاهيمه[1]".

والفكر الجمالي الإسلامي لم يكن ناقلا وسيطا بل امتاز بالإيجابية في التقويم والتصحيح بالمنطق العقلي والتجربة العلمية للخرافات التراث الإغريقي وتقديمه للحضارة الغربية في أروع حلة،" وبالنظرة العادلة نفسها نقول أو ليس من الخطأ أن نقيس الحضارة العربية بمقياس الحضارة الإغريقية ذاته، وأن نتهمها – كما هي الحال حتى الآن – بنقض فلسفتها العالمية، أو أن نصفها بأنها محاكاة للحضارة الهيلينية ؟ إن الحضارة العربية المبتكرة لم تأخذ عن الحضارة الإغريقية أو الحضارة الهندية إلا بقدر ما أخذ طاليس أو فيتاغورس من الحضارتين البابلية والمصرية،لقد طور العرب، بتجاربهم وأبحاثهم ما أخذوه من مادة خام من الإغريق وشكلوه تشكيلا جديدا"[2]وهذا بفضل الرؤيا الإسلامية التي صبغت جهودهم بصبغة حضارية لها خصوصيتها والتي حاولت الحضارة الحداثية المعاصرة طمس معالمه في سيادة فلسفية جمالية عنصرية تثبت وجودها على نقض الآخر.

ومنهج الجمالية الإسلامية لابد أن يحمل الهوية الحضارية" هوية لابد من أن تنحدر من الرؤيا الشاملة، أو من الفلسفة الجمالية الكلية، وهي بالضرورة رؤيا وفلسفة مستقبليتان، ذلك أن الخصوصية الكبرى التي يتميز بها الفن الإسلامي التراثي إنما تنبع من مثل هذه الرؤيا ومن مثل هذه الفلسفة" [3] ولكل جمالية خصوصيتها [4] التي تطبعها بالبقاء أو الفناء.

ومن ثمة ارتقت الجمالية في المنظور الإسلامي إلى " أداة اختبار لقدرة الإنسان على الفحص والتمحيص على تجاوز الشكل الخارجي للأشياء وصولا إلى الجواهر على عدم السكون عند الواجهات الجميلة وتجاوزها إلى الداخل لمعرفة طبيعة البضاعة هناك على القدرة على التحرر

1- خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث ص400-401.

2- زيغريد هونكة،شمس العرب تسطع على الغرب،دار الآفاق الجديدة بيروت،ط 5/1401/1981ص400-401.

- انظر فهمي الهويدي،القرآن والسلطان،هموم إسلامية معاصرة،دار الشروق ط2/1402 ه 1982/ص61-62.

- انظر عبد الحليم محمود،التفكير الفلسفي في الإسلام،دار الكتاب اللبناني،مكتبة المدرسة بيروت 1402ه-1982م ص14.

3- الفن الإسلامي ص32.

4- شروط النهضة ص102.

من الإغراء والخضوع للزينة لكي يكون الإنسان هو يمتلك حريته تلك أكثر فعالية وعطاء وأعمق بتجرده هذا ارتباطا بأسباب السماء »[1].

ومع ضرورة مراعاة الهوية الحضارية في الانفتاح على الثقافات بمنطق القوة المنتجة والندية الإنسانية لا بنطق عقد النقص و التبعية العقيمة ولابد من معرفة تراثنا الجمالي وثقة بمردودنا الحضاري والاعتداد بالنماذج الأصيلة في استمدادها من التصور الثابت، وعدم تقنين الشاذ والدخيل في صياغة منهج الجمالية الإسلامية والاستفادة من الدعوة لاستلهام التراث ببعث تراثنا الجمالي المتميز وبلورة خصوصيته الحضارية في منهج متميز في إحاطته بالأبعاد، وثرائه بالوسائل وقدرته على تتبع الآثار الجمالية دراسة ونقدا وتقويما .

ثالثا: قيمة الجمالية منهجا:

بعد أن توضحت لنا الأبعاد الأساسية لمنهج الجمالية الإسلامية . ما هي قيمة الجمالية منهجا ؟!! وما هي دواعي وجوده ؟!

بناء على ما سبق إن عملية التأريخ للجمالية الإسلامية وفق مناهج مبتورة عن سياقها المعرفي وخصوصيتها الحضارية أدت إلى قطع صلتها بالرحم الجامع، وظهورها بصورة مقزمة وهزيلة عاجزة عن الإضافة إلى الحضارة الجمالية المعاصرة .

هذه المناهج الدخيلة سعت إلى تفتيت العطاء الفكري الإسلامي وتجزيء نواته أجزاء متناثرة ليفقد قيمته الكلية الجامعة، وتضييع الثقة في وجوده، وفعاليته.

وبالتالي كانت الخطوة الثانية تحصيل حاصل في التهافت على استيراد المناهج الجمالية النابعة من الفكر الوضعي الوثني، حيث تشربوا المضامين الفكرية المنحرفة مع الأشكال الجمالية[2] وحدث الشرخ الكبير في إبعاد الجماليات المستوردة عن غربلة التصور الإسلامي، التي حملت في باطنها السموم الفكرية الهدامة لدرجة محاولة إلحاق الدراسات القرآنية بمناهج بعيدة عن بنية النص القرآني، لضرب المحور الثابت ونقض المقدس، وإقامة نصب الجمالية وثناً مقدسا لا يناقش ولا يرد

1- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي ص35-36.

2- آفاق الأدب الإسلامي ص25.

وإذا كانت دعوة أشياع الفكر الوضعي من أجل تحرير الجمالية الإسلامية من عقم القديم البالي، فلماذا بالمقابل يكون الوقوع في قيد فكر أجنبي؟ لماذا يكون على حساب الهوية الحضارية للأمة ؟!

هذه المناهج الجمالية قد سطرت بناءً على منظور وثني في بيئة مختلفة كل الاختلاف عن الجمالية القرآنية[1]، ونلمس طغيان نظرة التشكيك في إمكانيات الجمالية الإسلامية المنهجية، بحيث تقاعست العزائم عن ممارسته وتمثله تمثلا كاملا؛ لإعطاء البديل عن جماليات الزيف والتمزق والتخبط الأعمى، وقد جربنا حقبا استيراد المناهج الدخيلة وما استقام سيرنا "ولا استطعنا أن نستوعب المناهج المستوردة لأن استيرادها أمر يتنافى مع طبائع الأشياء ويتناقض مع عقيدتنا السمحاء الكاملة التي تجافي والركود، وتمقت العصبية والجشع، وتربط بين الدنيا والآخرة وتوضح العلاقة المقدسة بين الخالق والمخلوق وتجعل التوحيد فكرا وسلوكا وشعارا."[2]

ومع تساقط المناهج الجمالية الوضعية واحدا تلو والآخر والإقرار بالتعددية الثقافية والدعوة إلى استلهام التراث بعد أن فشل منهج الإقصاء والتجير الحضاري، لابد من الرجوع إلى تراثنا الجمالي الزاخر والاتصال بالمحور الثابت في صياغة منهج بديل يستوعب تغيرات العصور ويواكب حركة التاريخ، لأن التعارض بين مصدر الفكر الجمالي الوضعي وبين الفكر الجمالي الإسلامي أصيل وعميق، الأول وثني مائع والثاني توحيدي ثابت الأركان ويستحيل الجمع" بين هذين المصدرين في استقاء أصول حضارتنا وقوميتنا الفكرية المعاصرة، ولم نلتفت إلى أن التعارض أصيل فيما بين هذين المصدرين، وأن جوهر العمليتين مختلف ومتضارب، فالتكوين المتكامل لثقافة حية لا ينشأ عن ازدواج في الطبيعة والمنهج وفي الروح والنمط."[3]

لابد من إعادة استلهام التراث الفكري،بنظرة تقويمية لفرز الأصيل من الدخيل وعدم تقنين الطفرات الشاذة وإغفال الظواهر العامة المتكررة،واستمداد الوسائل بغربلة الرصيد الجمالي،

1- خصائص الأدب العربي ص60.

- انظر محمد النويهي،وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي،مطبعة الرسالة 1966-1967 ص211 .

2- آفاق الأدب الإسلامي ص63.

3- الأسس المعنوية ص212.

و الاستفادة من الدوائر الثلاثة؛ التفسير والدراسات القرآنية وخاصة"كتب الإعجاز" والنقد في انفتاحه على الجهود الإنسانية عامة مع وضع الوسائل على محك التصور الإسلامي[1].

الجمالية الإسلامية ترفض الانغلاق الساذج لأنها ذات« إطار كوني ملتزم إنساني إيماني وثوري، توحدي وأخلاقي إيجابي وكما يعبر الإسلام عن مرونته الفنية في قضية المحتوى الفني فإنه يملك ذات المرونة في مسالة "الشكل" فهو مفتوح للتعبير عن التجربة الفنية بأي وسيلة كانت الكلمة، الصوت، الحركة، التشكيل ضمن الإطار الذي يرتضيه، ذلك أنّ إحدى معجزات القرآن الكريم نفسه تقديمه أمثلة عليا للأداء الفني الذي يعتمد الكلمة الموسيقى والصورة الفنية وحدة متجانسة رائعة التعبير عن مثل إلا هي أعلا للعطاء الفني »[2]

نخلص إلى أن الجمالية منهجا في الفكر الوضعي لا تصلح منهجا لدراسة وتقويم الإنجازات الجمالية الإنسانية البعيدة عن منظورها العقدي وبيئتها الاجتماعية وهويتها الحضارية ناهيك عن النص القرآني كمصدر علوي مقدس منه تستمد الأصول والقواعد الجمالية مثلما فعل أسلافنا الأعلام ولا يجدر ولا يصح أن نطبق مناهج جمالية غبشاء ضبابية على الشمس الساطعة التي يستقي منها الكون النور والضياء.

لا بد من منهج جمالي من طبيعة النص يتناسب مع أبعاده ومقاصده فلكل لبوسه المناسب لمقاسه فلو زاد أو نقص كان عكس المطلوب

وبالتالي فإن نتيجة النتائج من هذا المبحث: أن الجمالية منهجا وفق التصور الإسلامي تتناسب مع منهج القرآن في عرض القصص ومنه سنحاول تطبيق هذا المنهج في دراسة قصص أولي العزم وخلال الدراسة التطبيقية تتجلى قيمة الجمالية منهجا من صميم التصور الإسلامي .

1-محمد حسن بريغش، في الأدب الإسلامي المعاصر، مكتبة المنار الأردن ط2/ 1985 ص50-51.

2 -في النقد الإسلامي المعاصر ص42.

نتـــائج الفصـــل الأول

أولا: أسفر التحقيق في هوية أولي العزم من الرسل عند تحديد للفئة المقصودة بالصيغة، وهـــي متعلقة بشخصيات الأنبياء الخمسة عليهم السلام، الذين ذكروا في آيتي الأحزاب والشورى، وهـم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلات والسلام جميعا .

ثانيا :القصص القرآني سابقة تاريخية ثابتة ،وسابقة فنية معجزة ،لا يملك أي أثر في تجاوزهـــا، ومن ثمة لا يمكن إخضاع منهجه للمقاييس النقدية البشرية، فالقصص القرآني هو المصدر للمنـاهج البشرية وليس العكس .

وهذا لا يمنع من استثمار الجهود الإنسانية في التفسير والدراسات القرآنية والنقد، بتسخير التقنيات والوسائل للكشف عن جماليات القصص القرآني، بما يناسب طبيعتها ويحقق مقاصدهـــا، وهـذا يتـجسد فـي المنهـج الجمالي في شموليتـه واستيعابه، لا سيما التقـنيات المستنتجة مـن القصـص القرآني نفسه .

ثالثا : جمالية الفكر الوضعي في اعتمادها على تعددية محورية للمنظور الفكري، المتشبعة بـالقيم الوثنية، المبنية على صراع الإنسان مع الآلهة، فشلت في بناء مصطلح جمالي مضبوط ودقيق وشامل، نظرا لتناقض المفاهيم، وتضارب الأهداف ولذلك لا تصلح نموذجا يقاس عليه القصص القرآني .

أما منهج الجمالية الإسلامية فيمكن صياغته من خلال التصور كمحور ثابت، تدور على فلكـــه ثلاث دوائر؛ دائرة التفسير، دائرة الدراسات القرآنية ثم دائرة النقد في اتساعها على حقل الإبـداع الإنساني المتنوع، ومن ثم تستمد الجمالية الإسلامية من المحور الثابت، ووســائلها مـن الدوائـر المتلاقحة تأثيرا وتأثرا .

الفصل الثاني

جمالية عرض الأبعاد الأساسية في قصص أولي العزم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: جمالية عرض البعد العقدي في قصص أولي العزم

المبحث الثاني: جمالية عرض البعد الاجتماعي في قصص أولي العزم

المبحث الثالث: جمالية عرض البعد الحضاري في قصص أولي العزم

توطئـــة :

الفصل في مجمله رافد من الجمالية منهجا، في محاولة دراسة القواسم المشتركة بين زمرة الأنبياء الخمسة، دراسة عمودية للظواهر المتكررة، والتوقف عند السنن والقوانين العامة، لاستجلاء الآثار والقيم، وبالتالي تتجلى قيمة المنهج الجمالي في إسقاطات أبعاده الكبرى على قصص أولي العزم في بنية السورة الواحدة وهي جمع النماذج القصصية "مختلفة النزول زمانا ومكانا مع اختلاف الغرض، ثم بعد ذلك يكون منها وحدة تامة في السورة "[1]

وبتتبع النماذج المتفرقة في السور المجتمعة في الغرض، المتوحدة في الموضوع و مع ذلك " تكون صورة كاملة له."[2].

وقمة الالتقاء بين الوسيلتين تحقق الجمالية منهجا لدراسة الأبعاد الأساسية لقصص أولي العزم.

على "اعتبار النّص القرآني كلا لا يتجزأ، لأنّه يهدف إلى غاية واحدة، وإن تنوعت مظاهر تعبيره، وينطلق من فلسفة منسجمة، وإن تبيّن للناظر إلى سطح الأمور تنوعا في القضايا، لذلك يجب التسليم، بأن الآيات التي تدور على قضية واحدة، وإن وجدت في مواطن متفرقة من المصحف ثابت بنيوي تنطلق منه."[3]

وعلى هذا الأساس اخترنا المزاوجة بين الوسيلتين لأنّ في اجتماعها التحقيق الأمثل للهدف من اختيار الجمالية منهجا لدراسة الأبعاد الأساسية لقصص أولي العزم.

وبالتالي لا نهدف إلى دراسة بنية الشخصية في هيكل القصة، بل نتخذ منها وسيلة، لاستخلاص القواسم المشركة، بين شخصيات أولي العزم من خلال الأبعاد الثلاثة، البعد العقدي، والبعد الاجتماعي والبعد الحضاري، كمحاور جامعة لكل الشخصيات، أما دراسة بنية الشخصية فنفرد لها مبحثا خاصا في الفصل الموالي.

1- الوحدة الموضوعية في القرآن ص54

2- المرجع السابق ص54

3- دينامية النص ص192

المبحث الأول

جمالية عرض البعد العقدي في قصص أولي العزم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة:

إن من أهم خواص الجمالية منهجا هو الاستناد إلى تصور إلهي واضح الأبعاد والمقاصد، التصور الثابت الذي توارثه أولوا العزم من الرسل جيلا بعد جيل رسالة واحدة من مصدر واحد وان اختلفت أسماء الأنبياء.

المطلب الأول

جمالية عرض وحدة الرسالة في قصص أولي العزم

إنَّ إلقاء نظرة فاحصة على محور سورة الأنبياء، يؤكد سيرها على نسق السور المكية في العناية في المحور العقدي في أكبر مجالاته، رسالة الأنبياء «وسياق السورة يعالج ذلك الموضوع بعرض النواميس الكونية الكبرى، وربط العقيدة بها، فالعقيدة جزء من بناء هذا الكون، يسير على نواميسه الكبرى، و هي تقوم على الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض »[1] وتؤكد على وحدة المصدر إن تعددت أسماء الأنبياء﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [2] وفي ذلك استهلال بالخطاب التقريري المباشر للحقيقة الأولى، والثابتة، التي توارثها الأنبياء جميعا وحمل لواءها أولوا العزم خاصة، هي الدعوة إلى الأيمان بـا لله الواحد رغم اختلاف الزمان والمكان، وتنوع الأسماء، فالاتفاق قائم على وحدة الرسالة[3].

ثم يؤكد هذا المقصد بتنويع الخطاب، بعرض قصص الأولين في صورة واقعية، تنبض بجمالية الحركة «وفي هذا الاستعراض تتجلى المعاني التي سبقت في سياق السورة، تتجلى في صورة وقائع في حياة الرسل والدعوات، بعد ما تجلت في صورة قواعد عامة ونواميس. » [4]

1- الظلال ج17 ص2364 - 2365

2- الأنبياء 25

3- منهج القصة في القرآن ص 21

4- الظلال ح17 ص2365

فتوظيف قصص أولي العزم، لا يستقل عن البناء الهيكلي للسورة،ولا يخرج عن نطاق مقاصدها وما هي إلا وسيلة جمالية للتأثير الوجداني، وعن المقصد الكلي للسورة يقول برهان لدين[1] «مقصودها الاستدلال على تحقق الساعة، وقربها ولو بالموت، ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير لأن موجدها لا شريك له يعوقه عنها، وهو لا يبدل القول لديه والدال على ذلك أوضح دلالة مجموع قصص جماعة ممن ذكر فيها من الأنبياء –عليهم السلام- و لا يستقل قصة منها استقلالا ظاهرا بجميع ذلك كما سنبين و لا تخلوا قصة من قصصهم عن دلالة على شيء من ذلك فنسبت إلى الكل. »[2]

ومنه البعد العقدي في مجالاته الكبرى، الإيمان با لله والرسل والبعث، ظاهر في مسيرة الأنبياء عامة، وأولي العزم خاصة، هذا الظهور يتفاوت من سورة إلى سورة، وفي السورة الواحدة ولذلك نحاول من خلال حصر النماذج القصصية لأولي العزم في سورة الأنبياء،دراسة القواسم المشتركة، والسنن المطردة والقوانين العامة التي تجمع بينهم، وميّزت مسارهم عن غيرهم، للوصول إلى جمالية التناسق السنني.

أولا: بنية قصص أولي العزم في هيكل سورة الأنبياء

تم عرض قصص أولي العزم في سورة الأنبياء على نمط واحد، في صورة مختزلة وانفردت قصة إبراهيم باتساع سردي، على مستوى البناء الهيكلي العام، حيث ظهرت أكثر تفصيلا وامتدادا.

وظاهر النص لا يوحي بالعناية بترتيب القصص ترتيبا زمنيا، حيث قدمت قصة موسى -عليه السلام- على قصة إبراهيم -عليه السلام- وقصة إبراهيم -عليه السلام- على قصة نوح -عليه السلام- والسر الجمالي المعجز في هذا الترتيب في حسن تساوقه مع مقدمة السورة، دون إخلال بموقع كل رسالة في حركة التاريخ.

1- هو إبراهيم بن عمر ابن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي أبو الحسن برهان الدين، شافعي المذهب، مفسر ومؤرخ، أصله من البقاع سوريا، الشذرات ص39 ، الأعلام ج1 ص56.

2- برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات و السور، دار الكتاب العلمية "بيروت" لبنان ، ط1/ 1415 – 1995 ج5 ص63.

ونجد مقدمة سورة الأنبياء تتحدث عن الإعراض نتيجة الغفلة دون اعتبار للتحذير من اقتراب ساعة الحساب ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ، مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ، قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[1].

وبناء على هذا الاستهلال، جاء ترتيب قصص أولي العزم باعتبار شدة الإعراض وتنسيق المنظومة القصصية على أساس أكثر الأقوام إعراضا في حركة التاريخ، والبداية كانت بموسى -عليه السلام- وذلك لمواجهته لإعراض مركب من شقين، الشق الأول، فرعون وبطانته والشق الثاني، بنو إسرائيل.

ثم إبراهيم -عليه السلام- وقد وصل الإعراض إلى حد إلقائه في النار حيا، ثم نوح -عليه السلام- وما تتسم به أوليته من عنت وصعوبة، ثم يختم بعيسى عليه السلام، باعتباره فرعا مكملا لرسالة موسى -عليه السلام- وهذا الترتيب في نسقه الجمالي لا يخل بموقع كل رسالة في حركة التاريخ، وسنجد تفصيلا ضافيا لهذه النقطة في المبحث الثالث.

ومن خلال حصر النماذج القصصية في الجدول نحاول تسليط الضوء على وحدة الرسالة كقاسم مشترك بين أولي العزم.

1- الأنبياء / 1-4

النموذج	الآيـــــــــــــــــــــة	الرقم
محمد -ﷺ-	﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ. وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾	25-24
موسى -عليه السلام-	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ. وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾	50-48
إبراهيم -عليه السلام-	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ. قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ. قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ. أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ. أَفَلَا تَعْقِلُونَ. قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾	71-51

نوح -عليه السلام-	﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾	77-76
عيسى -عليه السلام-	﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾	91-90
محمد -ﷺ-	﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ. وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ. قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾	107-106

ثانيا: وحدة الرسالة المحور الجامع في سورة الأنبياء

تستهل السورة بتوجيه الخطاب لمحمد-ﷺ-، لمحاجة المعارضين بحقيقة التوحيد الثابتة، والتي توارثها الأنبياء جيلا بعد جيل ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ. وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[1].

ونلاحظ حرص النص القرآني على عرض أم الحقائق (التوحيد) في استقلالية تامة عن شخصية، أي نبي من أولي العزم، وتنزيهها من أي عارض مادي، أو معنوي وذلك التأكيد الدائم على وشيجة الرسالة لتقرير أم الحقائق، وتفنيد أي شبهة تلحق بها على مر العصور ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ. لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ. لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾[2] لأن عقيدة التوحيد تقوم على "رفض الشرك بنوعيه، الشرك القائم على القول بتعدد الآلهة، والشرك القائم على القول بوسائط بين الله والإنسان.

---

1 - الأنبياء 24-25

2 - الأنبياء 21 - 24.

ومن ثم كانت الرؤية القرآنية للعلاقة بين الله والإنسان، بين الله والعالم علاقة انفصال فالله واحد لا شريك له، منفصل عن العالم والإنسان، انفصالا ومن جميع الجهات»[1] والانفصال الذي نعنيه هو انفصال في الوجود، وليس انفصالا في الرعاية، ذلك لأنّ المولى تبارك وتعالى، ظل مهيمنا على الكون و إلى الأبد، وظل مربيا له وراعيا لأحواله، إلى يوم القيامة﴿وَهُوَاللَّهُفِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾[2] ومنه تلمس تمثل أولي العزم للتوحيد مبدأ، و وسيلة وغاية، كقاعدة أولى تندرج تحتها كل القواعد.

وهل توجيه الخطاب بداية إلى محمد-ﷺ- وهو خاتم أولي العزم، معناه أنه الأكمل توحيدا ؟ وهل يملك الدرس معيارا موضوعيا للتفاضل بين الأنبياء ؟! وتحديد درجات كل واحد منهم ؟ ! وأيهم الأكمل توحيدا ؟!

وهذا يراه موسى محمد علي «فأكمل الناس توحيدا الأنبياء- عليهم السلام- و المرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولوا العزم من الرسل أكمل توحيدا، وهم سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وسيدنا محمد- عليهم الصلاة والسلام- وأكملهم توحيدا الخليلان سيدنا محمد وسيدنا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما- فإنهما قاما من التوحيد ما لم يقم غيرهما، علما ومعرفة وحالا، ودعوة للخلق، وجهادا. »[3]

والظاهر من النص أن الكاتب يقصد التفاوت في أساليب ومناهج الدعوة إلى التوحيد ولكن إطلاقه للفظ الأكمل توحيدا ينحرف به عن الوفاء بالمقصد، فما دام الأمر متعلقا برسالة واحدة، من مصدر واحد، فيقين الأنبياء جميعا، بجوهر الرسالة لا تفاوت فيه، وإنما التفاوت رهن متغيرات في الزمان والمكان.

فالتوحيد كما قرره النص القرآني بداية في سورة الأنبياء، حقيقة كاملة، غير قابلة للتفاوت أو التجزئة مهما تعددت أسماء الأنبياء «فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعا ويتسق بين أجزائه جميعا، وبين حركات هذه الأجزاء، و حركة المجتمع المنظم، هذا الناموس

1- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، بيروت ط3/ 1996 ص 176 – 177

أنظر عبد المجيد النجار، الإيمان والعمران، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي السنة الثانية العدد:8 ذو الحجة 1417هـ، 1997 ص39.

2- الأنعام 3.

3- موسى محمد علي، التوحيد دعوة الرسل، د.ط د.ت/ ص 278.

الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد، فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات، ولتعددت النواميس تبعا لها، فالإرادة مظهر الذات المريدة، والناموس مظهر الإرادة النافذة، ولانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله، وتوحد مهجه و اتجاهه وسلوكه، ولوقع الاضطراب والفساد تبعا لفقدان التناسق»[1] ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2]، وبذلك نلتمس التناسق بين وحدة الرسالة ووحدة السنن الإلهية، في تواشج أصيل باعتبار الطبيعة الواحدة لرسالة التوحيد.

ثالثا:وحدة الرسالة المحور الجامع لقصص أولي العزم

والرسالة عقد رباني وميثاق علوي أبرمه الله تعالى مع أول خليفة له في الأرض آدم -عليه السلام- ثم تعاقب عليه الأنبياء بالحفظ والتمكين، كل يؤدي مهمته ثم يسلم اللواء من يأتي بعده.

فالنص صريح في تقريره المبدئي لهذه الحقيقة الأصيلة ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾[3] فالتوحيد أصل والوثنية عارض، و لا يستقيم بأي حال زعم القائلين بتدرج العقيدة، بحيث مرت بأطوار وثنية ساذجة حتى وصلت إلى التوحيد كمظهر من مظاهر النضج، وهذا ينقض أم الحقائق في التصور الإسلامي[4].

ولما كان التعثر والانحراف عن الجادة مواكبا للإيمان، والاستقامة في كل حلقة من حلقات السلسلة المتواصلة فالتوحيد أصل المنطلقات، وبداية البدايات، أما الوثنية وكل التصورات المتدنية ما هي إلا علامات تردي وانتكاس، و لا توجد قرينة موضوعية لإسقاطها على المعارف والعلوم التي تطورت حتى وصلت إلى القمة، وإن اتفق هذا مع كسب الإنسان وتحصيله، فلا يتفق مع التصور الإلهي الثابت منذ الأزل و إلى الأبد وقد توصل العلم بمختلف ضروبه على أولية عقيدة التوحيد «وأنَّ عقائد الشرك و الوثنية والفناء، إنما هي وليدة ضرب من الغفلة أو الكسل العقلي يقف بها في بعض الطريق.»[5]

1- الظلال ج17 ص2373

2- الأنبياء 21.

3- الأنبياء 24.

4- أنظر محمد سيد أحمد المسير، المدخل لدراسة الأديان، دار الطباعة المحمدية ط1 / ص282-283.

5- عبد الله دراز، الدين، دار العلم الكويت ط2 / 1310-1970م ص104.

فالبداية صحيحة ثم كان الانحراف، وأمة التوحيد هي المنطلق، ثم كان الاختلاف في النكوص والتردي في ألوان الشرك والتعدد[1] و قد فصل النص القرآني فصلا بينا بالتقرير المباشر، الموجه لخاتم الأنبياء -ﷺ- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2] وبعرض النماذج القصصية للشاهدين المصدقين لهذه الحقيقة الثابتة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- القصص القرآني إيحاؤه و نفحاته ص87.

2- الأنبياء 25.

المطلب الثاني

جمالية عرض التناسق السنني في قصص أولي العزم

أولا: جمالية عرض وحدة الرسالة في قصص أولي العزم في سورة واحدة

وتتجلى في عرض قصص أولي العزم، وحدة الرسالة، ووحدة الطريق ووحدة السنن الإلهية، وهذا تفسير عدم ترتيبهم زمنيا في سورة الأنبياء، فعرضت إشارة وجيزة عن قصة موسى- عليه السلام- ثم نجد قصة إبراهيم عليه السلام وقد اتخذت فضاء سرديا واسعا ثم كانت قصة عيسى- عليه السلام - مختزلة أمام النص المنزل في شأن محمد-ﷺ- إن لم يصدق عليه بنائيا مصطلح قصة، يظهر، في سورة الأنبياء في امتداد سردي على هيكل السورة ككل بل أضحى الهيكل الجامع الذي تنتظم فيه قصص أولي العزم في بنية كلية شاملة.

أ- وحدة الرسالة في قصة موسى -عليه السلام-

ومع الإشارة السريعة في هذا النص السردي تتمثل وحدة الرسالة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[1]، والقصة مع إيجاز عرضها تحمل دلالات بالغة الأهمية، تصديقا بالمحور الجامع، الذي أقرته فاتحة السورة، و جوابا للمنكرين برسالة محمد-ﷺ- وبالقرآن كتابا سماويا.

1- الأنبياء / 48-50

كـــان المثال بموسى – عليه السلام – أكثر انطباقا من غيره من الأنبياء، فقد أنزلت عليه التوراة وهـــو صاحب شريعة مستقلة، وأتباعه من اليهود هم أكثر المتربصين والمشككين[1] ﴿ويسمى هذا الكـــتاب (الفرقان) وهي صفة القرآن، فهناك وحدةحتى في الاسم، ذلك أن الكتب المترلة، كلها فـــرقان بين الحق و الباطل، بين الهدى والضلال، وبين منهج في الحياة، ومنهج و اتجاه في الحياة، واتجاه، فهي في عمومها فرقان، وفي هذه الصفة تلتقي التوراة والقرآن، وجعل التوراة كذلك ضياء يكشف ظلمات القلب والعقيدة وظلمات الضلال والباطل، وهي ظلمات يتوه فيها العقل، ويضل فيهـــا الضـــمير و إن القـــلب البشري ليظل مظلما، حتى تشرق فيه شعلة الإيمان، فتنير جوانبه، ويتكشف له منهجه، و يستقيم له اتجاهه. "[2]

وفي القصة تخصيص الفئة المصدقة، المؤمنة﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ، وَهُـمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[3] والذين لم يكتموا ما يعرفونه من الحق وكانوا مع المسلمين، ضد المرجفين، والسرد القصصي يواجه المـــنكرين بهـــذه الحقيقة الشاخصة، والسنة المكررة والمطردة ﴿وَهَـذَا ذِكْـرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ، أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [4] عـــلى أساس أن القرآن والتوراة من مشكاة واحدة، وما جاء به محمد– ﷺ – من ذكر مبارك يتوحد مع ما جاء به موسى–عليه السلام في المصدر[5].

ب- وحدة الرسالة في قصة إبراهيم -عليه السلام -

أمـــا قصـــة إبراهيم، فأخذت امتدادا كبيرا في الفضاء السردي لسورة الأنبياء، و هو أبو الأنـــبياء –عـــليهم الســـلام– يتنسب إليه العرب، و هو أول من وضع حجر الأساس في صرح التوحيد، مجسدا في الكعبة الشريفة، التي دخلتها الأوثان وعمت فيها عبادة الأصنام.

وبالـــتالي مـــراعاة التناسق الفني في عرض حلقة تحطيم الأصنام من قصة إبراهيم، لتناسبها مع جو السورة وقيمتها الجمالية في أداء مقصد السورة وهدفها العام، ويعتبر سيد قطب ذلك أثرا من آثار

1- نظم الدرر ج5 ص88-89.
2- الظلال م4 ج17 ص2384.
3- الأنبياء 48-50.
4- الأنبياء 48-50.
5- التصوير الفني في القرآن ص134.

خضوع القصة في القرآن للغرض الديني حيث « تعرض بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغر، ومن الحلقة التي تفق معه، فمرة تعرض القصة من أولها ومرة تعرض من وسطها، ومرة من آخرها وتارة يكتفي ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك، حسبما تكمن العبرة في هذا الجزء أو ذاك ذلك أن الهدف التاريخي لم يكن من بين أهداف القرآن الأساسية كالهدف القصصي سواء فسارت القصة وهدفها الأول هو الهدف الديني »[1] مع تحقيق امثل للجمالية منهجا «وأن التناسق بين حلقة القصة التي تعرض والسياق الذي تعرض فيه، هو الغرض المقدم، وهذا يتوفر دائما، ولا يخل بالسمة الفنية إطلاقا. »[2]

فتستهل القصة بعرض معطيات حول شخص إبراهيم عليه السلام و تشكل قيمة جمالية في تناسقها مع تطور الأحداث ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[3]« إن هذه المقدمة القصصية تشدد على إبراز ظاهرة الرشد الذي يسم شخصية إبراهيم – عليه السلام – مما يعني من حيث البناء العماري للأقصوصة أنّ محتوياتها ستصاغ، وفاقا لمنطق المعرفة الحقة التي يتعامل إبراهيم – من خلالها – مع أحداث القصة ومواقفها وشخوصها. »[4]

وهذا تفسير مواجهة قومه ومحاجاتهم حول عبادتهم للتماثيل، بمنطق راجح وحجة تنم عن الرشد الذي يسمه به السرد مبدئيا و قضية، و يرمي بنا إلى محور القصة وهو إقدامه على تحطيمها لزلزلة العقول المتحجرة، «وهذا يعني أنَّ الأقصوصة، من حيث الشكل والمضمون، تتميز ببناء هندسي خاص قائم على وحدة الموضوع من جانب، و على صياغة الأحداث والمواقف والشخوص التي تصبّ في الوحدة الموضوعية المذكورة وفق خطوط تتنامى و تتلاحم بنحو بالغ الإثارة، فنيا و فكريا من جانب آخر»[5].

يتميز المشهد الأول من القصة، بسيطرة منطق المحاجة على جزئية الأحداث ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

1- التصوير الفني في القرآن ص134

2- التصوير الفني في القرآن ص129

3- الأنبياء 51

4- دراسات فنية في القصص القرآني ص376

5- دراسات فنية في القصص القرآني ص 377

قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1]

إنَّ سيطرة منطق المحاجة في هذا المقام يتسق جماليا بالاستهلال القصصي، بإظهار سمة الرشد في موقف حركي مباشر وهو منطق تلوح منه السخرية والغيظ في آن واحد.

ونلمس في الحوار إشراك أبيه في الخطاب، ويوحي لنا بدلالات بالغة القيمة، في تأثيرها على فنية الحوار، فتوجيه الخطاب بهذه الصورة في حضور أبيه، أضاف لمنطقه قوة، وأضعف من منطق القوم، ففي قوله﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[2] إنَّ محاولة تحطيم المنطق المتحجر في شهود أبيه، له من التأثير البالغ على أداء الهدف ومن جهة تجسيد لانفصال العقيدة عن ذاته، فلا اعتبار للعلاقات الشخصية في أداء مهمة التبليغ .

وأيضا جسد عدم احتفاله بما يعبد الأباء، في رده البليغ على قومه، في حضور أبيه﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[3]، وهذا الموقف الحواري المجمل نجد له تفصيلات إضافية، متناسقة مع تطور الأحداث «محققا بذلك إمتاعا جماليا للمتلقي عندما يواجه مثل هذه العمارة الفنية، التي خضعت القصة لها. »[4]

إنَّ سمت المقلدين ظاهر في عدم تجاوب القوم مع خطابه، بل العكس تماما جاءت إجاباتهم تعكس عدم تقبلهم لجديد الأفكار إلا هزلا أو لهوا ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ وجاءت إجابته يقين بالفكرة التي يعرضها ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[5] .

1- الأنبياء 52-56

2- الأنبياء 52-54.

3- الأنبياء 54.

4- دراسات فنية في القصص القرآني ص381.

5- الأنبياء 56.

ويحملنا المشهد الثاني من الأقصوصة إلى المحاجة العلمية، بالمثال الحي المجسد، واختيار زمن انشغالهم في تنفيذ المهمة الحاسمة ليكون الدرس أبلغ مع المفاجأة والإثارة ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾[1] ونلمس أنَّ حادثة تحطيم الأصنام قد تبلورت بنائيا من خلال موقف توعد إبراهيم أنْ يكيد الأصنام، والحادثة هي تركه كبير الأصنام شاهدا دون تحطيم و«لا شك أنَّ كلاً من الموقف والحادثة، يرتبطان عضويا أحدهما بالآخر، مثلما يرتبطان بمواقف سابقة في القصة، كما يرتبطان بمواقف لاحقة في القصة أيضا يمكننا ملاحظة هذا الإحكام الهندسي وجماليته الفائقة في القصة »[2]، الذي يشكل البناء العام و ذلك من خلال سيرورة الأحداث ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ، قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ، قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ، قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ، قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ، أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[3].

وتظهر الجمالية في قمة التناسق الفني، بين هيكل البنية القصصية و بين أدائها للمقصد ويظهر البعد العقدي بجلاء في الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك با لله من خلال حدث تحطيم الأصنام.

هذا الحدث المحوري في بناء القصة، لم يكن بدافع انتقامي عبثي بل كان الدافع تكسير الموروثات التقليدية، من خلال تكسير القوة الوهمية الموجودة في الأصنام، وتركه لكبير الأصنام عامل فني قوي في إيصال الهدف بإسهامه في إغناء جو الإثارة والذهول، بصرف الأذهان للتساؤل والحيرة !! وإذكاء روح التفكير الحر.

1- الأنبياء 57-58.

2 دراسات فنية في قصص القرآن ص384.

3 الأنبياء 59-66.

وأسفر المشهد عن تغيير موازين القوى، بعد أنْ نكست الحقيقة الساطعة رؤوس المغفلين واقروا بغفلتهم بصراحة ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [1] يكون جواب إبراهيم -عليه السلام- بلهجة الثقة في تأكيد سحق ما اتبعوه من عبادة الحجارة الصماء،وتركهم لعبادة الله الواحد القهار على كل شيء، وبإقرار مبدأ التوحيد يسدل الستار عن هذا المشهد المحوري، ليبدأ المشهد الأخير من منتهى سابقه في تساوق فني، غني بمعطيات الإثارة والتشويق الذي يصبغه موقف القوم المتحجر من دعوة التوحيد التي نقضت أصنامهم وحطمتها بمقابلته بإضرام النار في إبراهيم لحرقه وحرق ما جاء به من أفكار جديدة.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [2]

والسرد القصصي وما يحمله من جوانب الإثارة والتأزم، يفسر عن نهاية متسقة، مع البداية في بنية جمالية معجزة ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ تواصل فني مع ما جاء به﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [3] إنَّه تناسق في السنة الإلهية التي تتحكم في حركة الأحداث، فعلم الله بإبراهيم رسولاً ونبياً يقيناً بحكم أنَّه هو مصدر الرسالة، يتضمن نصرته على كيد قومه، فالأمر يؤكد اليقين بهذه السنة الأحادية المصدر، المتكررة" في حياة الأشخاص والجماعات والأمم، وفي حياة الأفكار والعقائد والدعوات، وإنْ هي إلا رمز للكلمة التي تبطل كل قول، وتحبط كل كيد، لأنها الكلمة العليا التي لا ترد. "[4]

إنَّ توظيف الخارق في قصة إبراهيم - عليه السلام - عامل قوي لتوثيق القدرة العلوية، و لا يفوتنا التنويه بقيمة الصدق وهو عنصر يعزز فعاليتها المنبثقة من القوة المهيمنة على منطق الأحداث، وذلك تفرد معجز تميزت به القصة في قمة التناسق بين البنية الجمالية والأبعاد المحورية الجامعة.

1 - الأنبياء / 65.

2 - الأنبياء / 68-71.

3 - الأنبياء / 51.

4- الظلال ج17 ص2388.

ومنه نخلص إلى أنّ قصة إبراهيم - عليه السلام - عرفت بنية سردية متميزة، بامتدادها و تفصيلها الثري بالمشاهد التي تدور على محور رسالة التوحيد، و فيه تحقيق أمثل للجمالية منهجا، في عرض وحدة الرسالة، كنموذج في المنظومة القصصية لسورة الأنبياء.

ج- وحدة الرسالة في قصة نوح - عليه السلام -

وتأتي قصة نوح-عليه السلام- في هيكل المنظومة القصصية، بعد قصة إبراهيم-عليه السلام- وبينما تميزت قصة إبراهيم-عليه السلام- بالتوسع والتفصيل، تميزت قصة نوح -عليه السلام- بالاختزال، والإيجاز﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]، وهذا الإيجاز المحكم له من الدلالات الجمالية في هيكلها ومن حيث تجسيدها للبعد العقدي.

وتختصر القصة أشواطا من عمر دعوة نوحٍ لقومه، وتركز على بؤرة التوتر، بعد أن أخذ التضييق مأخذه نادى نوح ودعا ربّه﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ [2] وكانت الاستجابة، والنصرة بواسطة سفينة النجاة و فيها تم نقل البذرة المؤمنة، وإغراق الكافرين بالطوفان[3]، ويظهر البعد العقدي من خلال تساوق القصة جماليا مع هيكل السورة عامة، ومع النماذج القصصية السابقة، فالتفصيل في القصة لم تسرد إلا بقدر إنارة المقصد الجامع، وذلك بالتأكيد على وحدة الرسالة، ووحدة القانون الذي يحكم مسار الدعوات.

وعدم الاحتفال بجزئيات القصة بأكثر من الاهتمام بالقواسم المشتركة، حيث أضحت بنية القصة، بهذا الشكل المختزل، نموذجا للسنن العامة، التي وقفنا معها تفصيلاً وإسهابا في قصة إبراهيم-عليه السلام-.

1- الأنبياء / 74-77.

2- القمر / 10.

3- نظم الدرر ج5 ص99.

2- وحدة الرسالة في قصة عيسى- عليه السلام-

وبعد نوح نصل إلى قصة عيسى-عليه السلام- من خلال هذا النص السردي المختزل ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ورغم هذا الاستهلال المتضمن الإشارة إلى مريم الصديقة، إلا أنَّ بلاغة عدم التصريح بالاسم تعود إلى أنَّ "المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها-عليه السلام- وقد جاءت هي تبعاً له في السياق إنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها"[1] هذه الصفة هي الإحصان بدلالته الأصلية لتلقي المعجزة الربانية الخارقة للسنن السائرة المألوفة "وهي آية غير مسبوقة، ولا ملحوقة، آية فذة واحدة في تاريخ البشرية جميعا، ذلك أنَّ المثل الواحد من هذا النوع يكفي لتتأمله البشرية جميعا، في أجيالها جميعا، وتدرك يد القدرة الطليقة التي تخلق النواميس ولكنَّها لا تحتبس داخل النواميس."[2]

ومجال الإشارة إلى هذه الآية المتفردة، في معرض سرد قصص الأنبياء، لارتباطها بالمصدر الرباني، المتحكم في النواميس وإظهار أنَّ عيسى-عليه السلام - ليس إله أو ابن إله، بل هو معجزة متفردة، دلالة على قدرة الله القادر على كل شيء، خالق السنن و القوانين.
وبهذه الصورة المختزلة، تنتظم في نسق المنظومة القصصية لسورة الأنبياء، في تجسيدها للمصدر الواحد للرسالة.

وهذا نجده ماثلا بجلاء في هذا التعقيب ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[3] فهيكل سورة الأنبياء يعرض قصص أولي العزم، كنماذج متوحدة في توجهها إلى الله، فأمة الأنبياء تنتمي إلى مصدر واحد وتنتهج نهجا واحداً وغاية واحدةٌ، هي إعلاء كلمة التوحيد، ونبذ الشرك.

وبذلك تتجلى جمالية عرض وحدة الرسالة في قصص أولي العزم في وحدة السورة، حيث تجسد التناسق البنائي مع التناسق السنني في وحدة جامعة "وهنا يلتقي في هذا الاستعراض بالمحور،

1- الظلال ج17 ص2395.
2- الظلال ج17 ص2395.
3- الأنبياء / 92.

الذي تدور حوله السورة كلها، وتشترك في تقرير عقيدة التوحيد، تشهد بها مع سـنن الكـون وناموس الوجود"[1] بغض النظر عن الأسماء والأحوال والمتغيرات.

إنّ التأكيد على الوشائج الجامعة والسنن المطردة، قاعدة المنهج القرآني في عرض رسـالة التوحيد، كخاصية تجمع بينهم وهم يقتبسون من مشكاة واحد ة ربانية المصدر وهـي خاصيـة التصور الإسلامي الأساسية،التي تحدد طبيعته في سائر الخصائص التي تنبثق منها، نرى بوضوح تفرد هذا التصور،و تميز ملامحه و وضوح شخصيته"[2] المستقلة عن شخصيات الأنبياء في قصـص أولي العزم، و تظهر هذه الخاصية كمحور تنتظم في نسقه النماذج القصصية، كمنظومة واحدة، تتسـق خاتمتها ببدايتها، في قيمة جمالية متفردة.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3]، وهذا يتناسق مع ما جاء بداية، تناسقا في المنظومة القصصية لأولي العـزم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ، من حيث توجيه الخطاب النهائي لمحمد-ﷺ- على نسق الافتتاح وكأنّ النص المنزل في شأن محمد-ﷺ- وإنْ لم يكن نصاً قصصيـاً فهو الهيكل الجامع للمنظومة القصصية في بنية كلية ممتدة على الفضاء السردي لسورة الأنبياء.

ومن خلال ذلك نخلص إلى أنّ رسالة التوحيد هي دعوة أولي العزم من الرسل، وحـددت معالمها الكاملة على يد النبي الخاتم -ﷺ- " ورغم تباعد المسافات في هـذه العـهود الإنسـانية الأولى، وضعف وسائل الاتصال بين مجتمع و آخر، فإنّ هذا لتباعد بين مجتمع وآخر، وبين رسول وآخر لم يؤد إلى تباعد (الجوهر) الرسالة، بين رسالة وأخرى، ومن ثم كانت اللغة المشتركة بـين هذه الرسالات جميعا بشكل لافت للنظر. "[4]

فالنص السردي الذي ختمت به المنظومة القصصية، يؤكد على وحدة الرسـالة، مـهما تنوعت النماذج القصصية، ونلمس إيضاح جمالية التناسق السنني في اختزال المد الزمـني، ماضيـاً

1- الظلال ج17 ص2396.

2- سيد قطب،خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، دار الشروق، ص50.

3- أنظر الأنبياء ، 106،107.

4- عبد الغني عبود،أنبياء الله و الحياة المعاصرة، دار الفكر العربي ط1/1987 ص32.

وحاضراً ومستقبلاً وتعامله مع المعطيات السابقة ليس اعتباطا بل يعكس إحاطة شاملة تجعلنا أمام ظواهر مُطْرِدَةً، وأهدافاً مشتركة « فالقرآن بحكم كونه صادرا عن "ا لله" الذي له علم السماوات و الارض، و الشاردة و الواردة فهو في عمق التاريخ، كما هو أمام التاريخ ومستقبل الحياة، فهو المحيط بالزمان و لمكان». [1]

لأن الأهداف والمقاصد لا تتجزأ وفق أسماء الرسل، ولا ترتبط بالحدث، كحركة تاريخية على رقعة جغرافية، وإنما الأهداف مرتبطة بالفكرة الأم ومقترنة بالمقصد الأول وهو وحدة الدين « ووحدة القانون الذي يحكمها و يحدد مسيرتها، ومعنى وحدة القانون هنا أنَّ نوعية القانون واحدة، ومصدره واحد، وإن اختلفت الظروف، والشروط والمواصفات التي تحيط به .»[2]

ومن ذلك نخلص إلى أنَّ المنهج القرآني أولى عناية فائقة بجمالية عرض وحدة الرسالة في قصص أولي العزم، في وحدة السورة بحسدة التناسق البنائي مع التناسق السنني، في منظومة قصصية موحدة لأداء المهمة الرسالية كقاسم مشترك لقيادة الإنسانية إلى طريق ا لله[3].

1 – حسن سلمان، النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ، مؤسسة الوفاء بيروت لبنان 1906 ص125.

2– النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ ص125.

3– عبد الغني عبود، العقيدة الإسلامية و الإيديولوجيات المعاصرة، دار الفكر العربي، ط1 / 1976ص89.

ثانيا: جمالية عرض وحدة الرسالة في قصص أولي العزم في السور المختلفة

وتتجلى جمالية المهج القرآني في عرض البعد العقدي لقصص أولي العزم، في هيكل السورة الواحدة، وفي الآيات المتفرقة، التي تمثل مجتمعة في سورة واحدة، ومتفرقة في السور، نسقا منسجما، وتهدف إلى غاية واحدة وهي وحدة الرسالة والنماذج تتطابق من نوح -عليه السلام- إلى محمد-صلى الله عليه وسلم-، و هذا ما نحاول عرضه في هذا الجدول.

النموذج	الآيـــــــة	السورة	الرقم
نوح -عليه السلام-	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ، إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ﴾	هود	26
إبراهيم -عليه السلام-	﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بُرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾	الزخرف	27-26
موسى -عليه السلام-	﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾	غافر	27
عيسى -عليه السلام-	﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾	آل عمران	51-50
محمد-صلى الله عليه وسلم-	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾	الأعراف	158

ولهذه النماذج مجتمعة في هذا الجدول قيمة جمالية من حيث تمثيلها للمحور الجامع، وهي في مواضع متفرقة في السور القرآنية، وسنتجاوز تحليل البنية التجزيئية للقصص إلى التركيز على البنية الكلية، لاستخلاص القاسم المشترك وللوقوف على جمالية عرض وحدة الرسالة لقصص أولى العزم في السور المتفرقة.

ونستهل النماذج بأول أولي العزم زمنيا، وهو نوح-عليه السلام- و في السياق تصريح مباشر

برسالة التوحيد ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ، إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾[1] ويحمل اللواء من بعده إبراهيم-عليه السلام- دون تغيير أو تحريف للمسار التوحيدي للرسالة الربانية ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾[2]، وهو إعلان للقطيعة مع ما يعبده الأباء من أوثان لمخالفتها للفطرة النقية في التوجه لله الواحد.

ويسير موسى-عليه السلام- في ركبهم، ويواجه أعتى طاغية بالاستجارة بالله الواحد من تهديد ووعيد فرعون﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾[3].

ويصدق بذلك عيسى -عليه السلام- في دعوة قومه إلى عبادة الله، واتباع الصراط المستقيم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[4].

وعلى هذا الأساس اهتم المنهج القرآني في عرض قصص أولي العزم بإيضاح وحدة الرسالة كقاسم مشترك تكتمل هذه الوحدة في الرسالة الخاتمة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾[5].

وتتجلى بذلك الجمالية في عرض وحدة الرسالة، في السور المتفرقة على نسق ما رأيناه في وحدة السورة، مجسدة منظومة واحدة، فلا تفاوت بينهما، لأن الحالتين يحكمهما منهج واحد لا يعرف التفاوت، وهدف واحد لا يعرف التجزئة و التعدد، فعرض وحدة الرسالة في قصص أولي العزم في وحدة السورة، أو في السور المتفرقة، تمثل قمّة الالتقاء بين وحدة التناسق البنائي والتناسق السنني.

ثالثا: جمالية التناسق السنني في قصص أولي العزم

أ. جمالية التناسق السنني بين وحدة الرسالة ووحدة القانون

احتفل المنهج القرآني في عرض قصص أولي العزم بإبراز البعد العقدي كمحور أولي تندرج تحته كل المحاور، والذي يتجسد أساسا في المهمة الرسالية، التي توارثوا حمل تبعاتها.

1- هود 26

2- الزخرف 26-27.

3- غافر 27.

4- آل عمران 51.

5- الأعراف 158.

ومن خلال تتبعنا لجمالية عرض وحدة الرسالة، كقاسم مشترك، بين أولي العزم مشكلا في ذلك منظومة قصصية متوحدة سواء في هيكل السورة الواحدة، أو في السور المختلفة.

ونلتمس التناسق، بين وحدة الرسالة، ووحدة السنن الإلهية في ارتباطها بمصدر واحد، ومن ذلك تتجلى جمالية عرض البعد العقدي في قصص أولي العزم في بنية منسجمة، تحكمها وحدة القانون السنني، بمعزل عن شخصيات الأنبياء، ومتغيرات الزمان والمكان.

ومن هذا خلال استجماع خواص المنهج الذي ضبطنا سيره عموديا، لاستكناه جمالية التناسق السنني في قصص أولي العزم، بتتبع السنن الجامعة، والقوانين المطردة، لمسار الرسالات باختزال كل التفاصيل الجزئية وتسليط الضوء على الخطوط الكبرى المتكررة مع كل الأسماء، وفي كل الأزمان، وفي نسق منتظم،فالمنهج القرآني " يقدر أولاً، ويؤمن بوجود روابط وعلاقات بين الحوادث المختلفة.

وهذه العلاقات هي ما سميناها بالأسباب والعلل إلا أنَّ هذه الروابط و العلاقات، بين الحوادث التاريخية هي في الحقيقة تعبير عن حكمة الله وحسن تقديره وبنائه التكويني للساحة التاريخية "[1]، والفرق ظاهر بين التفسير التعميمي الضيق الأفق في ربطه الأحداث الجزئية بالغيب مباشرة، بناء على العجز عن التوصل إلى حقيقتها، وقصور عن فهم كنهها، وبين تفسير ينفتح على الأفاق الرحبة، لأنه يفسر الحوادث المشتركة على ضوء القانون الإلهي في شبكة من العلاقات والنظم النابعة من الأسباب والعلل "إننا نجهل مؤقتا القانون الذي يسيطر على ظاهرة ما زالت تخفى علينا طريقة حدوثها ومع ذلك، فإن المذهب يظل منسجما منطقيا مع مبدئه الأساسي لأن مثل هذه الظاهرة يمكن تفسيرها في التحليل النهائي، على حتمية مطلقة."[2]

وهي حتمية القانون السنني العام، و على ضوئه نصل إلى جمالية التناسق السنني في قصص أولي العزم بين وحدة الرسالة ووحدة القانون.

1- النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ ص136.

- انظر محمد الغزالي،كيف نتعامل مع القرآن الكريم،دار الوفاء للطباعة و النشر، ص9.

- أنظر قصص الرحمان في ظلال القرآن ص5.

2- الظاهرة القرآنية ص78.

ب جمالية التناسق السنني بين وحدة السنن الإلهية والحرية الإنسانية

وبطبيعة الحال ما دامت القوانين والسنن مطردة، ومستمرة ومرتبطة بإرادة الله، فالسؤال الذي يطرح نفسه، أين مجال الحرية الإنسانية من السنن الإلهية؟! ، وإذا سلمنا بحكم السنن والقوانين وهيمنتها على حرية الاختيار، فإن نقض الحرية الإنسانية معناه نقض لمهمة الرسل في التبليغ؟ ونقض للهدف الذي أرسلوا من أجله[1].

لأن هذا الشأن الجليل المؤثر في حركة التاريخ، إرسال الرسل، أكبر مظهر لتقدير حرية الإنسان، بإعطائه فرصا سخية للبناء الذاتي والاجتماعي، والإيمان حركة تغيير شاملة وعلى كل المستويات، ومن ثم كان إرسال الرسل لتوجيه وقيادة هذه الحركة نحو البناء الذاتي والاجتماعي[2].

هل هيمنة السنن واطرادها، حجر على الحرية الإنسانية؟ ! أم أنها الصمام الضابط للحفاظ على مقوماتها، لتقوم بمهمتها المسؤولة فهماً وتطبيقًا ؟!

والجواب نحاول استخلاصه من النماذج القصصية في سورة الأنبياء، للوصول إلى جمالية التناسق بين السنن الإلهية و الحرية الإنسانية.

تستهل المنظومة القصصية، بمحاجة المشركين وطلب منه الإتيان بالدليل على دعواهم ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[3] وفيه كشف للمعارضين بغير علم، وفضح للمتبعين دون تحرر من سلطة القديم الذي يصدم المنطق والواقع.

ثم تتسق النماذج القصصية، لتعزيز هذا الموقف و تأكيد علم الله الواسع، وإحاطته بأحوال الأمم السالفة، وقصور علم الإنسان الذي يجد حجة يبرر بها انصرافه عن عبادة الله الواحد سوى اتباع ما يعبد الأباء.

1- الإسراء/15 .

2- محمد صفوت،القصص في القرآن الكريم،مكتبة مصر 3 شارع صدقي الفجالة – القاهرة ص110.

3- الأنبياء / 25.

وفي قصة موسى يختص الخطاب المتقين بالذكر، وهم المتحررين بإيمانهم، من الخوف من التغيير، بعد استيقاظهم بالله الواحد، وتنتهي القصة بتوظيف أسلوب المحاجة﴿ هذا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ، أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [1] .

وما فيه من دلالة جمالية بالغة القيمة على بعث روح التفكير الحر، فيعرف أسلوب المحاجة تميزا جماليا على المستوى البنائي للمنظومة القصصية في سورة الأنبياء من خلال الاتساع السردي وما يحمل من تفصيلات.

هذا التميّز الجمالي يظهر في حسن توظيفه لحدث تحطيم الأصنام لإثراء و إغناء، أسلوب المحاجة بالانتقال به من قوة المنطق، إلى منطق القوة و من المحاجة النظرية إلى المحاجة العلمية، وذلك كله يندرج في إطار الدعوة إلى التحرر من الموروثات التقليدية، بتحطيم الحواجز الوهمية.

وتظهر هيمنة السنن الإلهية، لحفظ حرية العقيدة من المناهضين لمسارها الطبيعي، وذلك في نجاة إبراهيم من كيد قومه.

وتتسق بنائيا قصة نوح -عليه السلام- مع خاتمة قصة إبراهيم -عليه السلام- ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [2]، وفيه أيضا تظهر هيمنة السنن الإلهية في إنجاء نوح-عليه السلام- والمؤمنين معه، وإغراق المكذبين لمناهضتهم لحرية الآخرين في العقيدة.

ويحتفل النص السردي بعرض جمالية التناسق السنني، دون اعتبار للترتيب الزمني،وينتهي بنا إلى النموذج المتفرد في قصة عيسى-عليه السلام- في تجاوزه للسنن المطردة بحكم كونه في شخصه آية، لا نظير لها، ولا يمكن أن تتكرر لأنّ الله تعالى شاء أن يجعل عيسى-عليه السلام- معجزة تدل على قدرته، والذين انحرفوا بفهمهم لا برهان لهم، ولا أساس لزعمهم .

وتختم المنظومة القصصية على نسق ما بدأت به، تأكيدًا على حرية الاختيار بعد عرض جمالية التناسق البنائي، للمنظومة القصصية، وعرض جمالية التناسق السنني للمنظومة القصصية،

1- الأنبياء / 50.

2- الأنبياء / 76-77.

تذكير بالمهمة الرسالية المتمثلة في التبليغ والدعوة[1] وهي القاسم المشترك بين الأنبياء، وباستشارة العقل والوجدان معاً، للاقتناع الحر النزيه ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2].

ويتسق مع ما جاء بداية، في إثراء أسلوب المحاجة وتقرير مبدأ الحوار ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[3] وبعد قرعهم بالحجج الدامغة بعرض المواقف المتحركة في نسق المنظومة القصصية، ينتهي بنا السياق إلى نقطة الفصل، بتوظيف أسلوب الاستفهام وما له من دلالة بالغة على التلازم بين الحرية والإيمان ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ لأن العقيدة الصحيحة، والتصور السليم، لا يقوم إلا على الحرية في الاختيار عن يقين، والحرية من أعظم آثار الإيمان بالله، حيث يشكلان رباطا لا فصام له يظهر في الواقع سلوكيات واعية مسؤولة، والقرآن يتعامل مع الحرية لا كبنية مستقلة، بل كجزء لا يتجزأ من الإيمان[4].

ومن ذلك نخلص إلى أنَّ الإيمان و الحرية متلازمان في التصور وفي الواقع، ويشمل هذا التلازم حركة تغييرية على مستوى الوجدان ثم تنعكس آثارها على مستوى المكان، من الذات وإلى المجتمع.

تعرض قصص أولي العزم الإيمان بالله تعالى، في صورة استجابة واعية مسؤولة لدعوة الرسل، برغم صروف المعارضة وضغوطات المكذبين، إلا أنَّ ثبات موقف المؤمنين، دليل على اقتناع كامل وبرهان واف على الوعي بتبعات الاختيار، من منطلق التأثير الوجداني والاقتناع العقلي "ولكن هذا لا ينفي أنَّ الأنبياء والمرسلين جميعا احتفظوا لدعواتهم بمحفز نفسي بارز ذلك أنَّ النبي والرسول بشير ونذير، فهو بشير للمؤمنين برضوان الله وهو نذير للكافرين بغضبه ويرتبط برضوان الله الجنة، كما يرتبط بغضبه النار "[5]

1- عائشة عبد الرحمان،القرآن و قضايا الإنسان،دار العلم للملايين ط5/أكتوبر 82 ص388.

2- الأنبياء / 107.

3- الأنبياء / 24

4- فتحي رضوان،الإسلام و المسلمون،دار الشروق ص324-325.

5- جمال البنا،حرية الاعتقاد في الإسلام،دار الجليس سطيف ط3/1412 هـ ص21.

وكما تتبعنا في سير قصص أولي العزم في سورة الأنبياء فالأمر لم يسر بنفس الوتيرة من نوح -عليه السلام- إلى محمد-ﷺ - بل تدرج في وقعه، فالأقوام الأوائل نظرا لبدائيتها، وتلبد الضلالات عليها محتاجة إلى قرع الأذان بالمعجزات الحسية، التي انتفت تماما و لم يشر إليها النص السردي إطلاقا مع الرسالة الخاتمة، هل معنى ذلك أنَّ الدعوة بدأت بالإكراه والعنت مع الأقوام الأولى في تاريخ الإنسانية ؟! .

وكيف يتفق أن تكون الحرية من مقتضيات الإيمان الصحيح، ويكون إهلاك الأقوام الكافرة قانونا سنياً عاماً، لا ينقض الحرية في اختيار الكفر بدل الإيمان ؟!

و نحاول إجمال الإجابة مع إرجاء التفصيل فيها في المبحث الموالي.

تتعرض المنظومة القصصية في سورة الأنبياء، لإهلاك الأقوام الكافرة، في صورة موجز بإشارة سريعة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [1]، في قصة نوح -عليه السلام- متناسبة مع جو السورة، و أيضاً متناسبة مع جمالية عرض التناسق السنني في المنظومة القصصية.

وبما أنَّ الوصاية الفكرية تتنافى مع مقتضيات الإيمان الصحيح ومنه إهلاك الأقوام الكافرة، ليس ضربا من ضروب الإكراه بأي سبيل، وأنَّ إزالة جذور الكفر، ورواسب الضلال المتراكمة صار حتمياً كقانون تتحكم في ظهوره شروط معينة، وأسباب ظاهرة.

نجملها في أنَّ قانون الإزالة، لا يطبق على قوم إلا بعد اجترائهم على عرقلة قافلة الإيمان وتضييقهم لمنافذ النور، وفقدهم لكل مبررات الوجود بحيث يصبح قانون الإهلاك « أمراً مقضياً ولازماً ولأن يكون اندثارها نتيجة لفساد النظم أقرب إلى العدالة من أنْ تندثر نتيجة زلزال أو بركان ...الخ، فضلا عن أنَّ اندثارها قدم درسا للأمم التي تلتها، فلم يذهب أدراج الرياح و يختلف الأمر بالنسبة للرسالة المحمدية، فلا نجد أثرا لمعجزة، و لا نجد تهديدا بعذاب دنيوي و هذا الاختلاف الجذري هو ما يعود إلى أنَّ رسالة محمد-ﷺ - شاملة لكل البشرية، وإنَّها خاتمة الرسالات »[2] وجاءت لبلورة الصياغة الكاملة لدعوة الرسل، بإقرار الحوار مبدأ للإيمان ووسيلة للاقتناع والتصديق.

1- الأنبياء 77.

2- حرية الاعتقاد في الإسلام ص26.

وبالتالي إنَّ تدرج المعجزات والخوارق وفق مراحل النضج الإنساني[1] تجسد الفعل الإلهي المباشر، في صور خارقة للقوانين الكونية، ومن جهة يمكن اصطلاح الفعل الإلهي غير المباشر على اختيار الإنسان وحريته المندرجة ضمن المشيئة العلوية[2] وفي ذلك اكبر بيان على أنَّ إهلاك الأقوام الكافرة، بعد مراحل الإنذار والتحذير من باب إقامة الحجة وتحمل مسؤولية الفعل سلباً أم إيجاباً، ويترب عنه النتيجة الفاصلة بالنجاة أو الهلاك في إطار العدل الإلهي وسنن العقاب والثواب.

ومن ذلك ارتباط قصص أولي العزم بسنن و قوانين شاملة، واكبت تطور المجتمع الإنساني بقيادة الأنبياء الرواد "والقرآن العظيم إذ تحدث عن سنن الله في المجتمع الإنساني، فإنه يتحدث عنها كحلقة في سلسلة النظام الكوني القائم على التناسق بين عناصر الكائنات الوجودية، تناسقا تؤدي بها عملها الذي تقتضيه طبيعة وجودها في مكانها من الحياة، فهو يتحدث عن نشأة هذا المجتمع نشأة استقلالية النوع، ولكنه مرتبط أشد الارتباط بهذه الارض، يعيش عليها لأنه منها بمادته خُلق و إليها بهذه المادة يعود بناءً اجتماعيا ينبع من تفكيره و أخلاقه، وطرائق عيشه، ومراحل أطواره الاجتماعية صعودا وانحدارا في منازل الوجود المقدر له."[3]

ونخلص إلى أنَّ الالتزام بالتصور الثابت لا يصادم ذاتية الفرد، لأن السنن الإلهية هي الصمام الضابط لحرية الإنسان، بإمداده بمقومات البناء الهادف، وهذا ما سنفصل فيه من خلال المبحث الموالي.

1- محمد صفوت، القصص في القرآن الكريم، مكتبة مصر 3 شارع كامل صدقي القاهرة ص110-111.

2- النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ ص138-140.

3- محمد الصادق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم، الدار السعودية للنشر و التوزيع ط3/1404هـ 1984 ص26.

وبناء على ما سبق نصل إلى الأتي :

1- احتفال المنهج القرآني في عرض قصص أولي العزم، بإبراز البعد العقـــدي كمحـــور أولي، تندرج تحته كل المحاور والذي يتجسد أساسا في وحدة الرسالة كقاسم مشترك، مشكلاً في ذلـــك منظومة قصصية.

2- ويظهر حرص المنهج القرآني في عرض وحدة الرسالة في قصص أولي العزم، كحقيقة كاملة، غير خاضعة للتطور، أو التجزئة، والثابتة الأصيلة، التي لا تقبل الإضافة الإنسانية، المســـتقلة عـــن شخصيات أولي العزم.

3- تتجلى جمالية عرض وحدة الرسالة في قصص أولي العزم، في وحدة السورة، و في الســـور المختلفة، مجسدة التناسق البنائي مع التناسق السنني في وحدة جامعة.

4- جمالية التناسق السنني في قصص أولي العزم بين السنن الإلهية و الحرية الإنسانية، بين حتمية القانون، وذاتية الإنسان، فالعلاقة وثيقة بين الإيمان و الحرية، فمن جهة الحرية شرط للإيمان و مـــن جهة أخرى هي ثمرة من ثماره .

5- جمالية التواشج بين الإيمان و الحرية في قصص أولي العزم تتجلى كحركة تغييريـــة على مستوى الوجدان لتنعكس آثارها على مستوى المكان.

6- جمالية التناسق السنني في قصص أولي العزم تهدف إلى فهم السنن الإلهيـــة، لأن في ذلـــك تعزيزا للحرية الإنسانية باستكمال شروط الفعل الناجع، نحو البناء والتعمير.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني

جمالية عرض البعد الاجتماعي في قصص أولي العزم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة:

إنَّ أهم حصيلة وقفنا عليها في المبحث الأول، هي جمالية التناسق السنني، ووحدة القانون من خلال عرض قصص أولي العزم، في وحدة السورة القرآنية، أو في السور المختلفة.
وبالتالي كان المنطق في هذا المبحث في محوره العام، من المنظومة القصصية في سورة الأنبياء، مع الاعتماد في جزئياته على جمع الآيات المتفرقة، لإضاءة الظواهر المطردة من كل زواياها.

ولأن الهدف من الدراسة هنا هو عرض جمالية البعد الاجتماعي في قصص أولي العزم، والذي يتمثل أساسا في حصر الظواهر المتكررة، والسنن العامة في المجتمعات، بغض النظر عن بنية القصص سواءً في وحدة السورة أو في السور المتفرقة، للوصول إلى جمالية التناسق السنني بين وحدة الرسالة وحركة المجتمع.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول

جمالية عرض البعد الاجتماعي في قصص أولي العزم

أولا: البعد الاجتماعي في قصص أولي العزم

عرفنا في المبحث الأول أن القاسم المشترك الذي يختزل كل المسافات الزمانية والمكانية، ويوحد الأسماء هو وحدة الرسالة، الرسالة الربانية، الحقيقة الكبرى التي توارث لواءها أولوا العزم خاصة والتي تم عرضها في بنية قصصية تنبض بالحركة والحياة، مجسدة في شخوص ناطقة، دون قصد لتمجيد سيرهم، أو تخليد مناقبهم، وإنما القصد الجوهري من عرض رسالة التوحيد، هو إصباغها على الواقع الاجتماعي.

وقصص أولي العزم صورة شاخصة، تعبر عن حركة المجتمعات الإنسانية في تفاعلات البناء والهدم، من خلال تمثلها التصور الصحيح أو رفضها له "وما حققته من إيجابيات، وما تردت فيه من سلبيات وما نشأت فيه من ظواهر اجتماعية متناقضة، ومتضاربة، ولا يخفى ما في ذلك من بعد إجتماعي مقصود، ومن معرفة تتصل بسنن الاجتماع الإنساني"[1] ومحاولة تتبع الظواهر المتكررة لا تكون بمعزل عن فهم النواميس العامة، التي تتحكم في سير المجتمعات، بل إن ذلك متساوق، غاية في الاتساق.

1- محمد التومي، المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، الدار التونسية للنشر المؤسسة الوطنية الكتاب ط2 ص79.

ومن تتبعنا للمنظومة القصصية في سورة الأنبياء، وقفنا على منافحة الأنبياء والرسل، لتوصيل التصور الصحيح، وما يترتب عنه من صلاح اجتماعي، لأن الصلة وثيقة بين "طبيعة التصور الاعتقادي وطبيعة النظام الاجتماعي، تلازماً لا ينفصل، ولا يتعلق بملابسات العصر والبيئة، بل إنَّ هناك ما هو أكثر من التلازم، هناك الانبثاق الذاتي.

فالنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود، ولمراكز الإنسان ووظيفته، وغاية وجوده الإنساني، وكل نظام اجتماعي لا يقوم على هذا التفسير، هو نظام مصطنع لا يعيش، وإذا عاش فترة شقي به الإنسان، ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتما، فهي ضرورة تنظيمية، كما أنها ضرورة شعورية"[1].

وعلى هذا الأساس عرضت المنظومة القصصية في سورة الأنبياء التناسق السنني، بين وحدة القانون وحركة المجتمع، على أساس أنَّ أولي العزم أرسلوا إلى مجتمعات قائمة بذاتها، بنظمها، وتقاليدها، لمعالجة ما عارضها من اختلال وفساد، نتيجة انحرافها عن التصور الصحيح، فمن تحليل المنظومة القصصية في سورة الأنبياء، وجدنا إشعارات تدل على عمق التصادم بين الرافضين للتغيير والمؤمنين.

ويكشف سياق المنظومة القصصية عن حجم الهوة السحيقة، التي ولّدت الصراع بين طبقات المجتمع وعلى مر العصور وعلى اختلاف البيئات، لم تغير المعارضة موقفها، و لم تبدل طبيعتها، ورغم حرصها على تطويق الرسالة الربانية الهادية، إلا أنَّ الانتصار في النهاية لدعوة الحق.. وفق القانون السنني العام، الذي يتحكم في حركة المجتمع، ومنه لا تظهر قيمة رسالة التوحيد إلا في حركتها الفاعلة في المجتمع.

ثانيا : جمالية عرض البعد الاجتماعي في قصص أولي العزم

تعرض المنظومة القصصية في سورة الأنبياء، لقصة الإيمان رهينة في مسار أولي العزم مرتبطة بالمعارضة، ولو كانت قضية الإيمان رهينة الوجدان، لما كان هناك صراع اجتماعي وذلك على أساس أنَّ الإيمان أكبر مولد للطاقة التغييرية، على مستوى الوجدان –الذات– ثم على مستوى

1- خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ص27.

– انظر محمد باقر الصدر،فلسفتنا،دار التعارف للمطبوعات بيروت،ط15/1410هـ 1989م ص11.

المكان – المجتمع – وهذا نجده شاخصا، مطبق الملامح في قصص أولي العزم، في تناسق سنني معجز.

ومن جهة أخرى، تتجلى جمالية التناسق السنني، في عرض قصة الصراع الأزلي بين دعاة الإيمان ودعاة الكفر في قصص أولي العزم مسايرة لحركة المجتمع الجديد لبيئة الرسالة الخاتمة، وقد تفرقت حلقات القصص وتوزعت في السور وفق تنجيم القرآن، متسقة جماليا مع مقتضيات الواقع، موجهة لخطى الدعوة، وهو يوظف قصص الأولين بما يخدم الحاضر والمستقبل.

وبما أن التصور مولد التغيير، من الوجدان إلى المكان وحركة التغيير في قافلة أولي العزم دائما تصطدم بالمعارضة، كلما سار بها نبي من الأنبياء شوطا، فمن الضروري بمكان تتبع خلفيات الصراع.

لأن جمالية عرض البعد الاجتماعي في قصص أولي العزم تظهر في تتبع الظواهر المطردة و السنن العامة المواجهة لمسار رسالة التوحيد، للوصول لجمالية التناسق السنني في حركة المجتمع.

ثالثا: جمالية عرض التناسق السنني في حركة المجتمع

أ- خلفيات الصراع

الانحراف في التصور تظهر عوارضه الخبيثة في المجتمع فسادا وطغيانا وأهم هذه العوارض المرضية المناهضة، لأي تحرك نحو الإصلاح، هي أعلى قمة في هرم المجتمع، الوجهاء أصحاب المكاسب خوفا على مواقعهم " ولم يتجاوب الأنبياء مع هذه الاعتراضات لأنهم انطلقوا في رسالتهم من أجل تحطيم الفوارق الاجتماعية المصطنعة التي تجعل من المال والنسب والمركز الاجتماعي والقوة المادية، أساسا للتقييم لينطلق الناس على مسيرة السواء في مقياس الإنسانية المرتكزة على العمل الأفضل الذي تمثله كلمة التقوى، وعلى هذا الأساس فإنهم يلاحظون في هذه الاعتراضات في ذهنية ضيقة مستكبرة تتنافى مع الخط الرسالي الذي يؤمنون به."[1]

1- محمد حسين فضل الله،مع الحكمة في خط الإسلام،مؤسسة الوفاء بيروت ط1/1406هـ 1985م ص30 .

- أنظر العقيدة الإسلامية و الإيديولوجيات المعاصرة ص61.

وتستند على أسس باطلة، وخلفيات هشة، هي العرف الفاسد ويتمسكون بالموروثات التقليدية طمعاً في بقاء مكاسبهم الاجتماعية حتى أضحت سمة بارزة وخاصية مميزة في قصص أولي العزم.

1-الهيمنة الطبقية

تعرض قصص أولي العزم لخلفيات الصراع بين المتمسكين **بالأوضاع** القديمة، والإرث البائد، وبين دعاة التغيير الاجتماعي.

باعتبار الموروثات التقليدية نواة الصراع، بتحكيمهم الأعراف الفاسدة القاضية ببقاء مصالحهم، ومراكزهم الاجتماعية، كظاهرة مطردة من نوح إلى محمد – عليهم السلام – جميعا، والنماذج الموضحة في الجدول، تعكس الخلفيات الهشة التي يرتكز عليها الصراع الاجتماعي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النماذج	الآيـــــــــــــــــــة	السورة	الرقم
نوح - عليه السلام -	﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾	الشعـــراء	115-111
إبراهيم - عليه السلام -	﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾	الأنبيـــاء	61
موسى - عليه السلام -	﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾	القصص	38
عيسى - عليه السلام -	﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾	آل عمران	55
محمد - ﷺ -	﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾	الأنعام	53-52

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نوح -عليه السلام- أول موقف نبوي متحرك، في قصص أولي العزم[1] و يظهر رد فعل قومه في رفضهم اتباع العامة في إيمانهم ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[2].

يعرض السرد القصصي خلفيات الصراع في قصة نوح - عليه السلام - الذي يحدده الموقع الاجتماعي الذي خوّل للمعارضة الحل والعقد، والأمر والنهي، وهم لا يقبلون مهما كان الحال مساواة بينهم وبين العامة "إنهم يحكّمون العرف الاجتماعي ليجعلوا منه حجة وهذا العرف يتمثل عادة في أن أصحاب الرأي في كل مجتمع هم سادته ووجوهه ورأيهم في مجموعهم هو مقياس الصواب والخطأ، حيث من غير المألوف أن يتفقوا جميعا، أو أغلبية على الخطأ .

ومن هنا يأخذ خصوم نوح حجة العرف، وكأنهم يقولون له إنّ أصحاب الرأي في الناس عادة هم سادتهم لأن عقولهم ترفعهم إلى مكان السيادة ولو كان أتباعك من وجوه الناس لحكمنا بأنك على صواب لاتباع أصحاب الرأي إياك، ولكن أصحاب الرأي لم يتبعوك، و لم يتبعك قط إلا دهماء الناس،وأخسهم مكانا في المجتمع "[3] وتتكرر سيادة الموروثات التقليدية مشكلة أكبر خلفية في الصراع، في ظاهرة مطردة.

ويعرض السياق القصصي في سورة الأنبياء لموقف الخاصة، عند مفاجئتهم بأصنامهم حطاما، وربما منهم القائمين على سدانة المعبد و لهم سلطة نافذة بدليل إصدارهم أمر إحضار إبراهيم -عليه السلام- ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[4]، وفي ذلك دلالة على مكانتهم الخاصة التي تخول إليهم القيام بشأن المعبد، وأيضا من إحساسهم بالمسؤولية المباشرة على ما حصل للأصنام ونظرتهم للفاعل الذي تجرأ على تحطيم الأصنام نظرة حنق وغيظ لأنه تجرأ على مكانتهم في المجتمع، ومنه أرادوا وبيتوا التنكيل بإبراهيم وعلى مشهد من الناس حتى يقطع دابر الفكرة

1- مع الحكمة في خط الإسلام ص30.

2- الشعراء / 111-115.

3- د. عبد الحليم حفني،أسلوب المحاورة في القرآن ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ط1985/2 ص 73-74.

- أنظر محمد الغزالي،الإسلام و الاستبداد السياسي،دار الكتب الحديثة مصر 1961 ص75.

4- الأنبياء / 61.

الجديـــدة، ولرد اعتبارهم فهم يعتبرون ما لحق بأصنامهم من هوان، إهانة شخصية لحقت بهم، ولابد من التنكيل بالفاعل، حتى لا تتزعزع مكانتهم عند العامة.

والسرد القصصي يتضمن خلفيات الصراع، في تناسق جمالي معجز مع ما جاء سابقاً.

ومع قصة موسى- عليه السلام - يتطور الموقف من الواجهة والرياسة إلى تأليه الذات، لإحكام قبضـــتها على المستضعفين ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾[1] وهو يتسق مع ما يعرضـــه الســـرد القصصي بداية ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[2] ورغم إيجاز النص إلاّ أنّ دلالته وافية شاملة لكـــل الممارسات الشنيعة التي أفرزها استكبار فرعون وعلوه في الارض، من اختلال في الطبقات الاجـــتماعية، بســـبب تميزه الطبقي الجائر بين الوجهاء من بطانته المقربين، والمستضعفين من بني إسرائيل المسخرين ماديا و معنوياً، باستحلال دمائهم وأعراضهم[3] .

وهذا الفساد الاجتماعي، ناتج عن فساد التصور من جراء إدعاء الألوهية عدوا وبغيا.

ومـــن الصراع بين الوجهاء والفقراء في قصة نوح -عليه السلام- تظهر الهيمنة الطبقية في قصة موســـى - عليه السلام - في صراع المستكبرين والمستضعفين، فالوجهاء استكبروا عن الحق ووقفوا في مواجهـــة عجـــلة الـــتغيير، ومـــن جهة مقابلة وجد المستضعفون في هذه الحركة انتصارا لذاتهم المســـحوقة، مـــا دامـــت رسالة التوحيد " لا تتحرك في حياة المجتمع لحماية الامتيازات الطبقية، للطـــبقات المـــترفة، بـــل كانت على العكس من ذلك، حركة واعية في سبيل الحد من امتيازاتهم الظالمـــة، ورفع مستوى الطبقات المحرومة في المجتمع، ولذا كان الأغنياء المترفون هم القوة المضادة، الـــتي وقفت في وجه رسالة نوح بينما كان الفقراء الذين هم أراذل المجتمع حسب تعبير الكافرين هم اتباع الرسالة وجنودها المخلصون المقربون من الله ورسوله. "[4]

1- القصص 38.

2- القصص 4 .

3- محمد صالح الخضري، منهج الدعاة إلى الله في رحاب سورتي الكهف و القصص، دار النفائس الأردن 1998 ص86.

4- الحوار في القرآن ص 30.

والموقف مع فرعون وعتوه يتميز بانسحاق كامل للمستضعفين لدرجة استمراء الذل، بعد أن تعطلت فيهم قوى الحياة من خلال رهن مصائرهم عند صاحب السطوة والسلطة، "وبذلك يتحول انسحاق الضعفاء إلى عبادة ذاتية، يشعرون فيها أنهم يمارسون قناعاتهم الروحية"[1]، ويجدون تبريرا مقنعا لخضوعهم، ويستلذون استكانتهم وضعفهم مما لا يترك سبيلا للتمرد أو الانتفاضة، لتغيير الوضع، و لا يثقون في أي دعوة أو حركة للتغيير، بعد أن استوطنت عقولهم قداسة ما فرض عليهم من هوان ومذلة.

وهذا نموذج أخر للاستضعاف لا يمثل القاعدة الصلبة التي قامت عليها الدعوات، وإنما يمثلون الركون والتقاعس، والموقف الفرعوني أكبر تجسيد للاستخفاف بعقول العامة[2] من المستضعفين، ومخاطبتهم برداء القداسة، كإله يجب على الناس طاعته والخضوع لسطوته صاغرين.

والبون شاسع بينهم و بين المستضعفين الذين يستقبلون رسالة التوحيد بشغف الانعتاق من دائرة الضعف، فيفجر في قلوبهم منابع القوة والثبات "لأنها تلتقي بتطلعاتها ومطامحها وأمانيها في الحياة فتحس – من خلالها – بعودة إنسانيتها المقهورة المهدورة إليها وترتفع بها إلى القمم الكبيرة، في الوقت الذي يعمل الآخرون من الطغاة والمستكبرين إلى إبقائها في الحضيض، ولأنها لا تعيش التعقيدات النفسية والروحية والمادية، التي تحجبها عن رؤية الحقيقة والإيمان بما يجعلها بعيدة عن مواقع التعنت و التعصب الأعمى في الحالات التي ترتفع عنها الضغوط المباشرة التي يمارسها الأقوياء ضدها."[3]

ومن ذلك يعرض السرد القصصي شخصية فرعون المستكبر يسعى جهده للاستحواذ على المدارك و البصائر بحيث يصبح الكل لا يبصرون إلا من الكوة التي يحددها لهم ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[4] "هنا فرعون الذي هو رمز "التسلط العام" يريد أن يضع

1- مع الحكمة في خط الإسلام ص27.

2- القصص القرآني إيحاؤه و نفحاته ص257.

3- مع الحكمة في خط الإسلام ص40-41.

4- غافر 29.

الناس الذين يعبدونه، كلهم في إطار وجهة نظره هو التي أرادها ويحول وجهة نظره هذه إلى مثل أعلى بالنسبة للناس، لا يمكن تجاوزه.

إنها العلة القديمة الجديدة التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعوات وانتحال شتى الأعذار في سبيل الحرص والبقاء على المكتسبات الجامدة التي يجب أن تبقى هكذا في قلوب الجماهير، بكل ما فيها من زيف، وبكل ما فيها من فساد، وبكل ما فيها من أوهام وخرافات، لأنَّ تَفَتُّحْ القلوب على القيم الجديدة يشكل خطرا على القيم الموروثة، وهذا بدوره يشكل خطرا على مكانة الطغاة في المجتمع."[1]

وبناءً على ذلك عرض قصص أولي العزم لخلفيات الصراع بين المستضعفين والمستكبرين، كسنة متكررة، و نجد إشارة بالغة القيمة على تعامل المنهج القرآني مع المستضعفين بمعيار رافض للسلبية والجمود وموالاة الباطل احتقارا للذات، وخضوعا للقهر وصم الأذان عن الحق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[2].

وهذا ما نقله إلينا السرد القصصي في قصة إبراهيم، بعد المواجهة الحاسمة في محنة الإحراق ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3] وهذه الهجرة تعتبر من الوسائل غير المباشرة للمحافظة على عناصر القوة بخلق ظروف جديدة لحركة بعيدة عن كل الضغوطات، وعلى نفس النسق سار موسى-عليه السلام- بقوة من ربقة فرعون، ورغم انطباق البحر عليه وجنوده أمام أعينهم[4] إلا أنَّ تأثير السياسة الفرعونية بكل موروثاتها الضاغطة، وقيودها المستحكمة ظلت تسيطر على كل حركة وسلوك، من حنين ظاهر إلى الوثنية[5]، ثم إلى عبادة العجل[6]، حيث كان تحررهم في المكان بالخروج وليس تحررا في الوجدان بالإيمان.

1- النظرية القرآنية في تفسير حركة التاريخ ص178-179.

2- النساء / 97.

3- العنكبوت / 26.

4- يونس / 90

5- الأعراف / 138.

6- طه / 86-88.

وفي قصة عيسى - عليه السلام - ينقل إلينا السرد القصصي، في خصوصية الانتقال المكاني، جمالية التناسق السنني بين وحدة القانون وحركة المجتمع ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

وفي ذلك إشارة بالغة القيمة إلى مقصد سنني عام من رسالة التوحيد ألا وهو إحلال التوازن في المجتمع ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[2]، وظلال السياق توحي إلينا بأجواء الصراع المحتدم بين الرافضين للرسالة، وبين الملتفين حولها من المستضعفين" فالله تعالى لم يرض في سننه في المجتمع أن يذل و يهان المستضعفون، ولأن يطغى ويتجبر المستكبرون، لأنه تعالى خلقهم سواسية، في الطبيعة الإنسانية"[3] وفيه إشارة إلى مصدر القانون المتحكم في حركة المجتمع ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[4].

وهذه الإشارات الجمالية تتساوق مع ما جاء سابقا في قصص الأولين من أولي العزم، وما جاء فيها تضمينا يتسق مع ما صرحت به قصة نوح بداية ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[5]، وهذه الظاهرة ليست رهينة عصر نوح-عليه السلام- بل تعدت وانطبقت في حركة المجتمعات نحو التحرر، من عبادة الوجهاء، مادامت رسالة التوحيد، موجهة أساسا لإحلال التوازن بين طبقات المجتمع.

ومع محمد-صلى الله عليه وسلم - نستعيد الموقف نفسه، وما يحمله لنا من النص السردي من جمال ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ

1- آل عمران / 55.
2- آل عمران / 55.
3- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم ص43.
4- آل عمران / 55.
5- الشعراء / 111-115.

عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ .

ويعرض علينا السياق الظاهرة المطردة في حركيتها المتكررة في قصص أولي العزم، في كشفه عن خلفيات الصراع وما نتج عنه من تقويض للسوروثات التقليدية البائدة، المعارضة لحركة المجتمع، ويكسر " العقلية الضيقة التي ترفض التفكير بكلمات الرسول لتنتقل إلى التفكير بشخصه، وتأبى أن تعيش في أجواء الدعوة لتعيش في الأجواء الذاتية، والطبقية لأتباعها، وبهذا يكون تحديد الموقف خاضعا لشخصية الداعية الذاتية والاجتماعية ونوعية الأتباع المادية، والطبقية لأتباعها، دون أن يكون للفكرة أي حساب لربهم، سواء في ذلك معطياتها الروحية والإنسانية في الإطار المستقبلي لحياة الأمة ."[1]

ونخلص أنّ المعارضة التي تقوم قائمتها لمناهضة ماجاء به الرسل من وحي إلاهي ، تستند إلى خلفيات هشة للمحافظة على وجودها، تدير دواليب الصراع باسم القيم الموروثة، ليس فقط بتكريس عبودية طبقة لطبقة، وإنما محاولة لإخضاع مجتمع لسطوة الماضي بإرثه الفاسد، ونتج عنه الصراع بين القديم و الجديد أو تقليد الأولين، ومن الهيمنة الطبقية إلى الهيمنة التراثية البائدة.

2- الهيمنة التراثية البائدة

تعرض قصص أولي العزم لخلفيات الصراع الاجتماعي، لفضح العقليات الجامدة، وكشف المسالك السلبية التي ترتهن الإنسان في دائرة مغلقة، يدور فيها ببلادة، ولا تحدثه نفسه بالانعتاق، فقط لأنه وجد أباه يفعل ذلك، لتبرير الانصراف عن الدعوة الجديدة دون إعمال الفكر في معطياتها بعبادة التراث البائد وتقليد الأوليين، وهذا ما سنعرضه في الجدول الأتي :

1- الحوار في القرآن ج2 ص22

النماذج	الآيـــة	السورة	الرقم
نوح -عليه السلام-	﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾	المؤمنون	24
إبراهيم -عليه السلام-	﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾	الأنبياء	53-52
موسى -عليه السلام-	﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ، وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾	يونس	78
عيسى -عليه السلام-	﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾	مريم	29-28-27
محمد -صلى الله عليه وسلم-	﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾	الزخرف	22

ويحمل علينا السرد القصصي جمالية التناسق السنني،من خلال كشف خلفيات الصـــراع، التي تظهر باستمرار في رفض الجديد واستنكاره،وهذا على لسان قوم نوح-عليه السلام- ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾[1] ، وهو في الحقيقة مشجب مهترئ للمحافظة على مركزهم الاجتمـــاعي،حـــتى أضحت هذه الآفة طبيعة مشتركة على مر العصور.

1 ـ المؤمنون / 24

ويتكرر الجواب مع إبراهيم-عليه السلام- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾[1] ويحرص النص السردي على نقد هذه الظاهرة لما تسببه من تعطيل للإدراك والوعي والركون إلى التقليد العقيم "بوصفه آفة اجتماعية خطيرة تعوق المجتمع، من الخروج مما يتردى فيه من سلبيات، وتمنعه من التحول إلى المفيد، والأفيد، وتحجب الناس عن رؤية الحق، وتبعدهم عن إصابة العدل، وتصدهم عن السير على بصيرة، فضلا عن كونها تميت فيهم جذوة الإحساس، وتذيب سلطان مداركهم، و تقتل طموحهم نحو التعلق بالأفضل وتفقدهم عنصر الشخصية، وتجعلهم أتباعا، لا قدرة لهم، وهوامش عرضية غير ذات موضوع."[2]

والسرد القصصي يعالج الظاهرة، لتقويض الحواجز المعطلة، لقوى الإنسان، لتبديد كل الدواعي الباطلة لتجريده من حرية قبول أو رفض ما يعرض عليه على هدى وبصيرة، و إرساء دعائم مشاركته الفاعلة، بالاختيار المسؤول عن التراكمات التقليدية البائدة.

وعلى هذا النسق جاء الرد في محاجة إبراهيم -عليه السلام- رد فيه قوة المنطق، ومنطق القوة، لكسر الموروثات المتحجرة، في صورة تحطيم الأصنام، لزعزعة التحجر الذهني النابع من قصور في النظر وتقوقع في سجن التقاليد الضالة المضلة ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[3] تشنيع لهذا المسلك البليد، لأنَّ إسباغ القداسة على القديم، دون إعمال الفكر جمود وبلادة.

ونلمس تفصيلات ضافية في قصة موسى-عليه السلام- ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[4]، وفيه تجليات لما يدور في نفوس المعارضين، من رفض للجديد، لمجرد الخوف على انقلاب الأوضاع لغير صالحهم، لأنهم في حقيقتهم يرفضون إحلال التوازن الاجتماعي، ويرفضون التنازل عن مكاسبهم واتباع ما اتبع

1- الأنبياء / 52-53.

المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص136-137.

2- الأنبياء / 54.

3- يونس / 78.

المستضعفون، وهو رفض تافه و غير مؤسس، رفض من لم يملك حجة ولا يريد استعمال عقله للبحث عما يقنعه، فلا يجد إلا التصلب والمكابرة.

ومع عيسى- عليه السلام - نجد إشارة لموقف القوم من رؤية مريم البتول تحمل وليدا وهي لم تعرف زواجا من قبل، وإن كان الموقف في صورته العامة طبيعيا، وعاديا، في تصويره للمفاجأة الكبرى التي فاقت التصور ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾[1] فإن الموقف أيضا يحمل معه تجليات العقلية الرافضة للجديد و جعل الماضي معيارا للصلاح أو الفساد ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾[2].

والمفروض أن ظروف التنشئة الخاصة والمميزة بالتبتل والاستقامة في حاضرها اكبر حجة على اصطفائها بحمل المعجزة المتفردة، لكن خلفيات الصراع تتجلى في مكابرة كل الدلائل والبراهين وإصرار فئة على اضطهاد عيسى-عليه السلام - وعدم التورع في التآمر عليه، خوفا على ضياع مكاسبهم، وأدى بفئة أخرى لاعتباره إله أو ابن إله، بعثا للموروثات الوثنية البائدة﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3].

والنص السردي يفضح المسلك الذي اتخذه النصارى، وهو إحياء التراث الوثني في تقديس الأشخاص، والتسليم بما يقوله الأحبار والرهبان دون إعمال فكر أو اقتناع، واتخاذهم أربابا في الخضوع والانقياد.

1- مريم / 27-28-29.
2- مريم / 29.
3- التوبة / 30-31.

وعلى هذا الأساس تتجلى جمالية التناسق السنني في حركة المجتمع في اختزال الأحداث والوقائع في ظاهرة واحدة ومتكررة ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[1]، وهو خطاب يصل واقع الرسالة المحمدية بوقائع قصص الأولين، في تساوق معجز المقصد منه كشف طبيعة المعارضة، كظاهرة متكررة [2] لتسليط الضوء على انعكاساتها المعرقلة لحركة المجتمع نحو الصلاح.

ومنه نخلص إلى أن جمالية التناسق السنني في حركة المجتمع تظهر في حسن توظيف البنية القصصية في حركيتها بالوقائع والأحداث، لكشف خلفيات الصراع الاجتماعي والتي ترتكز على الهيمنة الطبقية، والهيمنة التراثية البائدة، خوفا على المكانة الاجتماعية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1ـ الزخرف / 22.

2- الظلال ج25 ص3182.

- تفسير القرآن العظيم ج4 ص126.

المطلب الثاني

جمالية عرض التناسق السنني في قصص أولي العزم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولاً : التناسق السنني بين وحدة القانون و آليات الصراع

بعد تقويض الخلفيات المهترئة، التي تستند عليها المعارضة، تسعى لتطويق الدعوة الجديدة، بعد فشل التموقع على الموروثات التقليدية البائدة، وإسقاط حجج عبادة الأباء تتحفز دواليب الصراع للمجابهة، بشحذ آلياتها المعنوية والمادية، لأن تضييع الماضي بكل تركاته معناه ضياع الحاضر والمستقبل.

وهي تتسق جماليا في اختزالها لتفاصيل الزمان والمكان، مشكلة ظاهرة مكررة، وسنة مستمرة على اختلاف الأسماء[1]، والصراع بين المعارضين والمؤمنين اتخذ طابعًا واحداً على خط تصاعدي[2]، في قصص أولي العزم، وكانت البداية بالآليات المعنوية، باستعمال كل أشكال الضغوطات النَفْسِيَة، لاحتواء رسالة التوحيد وإفراغها من محتواها، ثم كان التصعيد، بتوجيه الآليات المادية رغبة في القضاء على دعوة التوحيد، للمحافظة على المراكز الاجتماعية وقد ظهر الصراع في شكل ردود أفعال متشابهة،طالما كانت رسالة التوحيد تصور وفعل وحركة تغيير شاملة.

1- علي جابر الحربي،منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية،الزهراء للإعلام العربي،ط1/1406 – 1986 ص153.

2- صفي الرحمان المباركفوري،الرحيق المختوم،دار الوفاء للطباعة والنشر القاهرة شركة الشهاب الجزائر 1408هـ 1984م ص97.

أ-آليات الصراع المعنوية

لقد اتسم الصراع في بدايته بنشر الشبهات الكاذبة، وتلفيف الافتراءات الباطلة، ثم تطور إلى الإيذاء المعنوي بالسخرية والاستهزاء.

1- ترويج الشبهات (الدعوة والدعوة المضادة)

تعد من أخطر آليات الصراع، لأنها تعمد إلى الدسائس والافتراءات، لصرف النلس عن رسالة التوحيد،وتبرير انصرافهم في ذات الوقت وذلك من أجل" تشـــويه تعاليمـــه، وإثـــارة الشبهات وبث الدعايات الكاذبة، ونشر الإرادات الواهية حول هـــذه التعـــاليم وحـــول ذاتـــه وشخصيته، والإكثار من كل ذلك، بحيث لا يبقى للعامة مجال في تدبر دعوته."[1]

وهي حملة دعائية مضادة وتتخذ الأباطيل، والأكاذيب وسيلة، وأيسر شيء لمن لا يملـــك حجة أن يرمي من يدعوه للهدى بالضلال والزيغ، ونجد الأمثلة الموضحة في هذا الجدول:

1- الرحيق المختوم ص97.

النموذج	الآيـــــــــــــــــــة	السورة	الرقم
نوح -عليه السلام-	﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾	المؤمنون	25
إبراهيم -عليه السلام-	﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾	الأنعام	81
موسى -عليه السلام-	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾	غافر	24-23
عيسى -عليه السلام-	﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ...﴾	الصف	6
محمد -صلى الله عليه وسلم-	﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾	الفرقان	5

وهذه النماذج تنطبق لتشكل ظاهرة مطردة قوامها تشويه رسالة التوحيد، وإثارة الدعاية المغرضة، لزعزعة الملتفين حولها، ففي قصة نوح -عليه السلام- تظهر محاولات شائنة لتسفيه مقامه ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾[1].

والنص السردي ينقل إلينا تجليات الصراع، في مساعي المعارضين لرمي نوح -عليه السلام- بالجنون والسفه، للتشكيك في رسالته وفض صف الملتفين حولها.

1 - المؤمنون / 25.

وعلى نفس النسق يحمل السياق معاناة إبراهيم-عليه السلام- من الضغوطات النفسية التي ولدّها الصراع المحتدم، فهو يجيب بثقة بالغة على تشكيك قومه في مسلكه﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] وهو جواب لرد أهل الباطل والتأكيد على ضعف ما يتمسكون به من أوهام، وهي أضعف من أن تخيف مخلوقا سويا ذا عقل، فما بالك من نبي مرسل من ربّ المخلوقات.

ومع موسى-عليه السلام- نجد جمالية التناسق السنني في عرض آليات الصراع لمناهضة حركة المجتمع، نحو البناء والرقي﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[2] ويخص السياق بذكر أقطاب الصراع فرعون و بطانته هامان وقارون، وهم متضررين من إعادة التوازن إلى طبقات المجتمع، ومصلحتهم في إبقاء الوضع على حاله بإحكام القبضة على المستضعفين والإفساد في الأرض، وبالتالي جاء الجواب يفصح عن نفسية قلقة متوجسة من سحب البساط من تحت قدميها﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وبالمنطق المقلوب لا يجدون أمامهم إلا رمي موسى-عليه السلام- بالكذب، والسحر وإدارة دواليب الصراع بالطعن في مصدر الآيات المعجزات.

وينقل إلينا السرد القصصي عن عيسى-عليه السلام - إتساقا بنائيا و سننيا مع سابقه﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[3]، وفي ذلك تعبير عن تحجر العقليات التي تدير الصراع من أجل تطويق رسالة التوحيد " هذا الذي وضح فيه، جانب التشكيك، إما بالكذب، أو بمحاولة التعجيز أو التنكر لإنسانيته تمهيدا للتنكر لرسالته. "[4]

1- الأنعام / 81.

2- غافر / 23-24.

3- الصف / 6.

4- دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني ص382.

وهذا الأمر متكرر كظاهرة مطردة في قصص أولي العزم، والمقصد من عرضه يتجلى في كشف آليات الصراع المحتدم، في زمن الرسالة المحمدية من خلال عرض جمالية التناسق السني. وهذا ما حاول المعارضين الطعن فيه ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1] وعلى الرغم من إيجاز النص إلا أنه يحمل دلالة قيِّمة على جمالية التناسق السني في قصص أولي العزم، لأن ما يعرض فيها من تساوق واطراد في الظواهر، لكشف آليات الصراع المنطبقة على واقع الرسالة الخاتمة لا يرضي المستكبرين.

وبالتالي كان موقفهم متطابقا مع موقف المعارضة في قصص أولي العزم، وبالإضافة إلى اختزاله لكل المواقف السابقة، من تلفيقات باطلة والرمي بالكذب، والسحر [2] والجنون[3] إلى التعجيز بمطالب مادية[4].

والرد المنطقي على هذه التحديات السخيفة التي تنبعث من عقلية مريضة، هو التأكيد على بشرية الرسول "ولينفي عن الرسالة الإلهية كل بعد عن النطاق البشري، فلا الملائكة يمكن أن يكونوا رسلا إلى جميع البشر، ولا الرسول مفضل على بني قومه بالكنوز والجنان ولا الرسالة تحتمل السحر أو تفجير الأرض بالينابيع أو غيرها من الأعمال التي تخرج عن نطاق البشر."[5]

وفي كل ذلك تظهر جمالية عرض التناسق السنني في قصص أولي العزم، من خلال تكرار وتطابق آليات الصراع كظاهرة مطردة.

2 - السخرية والاستهزاء

وهي من الوسائل المعنوية لإدارة دواليب الصراع، بعد فشل المعارضة في احتواء الرسالة، وصرف الناس من حولها وإثارة الدعايات الباطلة، وتلفيف الافتراءات لتشويه الدعوة، وتعجيز الرسل بمطالب مادية تعبيرا عن همهم الدنيوي، وتفكيرهم البهيمي.

1- الفرقان / 5.

2- الزخرف / 30.

3- القلم / 2.

4- الإسراء / 90-93.

5- صراع المذهب والعقيدة ص 128.

وبعد أن ضاعت جهودهم سدى لإفراغ الدعوة من محتواها الأصيل لم يجدوا تعبيرا عن غيضهم إلا بالسخرية والاستهزاء والتحقير من شأن المؤمنين، وتسفيه الرسل والضحك، وهي سجية من لم يملك حجة مقنعة "وكثيرا من الآيات تصور الطابع النفسي لهذا العناد الذي يلجأ إلى التكذيب، دون أن يكلف هؤلاء أنفسهم البحث عن حجة لما يزعمون من تكذيب وانعدام الحجة وحده برهان على سخف هذا العناد"[1] وتفاهة هذا المسلك، الذي يجسد قمة الانحطاط الفكري، والتردي الخلقي، تعرضه قصص أولي العزم كظاهرة مطردة، تجسد جمالية التناسق السنني في عرض آليات الصراع ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾[2] .

وهذا ما نحاول التطرق إليه في النماذج الممثلة في الجدول:

النموذج	الآيـــة	السورة	الرقم
نوح -عليه السلام-	﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾	هود	38
إبراهيم -عليه السلام-	﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾	الأنبياء	55
موسى -عليه السلام-	﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾	الزخرف	47
عيسى -عليه السلام-	﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾	مريم	28-27
محمد -صلى الله عليه وسلم-	﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾	الأنعام	10

1- صراع المذاهب و العقيدة ص128.

2- الإسراء 77.

- أنظر أحمد رحماني، مصادر التفسير الموضوعي، مكتبة وهبة القاهرة ، ط1/ 1997 ص 45.

ومن أول نموذج ينقلنا السر القصصي إلى جو مشحون بالتضييق على نوح-عليه السلام- ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[1] ومصدر سخريتهم في رؤيتهم إياه قد تحول إلى صناعة السفينة، وقد كان منشغلا بالدعوة إلى التوحيد وظنوا أنهم قد نجحوا في صرفه عن مهمته الرسالية، بيد أن نوح-عليه السلام- يحمل دلالات الصبر والمكابدة التي قضاها في دعوتهم، جواب المستيقن بمصيرهم الذي يستحق السخرية، والضحك.

وعلى نفس النسق نجد قوم إبراهيم-عليه السلام- في انغلاق و تحجر عن استقبال دعوة التوحيد إلا بضرب من الهزل واللعب، وهم يرقون بها إلى مصاف الحقيقة العليا، وذلك للتحقير من شأن مهمته الرسالية ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾[2] ويتناسق مع موقف فرعون وبطانته﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾[3] والقصد من هذا الصراع المعنوي تحطيم القوى النفسية، وإشعار المؤمن بالاستحقار، والدونية، ومحاولة إلحاق معاني الخزي والمهانة بهم تعبيرا عن السخط من تغلغل دعوة الحق و التفاف النفوس حولها، ومقابلة الآيات المعجزات الاستهزاء والسخرية معناه هروب من الحقيقة، بتحقيرها لتنفير الآخرين منها.

و في قصة عيسى-عليه السلام- يصلنا السياق بأجواء الإثارة والذهول الذي أفرزته رؤية مريم تحمل وليدا ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[4]، والأسلوب ينبض بالاستهزاء من التي انقطعت للعبادة كيف تؤتي هذا الصنيع "إن الهزة لتطلق ألسنتهم بالسخرية والتهكم على أخت هارون في تذكيرها بهذه الأخوة ما فيه من مفارقة فهي حادثة في هذا البيت لا سابق لها" [5]، وإن كان من الطبيعي هذا الموقف في بدايته لكن يحمل إلينا إشعارا على استمرار فئة من اليهود على السخرية والاستهزاء بوصفه بما لا يليق بنبي، وهم الذين تآمروا عليه للتخلص منه.

1- هود 38.

2- الأنبياء 55.

3- الزخرف 48.

4- مريم 27-28.

5- القصص القرآني إيحاؤه و نفحاته ص382.

ومن ذلك يعرض النص السردي، جمالة التناسق السني في قصص أولي العزم من خلال توجيه الخطاب إلى محمد-ﷺ- ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1] على أساس أن الاستهزاء ظاهرة مطردة واكبت سير أولي العزم، ويحمل السياق امدادا معنويا لواقع الرسالة الخاتمة.

فهو بعرضه قصص الأوليين، تدعيما مرجعيا وافيا، بآليات الصراع، للثبات في وجه المعارضين كما ثبت أولوا العزم من قبل "وكل هذه الحجج التي أمد الله بها أنبياءه، أتى بها القرآن لتسند الدعوة إلى الإيمان، التي أتى بها محمد، ولتؤكد على أن عقلية الجاحدين واحدة سواء كان في عهد نوح أو عهد موسى أو عهد محمد "[2] -عليهم الصلاة- جميعا، وإن طبيعة الصراع لم تتغير بآلياته وصوره، تجسد في قصص أولي العزم، جمالية التناسق السنني بين وحدة القانون الإلهي، وحركة المجتمع.

ونخلص إلى أن قصص أولي العزم تعرض، الصراع بين ما جاء به الرسل من وحيّ إلهي كمقوم أولي ثابت، وبين العوارض الوثنية المنحرفة المعطلة لحركة البناء الوجداني و المكاني، كظاهرة مطردة، تعرف أشكالا عدة، وتطورا تصاعديا في الوسائل والآليات، من المعنوي إلى المادي، يحكمها في ذلك القانون السنني العام.

ب- آليات الصراع المادية

بعد أن فشلت وسائل الإيذاء المعنوي، من تشكيك وسخرية واستهزاء، كان التصعيد بشحذ الآليات المادية بتسليط أفانين البطش والقوة، وإحكام القبضة على الأنبياء ومن التف حولهم من المستضعفين، حيث مارسوا لردعهم شتى أنواع الاضطهاد لردهم عن الدين الذي ارتضوه، وأشدهم بلاء الأنبياء وألوا العزم منهم خاصة، لما واجهوا من صروف المحن

1- الأنعام 10.

2- صراع المذهب و العقيدة ص213.

والابتلاءات[1]، وتعرض قصص أولي العزم آليات الصراع المادية على نسق واحد في تجسيد جمالية التناسق السنني.

ولمزيد من التفصيل نحلل نماذج هذا الجدول :

النموذج	الآيـــــــــــــــــــة	السورة	الرقم
نوح -عليه السلام-	﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾	الشعـــراء	116
إبراهيم -عليه السلام-	﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾	الأنبيـــاء	68
موسى -عليه السلام-	﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾	الأعراف	127
عيسى -عليه السلام-	﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾	النســـاء	157
محمد -ﷺ-	﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾	الأنعام	34-33

يحملنا السرد القصصي إلى أول مواجهة، لأول انحراف عن رسالة التوحيد، وما نتج عنه من تضييق وكابد، استمرت ألف سنة إلا خمسين عاما، وأعتى شيء في هذه الواجهة أوليتها، والامتداد الزماني ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾[2] والسياق يشير إلى تهديد صريح

1- أنظر الظلال ج7 ص1077-1078.

2- الشعراء 116.

بالرجم، ربما من تأثير مشادات عنيفة ومحاولات الإيذاء البدني، نابعة من هذا الوعيد الذي يفيض بالغل والغيظ والصدود والنكران.

أما إبراهيم-عليه السلام- فالتصعيد كان على أوجه، من خلال إلقائه في النار انتقاما لما حصل لأصنامهم ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[1] ويعرض السرد القصصي لأسلوب الإيذاء المادي، بعد العجز عن المحاجة المنطقية والمجادلة الفكرية، فإبراهيم-عليه السلام- أفحمهم بقرع الحجة الملموسة فكان جوابهم، جواب الخائف الفزع، من تلاشي بقاياها المحطمة من القلوب نهائيا، فكان جوابهم يرمي إلى إحراق الخيبة مع إحراق إبراهيم.

ويتجدد الموقف مع موسى-عليه السلام- في مواجهة فرعون الطاغية النموذج في كل الأزمان ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[2] ويحمل إلينا السياق إشعارا على الدور الذي لعبته حاشية فرعون، حيث كان تصعيد الصراع بإيعاز منهم، لاستفادتهم من الوضع القائم، وخوفهم من خروج الأمر من بين يديهم إلى موسى-عليه السلام- والمستضعفين من بني إسرائيل.

وعلى المسار ذاته يعرض السرد القصصي، معاناة عيسى-عليه السلام- من اضطهاد قومه ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[3] وفيه كشف للحقيقة الكاملة عن إحباط كيدهم، وإبطال محاولتهم لقتله، وفق القانون السنني العام المواكب لكل الرسالات.

وهذا ما يجسده توجيه الخطاب لمحمد-صلى الله عليه وسلم- في تقديم قصص الأوليين من أولي العزم، كنماذج مختزلة وتجارب مؤثرة، مسايرة لتصعيد الصراع في واقع الرسالة الخاتمة.

1- الأنبياء / 68.
2- الأعراف / 127.
3- النساء / 157.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [1] .

وجاء النص السردي حوصلة للتجارب السابقة، ملخصا لكل الملابسات، والظروف ومتحكما في كل المؤثرات والتفاعلات السابقة، واسترجاعها لتوظيفها جماليا بما يخدم حركة الدعوة[2] ويعرض حقيقة الصراع بصروفه وأشكاله من الإصرار على الجحود والمكابرة إلى تعويض الفشل والخيبة بالبطش والترويع، كظاهرة مطردة، تمثل في عرضها جمالية التناسق السنني في قصص أولي العزم، رغم تعدد أشكال الصراع وتنوع آلياته، فإنه محكوم بوحدة القانون السنني العام.

ومنه تعرض قصص أولي العزم جمالي التناسق السنني من خلال اختزال الوقائع السابقة وتوظيفها توظيفا متساوقا مع واقع الرسالة الخاتمة، في صورة دعم مرجعي واف بآليات الصراع، لمجابهة المعارضة.

ثانيا: جمالية التناسق السنني للمنهج الحركي في قصص أولي العزم .

من خلال عرض قصص أولي العزم لآليات الصراع وما تحشده من ترسانة مادية ومعنوية، لإحباط أي محاولة للتغيير نحو البناء والترقي، ظهر الطرف الآخر في الصراع هم الأنبياء والذين معهم، في موقع استقبال المحن الشاقة والابتلاءات العسيرة.

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا هذه الضريبة القاسية وهم أتباع الله، القادر على إبعادهم عن رمضاء الفتن؟ والجواب أنَّ المنهج الرباني، بعيد كل البعد عن الحسابات الشخصية، إلى ضبط سير الأفراد والمجتمعات، وفق سنن كلية وقواعد عامة، لا تحابي أحداً.

1- الأنعام / 33-34

2- أنظر صراع المذهب و العقيدة ص123

أ- الصبر الإيـــجابي

والمحن لا تختلف عن غيرها من السنن الجامعة، فقد صاحبت كل الدعوات في قصـص أولي العزم، وعبادة الآباء بالمقابل تحمل الأذى والثبات، في وجه المحن دليل علـى الاسـتعلاء الإيمـاني والتحرر من كل المؤثرات الداخلية والخارجية[1]، ولا تظهر هذه الثمرة الخالصـة إلا في مواجهـة المواقف الصعبة.

ولهذا تتعرض القصص في حركية أحداثها إلى تصوير أولي العزم، نموذجا في البلاء ومثـالا في شدة المراس والعزم. ومن مقتضيات المواجهة ينتج التصادم والصراع، ومن أجواء التوتر تكـون الدروس ﴿ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[2].

فقصص الأولين من أولي العزم، وما تحمل من صـور الثبـات تقويـة لعـزم محمـد ﷺ وصحبه ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[3]، ودلالة الصبر في قصص أولي العزم، ليس ركون المستضعفين للفساد ورضاهم بالانحراف، بل هو طاقة إيجابية تتفجر عزما وقوة[4].

فهو يشد أزره بخلاصة التجارب السابقة "كما يواسيه بما وقع لإخوانه الرسل قبله مـن التكذيب والأذى، وما وقع منهم، من الصبر والاحتمال، ثم ما انتهى إليه أمرهم من نصر الله لهـم، وفق سنته التي لا تتبدل."[5]

ويحمل النص السردي إشعارات على خصوصية الرسالة الخاتمة، إذ كانت المحن والفتن أشد مراسا وأوسع امتدادا ومنه يتحدد المقصد من عرض أشكال الصراع وآلياته في قصص أولي العزم، للسير على منهج الصبر الإيجابي[6] "ولذا فالدعوة القرآنية على الرغم مـن تدرجـها، ومراعاتهـا

1- عبد المجيد النجار، الإيمان و العمران مجلة إسلامية المعرفة، السنة الثانية العدد:8 / 1997 ص48

- محمد صبيح، بحث جديد عن القرآن الكريم، دار الشروق ط1403/8ه - 1983 م ص130

2- الأنعام 35

3- الأحقاف 35

4- أحمد بهجت، أنبياء الله دار الشروق ط/20 1993 ص361

- أنظر صراع المذهب و العقيدة ص303

5- الظلال ج7 ص1073

6- رؤوف شلبي، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، دار القلم الكويت ط/3 1402ه - 1982م ص260

لمقتضيات المرحلة المكية، لم تتردد لحظة في الكشف عن بغيتها، وعن إرادتها تغيير المجتمع الواقع ومجابهته والتصريح بكونها تسعى إلى استبدال الذي هو خير، بالذي هو أذى، حتى تمارس شعائرها، وتطبق توجيهاتها، وتنفذ أحكامها الفردية والاجتماعية، بكل حرية"[1].

وكل هذا يتطلب طاقة كبرى من الصبر الإيجابي، فالمحنة إعداد وتأهيل للسير قدما على الطريق، وبالإضافة إلى ذلك فإن المحنة تمحيص وغربلة للصف لأن الإيمان ليس لفظا، بل ممارسة، ومسؤولية، ومعياره الحقيقي هو المحن والابتلاءات ﴿أَلَمْ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[2].

ب- المنطق الحركي و الحكمة في الفهم و التطبيق

بعد أن استعرضنا جمالية التناسق السنني بين وحدة القانون وأشكال الصراع، وخلصنا إلى موقف أنبياء أولي العزم، في الثبات في المحن، والسؤال الجدير بالطرح، هل عرضت القصص في أحداثها للقاسم المشترك بين أولي العزم؟ أم أنها اكتفت بتقديم شخصيات دفاعية، لا دور لها إلا الصبر والتحمل؟ وما هو القاسم المشترك بين أولي العزم كطرف فاعل في الصراع، وعامل إيجابي في حركة التغيير الاجتماعي؟

وكتقييم لما سبق، نحاول الوصول إلى جمالية التناسق السنني، للمنهج الحركي في قصص أولي العزم.

إن أهم نقطة نتركز عليها، هي دلالة عرض قصص أولي العزم، بصورة متحركة في أحداث ناقلة للواقع ناطقة مجسدة للخواطر والأفكار؟ في بنية متناسقة تحقق، جمالية التناسق السنني بين وحدة التصور وحركة المجتمع.

وقصص أولي العزم تعرض التصور، بالمنطق الحركي، والأسلوب العملي التطبيقي، وهذه الدلالة العامة، تظهر خاصة في اقتران المنهج التطبيقي بالكتاب، في عدة مناسبات، وكأن في ذلك دلالة إيضاحية لأهمية الممارسة الحياتية والسلوك العملي، في إجلاء الأفكار والاصطباغ بصبغتها

1- المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص81

2- العنكبوت 1-3

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ [1] والعلاقة وطيدة بين الميثاق الرباني وأسلوب تبليغ ما في الكتاب من أفكار، وهذه الآية تحمل دلالة عامة، شاملة لكل الأنبياء بما فيهم أولي العزم، وتأكيد على شخصية أبي الأنبياء، إبراهيم-عليه السلام- ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [2].

والنص السردي، يساوق في عرضه لشخصية إبراهيم-عليه السلام- موصولة في دعائه بشخصية محمد-ﷺ-﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [3]

وعلى لسان عيسى-عليه السلام- ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾ [4].

ثم الخطاب المباشر لمحمد-ﷺ- مختزلا، ما جاء به الأولون من أولي العزم، و متعديا إلى كل السائرين في طريق دعوة التوحيد ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [5].

والمقصد الجامع من عرض هذه النماذج، هو التوصل إلى القاسم المشترك بين شخصيات أولي العزم لتحديد موقفها في الصراع الاجتماعي، أما دراسة بنية الشخصية جماليا فسيكون بإذن الله في الفصل الأخير.

وبما أن النماذج تدور على محور واحد هو الحكمة ودلالاتها، وآثارها في الصراع، وهي "المضمون الفكري الذي يتحرك في الفكر، فيحقق النظرة الصائبة، إلى الأمور، ويتحرك في الواقع، فيتحقق الموقف العملي الصحيح "[6] والأمر يتصل اتصالا مباشرا بمهمة أولي العزم في التبليغ، والتناسق السنني يظهر في القاسم المشترك رغم اختلاف الوسائل وتطور المناهج وتنوع المجتمعات أي الحكمة في التبليغ، مراعاة للظروف والمتغيرات وطبائع المدعوين وذلك في "السير على الطريقة الواقعية

1- آل عمران / 81.
2- النساء / 54.
3- البقرة / 129.
4- الزخرف / 63.
5- النحل / 125.
6- مع الحكمة في خط الإسلام ص19.

للعمل، ونعني بها تلك التي تلاحظ الواقع الخارجي للمجتمع الذي نعيش فيه وندرس ظروفه العقلية والنفسية والاجتماعية "[1].

وبالتالي وبناء على تتبع النماذج القصصية لأولي العزم، نصل إلى أهم قيمة لتحقيق جمالية التناسق السنني بين وحدة التصور وأصالته و تدرج الوسائل وتنوعها، وفق الأحوال والظروف، بتقديم الخلاصة المتكاملة و تطبيقاتها الواقعية من الماضي بما يخدم حركة الحاضر والمستقبل، في حرصٍ على تبليغ رسالة التوحيد، بأجمل الوسائل، اتساقا مع المتغيرات والملابسات.

ومنه يتحدد المقصد من عرض أشكال الصراع، وآلياته في قصص أولي العزم، لإدراك موقعهم الفاعل، سيرا على منهج الصبر الإيجابي والحكمة في الفهم والتطبيق.

ثالثا: جمالية التناسق السنني بين آليات الصراع ووحدة الفعل الإلهي

تعرض قصص أولي العزم، التصور الرباني، مصبوغا بالصبغة الحركية، لتحقق التناسق السنني بين التصور والواقع .

جمالية التناسق السنني التي تتجسد في الظواهر المطردة المتكررة في مسار أولي العزم بدعوة التوحيد، وعلى اختلاف الأسماء وتمايز المجتمعات تنطبق آليات الصراع، مشكلة صورة واحدة، في رفضها وتعنتها سعيا لعرقلة قافلة التوحيد، التي ظهرت كحركة تغييرية شاملة على مستوى الوجدان، تتجسد في الصبر على المحن والثبات في موقف البلاء، وعلى مستوى المكان في إرساء آثار التصور في المجتمع، بالمنهج العملي التطبيقي البَنَّاء، أي الحكمة في الفهم والتطبيق، هي القاسم المشترك في منهج أولي العزم.

ومن السنن الجامعة المتصلة اتصالا كبيرا بالصراع الذي يظهر في هيمنة طبقة المستكبرين على المستضعفين لزعزعة ثقتهم في قيمة التصور الإلهي وفعاليته، لضمان الموقع الاجتماعي محل التراع في تصورهم الضيق، هذه السنة التي لا تخرج عن حكمة الله العلوية، وترتبط أساسا باستكمال أسباب النصر والهزيمة في طرفي الصراع، أو بتحقيق شروط الوجود أو الإزالة.

1- مع الحكمة في خط الإسلام ص 22.

ومن خلال تتبع النماذج القصصية نحاول عرض جمالية التناسق السنني بين آليات الصراع ووحدة الفعل الإلهي.

وهذا ما نجده في هذا الجدول، من خلال هذه النماذج:

النموذج	الآيـــــــــــــة	السورة	الرقم
نوح -عليه السلام-	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ، فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾	العنكبوت	15-14
إبراهيم -عليه السلام-	﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾	العنكبوت	24
موسى -عليه السلام-	﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾	الذاريات	40-38
عيسى -عليه السلام-	﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ، إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾	آل عمران	55-54
محمد -صلى الله عليه وسلم-	﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا، سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾	الإسراء	77-76

مع نوح-عليه السلام- في أوجز نص سردي يختزل مساره الطويل في رقم حركي قياسي ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [1]، والنهاية الحاسمة بالفعل الإلهي المباشر، الإغراق جاءت في السياق نتيجة عن الظلم والفساد "ليس الفردي، بل الفساد الاجتماعي القومي، وهذا ما أكده القرآن بصورة عملية، بما حكاه من أخبار واقعية، فهذه أمة نوح لم تتعرض إلى الهلاك، إلا حينما تأصلت فيها المفاسد الإعتقادية والاجتماعية وانتشرت فيها انتشارا عاما، لم يبق معه أمل في إصلاحها "[2] وبطبيعة الحال لا يوجد إجرام وإفساد أكثر شناعة من مناهضة الرسل، وقطع الطريق أمام قافلة الإيمان والوصاية الفكرية على المستضعفين.

ويعرض علينا السرد القصصي نموذجا متميزا عن سابقه، ويلتقي معه في تدخل الفعل الإلهي بحسم النتيجة لصالح إبراهيم-عليه السلام- وفق سنة مرسومة، بعد تصعيد الصراع المادي ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [3].

وسقوط المعارضة ليس معناه دائما الإزالة، أو الهلاك، مثلما حدث لمعارضة نوح وموسى عليهما السلام وإنما تتضمن أيضا انعدام الفعالية وسقوط الأثر المادي، بهيمنة الإيمان، أي غلبة الاستعلاء الإيماني، وامتداد آثاره في المجتمع، وانحسار الضغط الاستكباري وانكماش موقعه وتأثيره "فهم من حيث كونهم بشر سوف يستمر وجودهم لكن كموقع معارضة اجتماعية للرسالة الجديدة، سوف ينهار هذا الموقع و يسقط"[4] بفضل الحسم الإلهي لفعاليات الصراع لصالح أهل الحق .

1- أنظر العنكبوت 14-15

2- المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص103

- أنظر ابن خلدون،المقدمة،دار الكتاب اللبناني ط2/1979م ص 510-511

3- أنظر العنكبوت 24

4- النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ ص96

وبالنسبة لموسى-عليه السلام- يعرض السرد القصصي بإيجاز معجز، لأشواط هائلة من مسيرته، مع وفاء تام بالغرض ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[1] والغرض يتسق جماليا مع ما جاء سابقا، في قصة نوح-عليه السلام- اتساقا سننيا في النهاية الحاسمة، باعتبار وحدة القانون الإلهي، والسياق يوضح الصلة الوثيقة بين السبب والمسبب، بين النتيجة والمقدمة، والإغراق نتيجة طبيعية، عن الإعراض والجحود واضطهاد المستضعفين والوقوف بينهم وبين الإيمان، فالإهلاك لا يدخل في باب رد الظلم بالظلم، أو الإكراه على الإيمان، بالعكس الإهلاك سنة طبيعية نتيجة المفاسد والضلالات،والمظالم مِعْوَل هدم وسبب سقوط وانهيار الحضارات.

وفي قصة عيسى-عليه السلام- نجد نمطا جديدا في صورته ومتناسقا مع وحدة القانون الإلهي ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ،إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[2].

وينقلنا السرد القصصي إلى أجواء المطاردة، وتصعيد الصراع إلى التآمر على قتل عيسى -عليه السلام- وكان الحسم الإلهي في الوقت المناسب بإبطال المكيدة، وتخليصه من الصلب برفعه إليه، وتطهيره من أهل الكفر، وتتعدى آثار الفعل الإلهي إلى إحلال التوازن في المجتمع، كسنة قائمة إلى يوم الدين.

والربط بين السنة المطردة، والنماذج التطبيقية يتجسد في توجيه الخطاب إلى محمد-ﷺ- ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا، سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[3].

1- الذاريات / 38-40.

2- آل عمران / 54-55.

3- الإسراء / 76-77.

وفي ذلك التحقيق الأمثل لجمالية التناسق السنني بين وحدة القانون ووحدة الفعل الإلهي المباشر، والنص السردي، محكم في غرض القرينة بين النماذج السابقة، وبين السنة الجامعة، شريط متلاحق الصور ومتعاقب الأحداث " عن تجارب السابقين، وتربط فيما بينها، وتوضح أنَّ هناك سنة تجري على كل الأنبياء، الذين مارسوا هذه التجربة- عملية التغيير – وأنَّ النصر سوف يأتي و لكن للنصر شروطه الموضوعية، الصبر والثبات "[1]، وبالتزام المنهج العلمي التطبيقي أي الحكمة في الفهم والممارسة.

ونستشف من السياق أن إهلاك الأقوام الكافرة، قبل الرسالة الخاتمة، اتخذ طابع الاستمرار وذلك نتيجة طبيعية عن مناوءتهم واضطهادهم للرسل والمؤمنين المستضعفين،فهو أجل مرسوم ومحدد لفقدهم مبرري الوجود، الإيمان والعمل الصالح .

وتتكرر المقدمات لتصل بنا إلى نتيجة واحدة، فتصعيد الصراع لإخراج محمد-ﷺ- من دياره، تعبير عن العجز والقصور في احتوائها والحد من تأثيرها في المجتمع " إنَّ السنة التاريخية التي أشارت إليها الآية توضح أنَّ عملية المعارضة إن وصلت إلى هذا الحد، أي إلى مستوى إخراج النبي من هذا البلد، أو ذاك كما حدث للأنبياء الآخرين هنا يقدر القرآن حقيقتين مهمتين أولهما عجز المعارضة عن كل الوسائل، والأساليب الأخرى وثانيهما اختفاء المعارضة وسقوطها "[2].

فالإهلاك لم يكن أبدا اعتباطيا، وإنما سنة عامة، ارتبطت بعلل موضوعية، إذا اجتمعت في قوم حلت بهم دون محاباة، وإذا انتفت منهم، انتفى العقاب "ومعنى ذلك أنَّ هذا النكال الذي انزل على الطغاة، من معاندي القرآن الكافرين، بآياته، ودعوته إلى الخير، والحق مندرج، في قانون سنن الله في المجتمع، فعمل هؤلاء، كعمل من تقدمهم من الطغاة الذين عاندوا الرسل و بغوا على

1- النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ ص108.

2- النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ ص95.

ربهم من آل فرعون، والذين من قبلهم من الطغاة فأخذهم الله بذنوبهم عدلا منه، وقد أخذ هـؤلاء كما أخذ غيرهم ليعتبر من عنده بقية خير "[1].

ومنه نخلص إلى أنّ جمالية التناسق السنني بين آليات الصراع، ووحدة الفعل الإلهي المباشـر تظهر في مدى تساوق الحسم الإلهي بالقانون السنني العام، وارتباط النتائج في الهدم والبناء بعلـل وشروط موضوعية محكمة.

وفي ذلك حرص قصص أولي العزم على إبراز قيمة الوحدة الإيمانية والتي تنعكس في المجتمع بالصلاح والرقي الحضاري، وذلك بتطهير المجتمعات من كل الأسباب معرقلة لحركته البناءة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن ص49.

- انظر المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص101.

وبناء على ما سبق نخلص إلى الآتي :

1- تظهر قيمة رسالة التوحيد، في حركيتها الفاعلة في المجتمع، وتتجلى جمالية عرض البعد الاجتماعي في قصص أولي العزم، في تتبع الظواهر المطردة، والسنن العامة المواكبة لمسار رسالة التوحيد في المجتمعات الإنسانية.

2- حسن توظيف البنية القصصية في حركيتها بالوقائع والأحداث لكشف خلفيات الصراع الاجتماعي، في قصص أولي، التي ترتكز على الهيمنة الطبقية، والهيمنة التراثية البائدة، خوفا على المكانة الاجتماعية.

3- تعرض قصص أولي العزم الصراع بين ما جاء به الرسل من وحيّ إلهي، كمقوم أولي ثابت، و بين العوارض الوثنية المنحرفة المعطلة لحركة البناء الوجداني و البنائي، كظاهرة مطردة، تعرف أشكالا عدة و تطورا تصاعديا في الأشكال والآليات، من المعنوي إلى المادي يحكمها في ذلك القانون السنني العام.

4-تعرض قصص أولي العزم، جمالية التناسق السنني من خلال اختزال الوقائع السابقة، وتوظيفها، توظيفا متساوقا مع واقع الرسالة الخاتمة، في صورة دعم مرجعي واف بآليات الصراع، لمجابهة المعارضة.

5- يتحدد المقصد من عرض أشكال الصراع و آلياته في قصص أولي العزم، لإدراك موقعهم الفاعل، سيرا على منهج الصبر الإيجابي، والحكمة في الفهم والتطبيق.

6- تظهر جمالية التناسق السنني بين آليات الصراع ووحدة الفعل الإلهي المباشر، في مدى تساوق الحسم الإلهي بالقانون السنني العام، وارتباط النتائج في الهدم والبناء بعلل وشروط موضوعية محكمة.

المبحث الثالث

جمالية عرض البعد الحضاري في قصص أولي العزم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تـــوطئة:

إن أهم قيمة انتهينا إليها مما سبق، هي جمالية التناسق السنني بين وحـــدة الرســـالة وحركة المجتمع، من خلال تسليط الضوء على السنن الجامعة والظواهر المطردة، التي تربـــط بـــين الأحداث على اختلاف الزمان والمكان، والتي تشكل وحدة إنسانية متلاحمة .

ويظهر هذا المحور بجلاء من خلال عرض قصص أولي العزم في سور ة الأنبياء، في منظومة قصصية متسقة،رغم أنهم لم يرسلوا في فترة متزامنة، ولا إلى مكان واحد إلا أن التناسق الســنني في الظواهر والآثار يشكل خيطا رفيعا يصل الزمان والمكان بالمحور الجامع – وحـــدة الرســـالة – في جمالية محكمة بنائيا وسننيا .

وإلى جانب ذلك فإن المنظومة القصصية في سورة الأنبياء تعرض القصص في تتابع متجاوزة في ذلك الدلالة الزمنية الشكلية للتتابع، إلى الدلالة السننية الجامعة، لإبراز تواصل الرسالات لتبليـغ الرسالة الواحدة في تكامل وتواشج، و تحقق بذلك جمالية التناسق السنني بـــين وحـــدة الرســـالة

وحركة التاريخ، من خلال إظهار قيمة التصور الرباني في العمران الإنساني وذلك في جمالية عرض البعد الحضاري في قصص أولي العزم .

وفي هذا المبحث نسير على نهج سابقه في اتخاذ المنظومة القصصية في سورة الأنبياء خلفية أساسية في المحور العام،مع الاعتماد في جزئياته على جمع الحلقات المتفرقة لأن المقصد ليس دراسة البنية القصصية، فيتفق حصر النماذج في سورة واحدة، ولكن المقصد هو دراسة البعد الحضاري من خلال جمالية التناسق السنني في حركة التاريخ .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول

البعد الحضاري في قصص أولي العزم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: التفسير السنني و البعد الحضاري

إن أهمية السنن الجامعة والقوانين الكلية، التي تربط بين الأحداث في قصص أولي العـــزم، تكمن في قيمتها في تفسير الظواهر تفسيرا سننيا متجاوزا البنية الشكلية والسطحية إلى البنى العميقة وتمدنا بعطاءات جمالية في عرض قصص أولي العزم، في خطاب موحد، لإنسانية واحدة، تجسـد في تتابعها حلقة متسقة، تظافرت فيها الوسائل وتواصلت فيها الخطـــوات لأداء المقصـــد الكلـــي، رسالة التوحيد .

فرسالة التوحيد التي توارثها أولوا العزم جيلا بعد جيل من مصدر واحد، موجهة أساســـا، لتوجيه المسار الحضاري لحركة المجتمعات "فإرسال الأنبياء إلى الأوساط الاجتماعية المتحضرة يعود إلى قيمة الرسالة، وفعالية مبادئها وجدوى مضامينها، لا تظهر إلا في هذه المجتمعات، حيث يوجـد صنع الإنسان وإنشاؤه الحضاري وحيث يعتري التصورات والتعاملات من الملابسات ما يجعلها في حاجة إلى التعديل والتقويم، والتهذيب، فتأتي الرسالة لتقرر ما يحتاج إلى تقرير، وتعالج ما يحتاج إلى معالجة، حتى لا يحيد المجتمع عن أهدافه العمرانية وحتى لا ينقلب المردود الحضاري إلى أداة تخريب، وإشقاء، وحتى تكون الحياة الاجتماعية نظيفة نظافة تساعد على بقائها من جهة، ولا تخرجها عـــن كونها حياة مجتمع إنساني من جهة أخرى"[1].

1- المجتمع الإنساني ص80.

وتعرضت المنظومة القصصية في سورة الأنبياء إلى التأكيد على أن رسالة التوحيد لم تكن مجرد تصور نظري ، قوامه شعائر تعبدية روحية، تهدف إلى ربط الأفراد بتعاليم تهذيبية خاصة، إنما هي رسالة عملية تواكب تحرك المجتمع، وتوجه سيره وفق سنن البناء وأسباب الرقي العمراني من جهة، وسنن الهدم وأسباب السقوط من جهة أخرى .

و يتوحد الخطاب إلى الإنسانية جمعاء مادامت تحت مظلة التصور الواحد ، تحكمها قوانين سننية عامة.

ثانيا: الوحدة الإنسانية في قصص أولي العزم

تعرض المنظومة القصصية في سورة الأنبياء لمحور القيم الإنسانية، التي نستجلي آثارها العملية، من مسار أولي العزم في المجتمعات، هذا المحور ينبثق من **الوحي** الرباني الذي يعكس آثار الوحدة والتلاحم الاجتماعي من خلال القضاء على كل المظاهر الفاسدة، التي تخل بالتوازن في العلاقات بين أفراد المجتمع الواحد، وتنمي مظاهر الوحدة **الإيمانية** التي تجمع شمل كل المجتمعات تحت لواء التوحيد .

وتطهير المجتمع من آفة الهيمنة الطبقية ، أي استعباد طبقة لطبقة، لا يتم إلا من خلال توحيد الله، والتحرر من عبادة ما دونه والاحتكام لسننه في العمران وضمان مساواة الأفراد أمام سنن الله في الاجتماع، كفيل بالقضاء على البغي والظلم، ومظاهر الفساد وإشاعة العدل والحرية، والوعي بالمسؤولية الجماعية، لترقية المجتمع "فإدراك الإنسان أنه ينتمي إلى كل أكبر وارتباطه بغيره ممن ينتمون إلى نفس الجماعة، التي تؤمن إيمانه يهيآن للحياة الفردية وضعا اجتماعيا"[1].

يظهر من خلال الوعي المشترك لتنمية روابط التعاون، والتكامل بين أواصر المجتمع، ما دامت جذور الإنسانية واحدة، من أصل واحد، ثم تفرعت عنه شعوب وأمم وقبائل ويظهر هذا جليا في ما جاء في سورة الأنبياء من عرض قصص أولي العزم ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[2].

1- يوسف كمال محمد،مستقبل الحضارة بين العلمانية الشيوعية الإسلام ، المختار الإسلامي للطباعة والنشر ط1/1914 ص176.

2- الأنبياء 92.

فالوحدة الإنسانية أصل، والاختلاف عارض بحكم تفرق المنازع، وتضارب المصالح، وتحمل لنا قصص أولي العزم في نسقها المنتظم دعوة للقضاء على بذور التخاصم والعدوان. "لأن في ذلك هدرا لقوى المجتمع وجهوده، وصرفا له عما هو جوهري ونافع، وفتحا للثغرات في صفوفه مما يؤدي إلى تضعضعه وانقراض عقده، وهو ما لا يتفق وما تستلزم كلمة أمة من ضم واجتماع. وتشير الآيات في نفس الوقت إلى أن القرآن يهدف بما تحمل دعوتنا في طياتها من مضامين إلى تأسيس أمة جديدة، على أنقاض المجتمعات الموجودة ، ترتكز على مبادئ توحد وتقرب وإن اختلفت فإن اختلافها لا يتعارض مع كونها أمة واحدة ، لأن الاختلاف في المجتمع الواعي، مظهر صحي، ينمي الأفكار ويثريها ويفتح أمام المجتمع آفاقا جديدة تساعد على بقائه وتقدمه."[1]

وسورة الأنبياء في عرضها لأحداث قصص أولي العزم من الرسل يؤكد على الوشائج الكبرى التي تربط بينهم، ويحث على التمسك بها أفرادا، ومجتمعات كسنن مطردة ثابتة.
ويتجلى لنا في ذلك "الدور الذي يلعبه كل من الفرد والمجتمع، أو البطل والجمهور في عملية صياغة الحدث التاريخي، فالقرآن يكرر دائما، النبي والأمة، ويعتبرهما قطبان أساسيان في الصياغة التاريخية "[2] وأساسها هو عملية التغيير الاجتماعي نحو عوامل البناء، و"تكسب الجماعة الإنسلنية صفة المجتمع، عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق من الوجهة التاريخية، مع لحظة انبثاق حضارة معينة، أما الجماعات الساكنة فإن لها حياة اجتماعية " دون غاية، فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة."[3]

وتعرض المنظومة القصصية في سورة الأنبياء للتفاوت بين أمة وأمة أخرى، وبين مجتمع ومجتمع آخر في الفعل والحركة نحو البناء أو نحو الهدف، وتفرض وقائع قصص الأوليين كدرس تطبيقي لواقع الرسالة الخاتمة.

وفي هذا تعزيز لمعنى الوحدة الإنسانية، التي تتأكد بوحدة الخطاب الإلهي، رغم تعدد الأنبياء، باعتبار الهدف المشترك الذي يجمعهم، والتي تتعدى بدورها إلى الارتقاء بعلاقة الإنسان

1- المجتمع الإنساني ص97-98.

2- النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ ص110.

3- مالك بن نبي ميلاد مجتمع دار الفكر د.ط /1986م ص19.

بإخوانه في الإنسانية "وتأسيسا على عقيدة التوحيد في الإسلام هي جوهر الدين، ينبغي أن تكون هناك وحدة في الإنسانية."[1]

وأي اختلاف متسق مع الأصل الأول هو من صميم التفاعل الإجتماعي الإيجابي النابع من تنوع المجالات، وخصوبة الأفكار وتجدد الخبرات والعمل على مر العصور ويتجلى ذلك في وحدة الإنسانية جمعاء، أمام خطاب الأنبياء فالأجيال كلها أمة واحدة "تتحرر في معارضة الأنبياء والاستجابة لهم ، لأنَّ النفس البشرية واحدة في الماضي والحاضر."[2]

والدليل على ذلك ميثاق الأنبياء الخمسة المتوارث﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[3].

ويستوي أمام هذا الميثاق الرباني كل الأقوام، كما يستوي الكل أمام سنن الله الكلية وهذا الجدول يوضح لنا هذه الوحدة الإنسانية في أصولها وجذورها على اختلاف الأسماء وتعاقب الأزمان.

1- عبد العزيز عبد القادر كامل،المشكلة العنصرية، دار الفكر الحديث اليونسكو د.ط ، د.ت ص28 .

2- أبو زهرة،الوحدة الإسلامية،دار الفكر العربي ص13.

3- الأحـــزاب 7.

النموذج	الآيـــــــــــــــة	السورة	الرقم
نـــوح عليه السلام	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾	العنكبوت	15-14
إبراهيم عليه السلام	﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾	الزخرف	28-26
موسى عليه السلام	﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا، فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾	المزمل	16-15
عيسى عليه السلام	﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾	الأنبياء	92-91
محـــمد ﷺ	﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾	الأنبياء	107-106

نلمس في الخطاب القرآني،الأثر المتعدي يصل الماضي بالحاضر المستمر إلى المستقبل عن طريق العبرة والعظة بحيث نلاحظ في النماذج السالفة وحدة في المواقف واشتراك أمام الميثاق الرباني من أول معارضة؛ فقصة الطوفان لم تتوقف بهلاك الكافرين بل استمر أثرها إلى الأجيال القادمة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

1 - العنكبوت 14 – 15 .

وهذه الدلالة ينقلها لنا السياق القصصي، الذي يحتوي على التجذر والعمق والامتداد معا في قوله﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ فالمقصد لم تطوه الأمواج مع المغرقين، والغاية ثابتة مادامت قافلة التوحيد تسير على خط مستمر، إن الواقعة لم تنته عند قوم نوح عليه السلام بل تعددت واستوعبت في أثرها المعمورة كلها .

ويحملنا السرد القصصي إلى إبراهيم عليه السلام مبرزا بوضوح الرحم الإنساني الجامع في كلمة التوحيد ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ، إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ، فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1] .

وفي ذلك دلالة على التجذر والامتداد لكلمة التوحيد، فهي مستمرة باقية يتوارثها الأنبياء جيلا بعد جيل، ومنه كانت الصلة بين الأصول والفروع، صلة تراحم وترابط ،لانتمائهم إلى المصدر ذاته، وهذه الوحدة تظهر في ما جاء به النص السردي الموالي ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ، فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ، فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾[2] .

وفيه نلتمس جمالية التناسق بين جيلين، وحقبتين متمايزتين والنص السردي يقرن بين موقف فرعون، وموقف كفار قريش من رسالة التوحيد، ويعرض النتيجة الحاسمة من موقف فرعون لتفرغ الوجدان تحسبا لتكرار النتيجة ما دامت مترتبة عن المعطيات نفسها، وهذا أيضا يدعمه ما جاء في شأن النتيجة الحاسمة ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾[3]

دلالة على خلود فرعون كرمز على مر العصور، وتعدي الأثر إلى كل من يشتركون معه في الصفات والمواقف، وبحيث لا يختص بالقوم والبيئة التي أرسل فيها موسى عليه السلام، وإنما يمتد إلى واقع الرسالة المحمدية، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

1- الزخرف 26 – 28.

2- المزمل 15 – 16 .

3- يونس 92.

وعلى نفس النسق يعرض السرد القصصي من خلال قصة عيسى عليه السلام، للوحدة الجامعة بين الأقوام المتفرقة في الزمان والمكان ﴿ والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾، فالآية في تحديدها لهوية عيسى عليه السلام، تبرز أيضا شمولية الهوية الخاصة لكل العصور، ويدعمها في ذلك التقرير المباشر بالوحدة الإنسانية ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [1] " أمة واحدة كما قرر القرآن، معجزة الوجود الكبرى، وأن وحدة الإنسانية ثابتة، لا في الجيل الواحد، بل الأجيال كلها متحدة في نفوس المنحرفين، ومتحدة في نفوس المهتدين."[2]

وتكون الخاتمة على نسق البداية ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[3] وهي خاتمة تمتاز بالحضور الجمالي المؤثر في وصلها بالبدايات، وفي تجسيدها للوحدة الإيمانية، لأن جذور الإنسانية واحدة، متسقة مع المحور الجامع، وتنعكس آثارها العملية في البناء الحضاري والرقي العمراني .

1- الأنبياء 91 – 92.

2- الوحدة الإسلامية ص 14 .

3- الأنبياء 106 –107.

المطلب الثاني

جمالية التناسق السنني بين وحدة الرسالة وحركة التاريخ

أولا: تتابع الرسل

من خلال ما سبق وصلنا إلى أن هناك خواص مشتركة، وقرائن تربط بين أولي العزم من الرسل، وسنن مطردة تواكب سيرهم جيلا بعد جيل، هل معنى هذا أن أولي العزم من الرسل يمثلون شخصا واحدا، وإن كان الأمر كذلك ما سر تتابع الأسماء من نوح إلى محمد عليهم السلام جميعا ؟

إن قصص أولي العزم تعرض في مناسبات في صورة منطبقة الملامح كنموذج واحد، في استقائهم من المصدر المشترك، وتضافرهم في أداء الهدف الواحد، حيث تحقق جمالية التناسق السنني بين وحدة الرسالة وحركة التاريخ وتتابع الأسماء إثر بعض يعود إلى ضرورة تنوع النماذج، وفق تنوع الأمراض الاجتماعية وتباين البيئات.

فالأصول الإنسانية واحدة والمقصد واحد، لكن الوسائل متنوعة طبقا لمقتضيات كل مرحلة وما فيها من متغيرات من طبيعة حركة المجتمعات"وكان من حق العباد على الله أن لا يتركهم في ذلك الضلال، وكان لا بد من رسالة أو رسالات بعدد شعوب الأرض، وحسب استعدادها الفكري، والحضاري والثقافي لتلقي وحي السماء وبعث رسل يبلغون المئات في وقت واحد، يقتضي أن تكون على قدر مستوى من ترسل إليهم ولا بد أن تختلف الشرائع باختلاف الشعوب

وحظها من الثقافة والعرفان، وستعود حال الشعوب كما كانت مثل ما حدث مع أمة نوح، وأمة إبراهيم، وأمم الأنبياء الآخرين كموسى وعيسى وعندئذ يقتضي الحال بعث رسل جدد، وهكذا في ذلك تكرار وإقرار للاختلاف في الشرائع، وتطبيق الأحكام."[1]

وبالتالي تتابع الرسل مسألة منهجية لمواكبة حركة المجتمع، بالتوجيه والإرشاد نحو سنن البناء، وتطهيره من أسباب الانحراف جيلا بعد جيل " وقد اقتضت حكمة الله أن يرسل بعضهم إثر بعض، حتى لا يطول أمد الإنذار على الناس فيفسقوا أو يضلوا مصدقا لقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾[2].

وهذا ينطبق على عرض قصص أولي العزم في السورة الواحدة أو في السور المتفرقة، بما أن الله تعالى أرسل رسله جميعا لتبليغ رسالة التوحيد، فتبليغ هذا المقصد يختلف باختلاف المرحلة التي أرسل فيها كل واحد، وما فيه من اختلاف في الطرائق.

ولذلك نجد بداية، اتجهت الرسالات إلى قرع الحجج المادية بمنطق الملموس "فأخذهم الأوامر الصادعة، والزواجر الرادعة، وطالبتهم بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الإستطاعة كلفتهم بمعقول المعنى جلي الغاية وإن لم يفهموا معناه، و لم تصل مداركهم إلى مرماه، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم، وتنفعل به مشاعرهم، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه."[3]

ثم كان التطور والنضج شيئا فشيئا، حتى كان أوان الرسالة الخاتمة والبشرية قد مرت بأطوار تحضيرية " وكانت الرسالة تناسب كل طور من هذه الأطوار ولا نزاع أن مصدر الرسالات هو الله العلي العظيم، ذو الجاه والسلطان ولكنه جلت قدرته كان يعطي الدواء بقدر طاقة المريض، فكان يعطي البشرية من الهدى والتوجيه ما تحتمله البشرية وما يناسب عودها الذي بدأ ضعيفا ثم اشتد رويدا حتى اكتمل نموه."[4]

1- أحمد عبد الغفور العطار، الديانات و العقائد في مختلف العصور، ط1/1981م ج4 ص119.

2- المومنون 44.

3- محمد عبده، رسالة التوحيد، كتاب الهلال، د.ط ، د.ت ص222.

4- أحمد شلبي، الإسلام، مكتبة النهضة المصرية ط8/ 1985 ص28 .

وفي هذه النماذج خير دلالة على عناية قصص أولي العزم بعرض جمالية التناسق السنني لتتابع الرسل في حركة التاريخ .

النموذج	الآيات	السورة	الرقم
محمد ﷺ	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾	الأنبياء	25
موسى عليه السلام	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ، وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾	الأنبياء	50-48
إبراهيم عليه السلام	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾	الأنبياء	51
نوح عليه السلام	﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾	الأنبياء	77-76
عيسى عليه السلام	﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾	الأنبياء	91-90
محمد ﷺ	﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾	الأنبياء	107-105

وبناء على وقفتنا مع المنظومة القصصية في سورة الأنبياء سالفا نحاول التركيز على قيمة تتابع الرسل في عرض جمالية التناسق السنني في حركة التاريخ، و نجد هذه القيمة ظاهرة ومحورية، لأن المنظومة القصصية في عرضها لقصص أولي العزم تجاوزت الدلالة التاريخية الشكلية للتتابع، إلى الدلالة السننية الجامعة دون نقض للدلالة التاريخية.

وتعرض سورة الأنبياء بداية، للرسالة الخاتمة في توجيه الخطاب لمحمد ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [1] ودون إغفال الإشارة إلى موقع الرسالة المحمدية في حركة التاريخ في قوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ ﴾ وتحمل إشعارات جمالية بالغة القيمة لهذا التصدير الأولي في سياق المنظومة القصصية، رغم تمثيلها لآخر حلقة .

وهذا توكيد لما جاء سابقا أن النص السردي الموجه لمحمد-ﷺ- هو الهيكل الجامع الذي تنتظم فيه بنائيا كل القصص وهو في هذا الصدد دلالة كبرى على قيمة الرسالة الخاتمة، في إقرارها بأصول الرسالات السابقة وتصحيح ما عارضها من انحرافات.
فالتصدير الأولي لا يخل بمنطق التتابع الشكلي، بالعكس يتجاوزه في تأكيد هيمنة الرسالة الخاتمة على ما سبقها موضوعيا ومنهجيا .

وفي عرض قصة موسى عليه السلام، إبراز للقيمة الجمالية في اتساقها مع ما جاء سابقا في الأهمية والمكان ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ، وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [2] .
وذلك لأن موسى عليه السلام صاحب شريعة مستقلة، لها قيمتها المحورية عند اليهود المناهضين للرسالة الخاتمة، فكون النص السردي قد أولاه هذه العناية في التقديم فذلك لاقتران الصلة بين رسالة

1- الأنبياء 25.
2- الأنبياء 48 – 50 .

موسى عليه السلام والرسالة الخاتمة وهذا بواسطة لفظ الفرقان الذي يصل بينهما في التسمية وفي المصدر بداية .

وتتسق البداية مع النهاية في أداء القيمة الجمالية لتواصل الرسالات ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ سلسلة واحدة متصلة الحلقات، وليس من المنطق إنكار حلقة والإيمان بأخرى، والنص السردي بليغ في دلالته على جمالية التواصل بين الحلقات دون نقض لموضع كل حلقة في حركة التاريخ .

وهذا ما يؤكده عرض قصة إبراهيم عليه السلام على إثر قصة موسى عليه السلام، وتقديم قصة موسى عليه السلام في الذكر للأسباب السالفة لا يعني نقض لموقع رسالة إبراهيم عليه السلام في حركة التاريخ، بالعكس يحرص السرد القصصي على إظهار هذه الحقيقة الثابتة متجاوزا الدلالة الشكلية، إلى الدلالة السننية ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [1]، بالإشارة إلى سبقه الزمني على رسالة موسى عليه السلام في قوله" من قبل " و في ذلك تعزيز لتواصل الرسالات كل حلقة في موضعها الأصيل، وكل حلقة تمثل لبنة في بناء متكامل، وكل لبنة تحمل إضافة إلى ما سبقها من اللبنات، وأي إخلال بموقع أي لبنة يعرض البناء للإنهيار .

وعلى نفس النسق نفسرحرص السرد القصصي على إظهار هذه القيمة الجمالية في قصة نوح- عليه السلام - رغم عرضها مؤخرة في السياق السردي ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [2]، وتحمل على نسق سابقتها الدلالة السننية في وصلها بما انتهت إليه قصة إبراهيم- عليه السلام - في حسم الصراع لصالحه بإبطال كيد قومه ومن قبل نوح-عليه السلام - أسفرت دعوته عن النتيجة ذاتها، فتأخير عرض القصة لم يكن اعتباطيا بل يحقق جمالية التناسق السنني في تواصل الرسالات لأداء رسالة التوحيد، مع الوفاء بموقع كل حلقة في حركة التاريخ وفاء تاما بدلالة تتابع الرسل إثر بعض في سلسلة محكمة النظم .

1- الأنبياء 51.

2- الأنبياء 76 – 77.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لزمانهم محققة لأغراضها في ذلك الزمان، وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد يتفق في أصله ويختلف في فروعه تدرجا مع الحاجات، مع تصديق اللاحق للسابق في أصل الوحدانية الكبير."[1]

وهذا الذي نتمثله بجلاء من عرض قصص أولي العزم في وحدة السورة، أو في السور المتفرقة إجمالا وتفصيلا فهناك حلقة وصل بين منطلق الدعوة، ونقطة الختام، ثم يكون تتابع الأنبياء الرواد على نسق منتظم لا يتبدل ولا يتغير.

ويقول سيد قطب في معرض تفسيره لسورة النور "إن استعراض قصص الرسل في هذه السورة ليس للتقصي والتفصيل، إنما هو لتقرير الكلمة الواحدة التي جاء بها الجميع، والاستقبال الواحد الذي لقوه من الجميع، ومن ثم بدأ يذكر نوحا عليه السلام ليحدد نقطة البدء و انتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة قبل الرسالة الأخيرة، ولم يذكر الأسماء في وسط السلسلة الطويلة، كي يدل على تشابه حلقاتها بين البدء و النهاية "[2]، تشابه في المقصد واختلاف في الوسائل.

ومنه إن عرض قصص أولي العزم في تتابع يعكس مواكبة رسالة التوحيد، لتطور القدرات العقلية للبشر[3]، وتناسب تنوع الطرائق لتباين البيئات، وتفاوت العصور وبالتالي شكلت حلقة وصل متضافرة .

وبالتالي نصل إلى قيمة تتابع الرسل في عرض جمالية التناسق السنني، حيث تتجاوز الدلالة التاريخية الشكلية للتتابع إلى الدلالة السننية الجامعة، دون نقض للدلالة التاريخية، وفي تحقيقها لجمالية التواصل بين الحلقات دون نقض لموضع كل حلقة في حركة التاريخ .

ثانيا: تواصل الرسالات

أول ثمرة نستخلصها من عرض قصص أولي العزم في تتابع وفق نسق منتظم، هي جمالية التواصل بين الحلقات دون نقض لموضع كل حلقة في حركة التاريخ، مشكلة سلسلة متواصلة نحاول تثمين الطرح بدراسة تواصل الرسالات في قصص أولي العزم بالوقوف على جمالية التناسق

1- أحمد شلبي الإسلام ص31 – 35 .

2- في ظلال القرآن ج4 ص 2466.

3- سيف الله أحمد الفاضل،إنجيل برنابا دراسات حول وحدة الدين عند موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة،ط2/1403هـ،1983م ص 348

السنني بين الحلقات المتفرقة في السور، بعد أن تجسدت لنا سلفا في وحدة السورة، ولمزيد من الإيضاح، هذه النماذج في الجدول.

النموذج	الآية	السورة	الرقم
نوح عليه السلام	﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾	يونس	73 — 72
إبراهيم عليه السلام	﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَوْصَى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾	البقرة	132—131
موسى عليه السلام	﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ، فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾	يونس	85—84
عيسى عليه السلام	﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ، فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾	آل عمران	52—50
محمد ﷺ	﴿الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾	آل عمران	4—1

يعرض النص السردي في هذا الأنموذج الأولي الذي يجسد اللبنة الأولى في البناء ، تحجر العقليات، لعدم وجود سابقة تاريخية لمصير المعارضين﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [1]، والطوفان يحمل إشعارات جمالية بالغة القيمة في دلالته المزدوجة على نهاية حلقة، وبداية حلقة أخرى، إغراق مجتمع الكفر، وإنجاء بذور المجتمع الجديد ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ [2] وكلمة خلائف تحمل بعدا حضاريا في تجسيدها للتجذر والامتداد، وعبر عنها نوح عليه السلام في قوله ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وهي الحقيقة الواحدة الثابتة التي لا تعرف التجزئة في أهدافها، ومقاصدها، أو تتطور في بنيتها الأساسية بل تتدرج المناهج وتتنوع الوسائل، وفق كل حلقة من الحلقات .

والحلقة الثانية مع إبراهيم عليه السلام ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَوْصَى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [3] .

يحمل السرد القصصي جمالية التناسق السنني من خلال تواصل الرسالات، في حركة التاريخ، على حمل لواء التوحيد متدرجا "عصرا بعد عصر، وحالا بعد حال، فلم يلهم من هذه العقيدة إلا بمقدار ما يفهم، و لم يهتد إلى خطوة جديدة فيها إلا بعد تمهيد أسبابها، وتثبيت مقدماتها"[4] وكل حلقة تبدأ من منتهى سابقتها في سلسلة متصلة الحلقات .

وهذه الحلقة تتضمن سابقتها، تعمقها و تحتويها في ذات الوقت، دون إخلال بخصوصيتها، أو فقد لهويتها، إنما الحقيقة الثابتة التي أورثها إبراهيم ذريته﴿ وَأَوْصَى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ

1- يونس 72 – 73 .

2- يونس 73 .

3- البقرة 131 – 132.

4- عباس محمود العقاد، توحيد و أنبياء، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط1 م1 ص309.

اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[1]، إنه تواصل يتسق في وحدة التصور، ويتسق في وحدة التسمية، فنوح قال ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2] واستخلف من جاء بعده، وإبراهيم عليه السلام ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [3] ووصى ذريته على هذه الأمانة قائلا ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[4] .

وتحمل هذه الوصية بعدا حضاريا، يؤكد دلالة الأمة في شخصيته[5] وإيحاءاتها بالتجذر والامتداد، فهو أصل سامق لشجرة النبوة السمحاء بتفريعاتها من إسماعيل إلى محمد عليهم السلام جميعا، وبالتالي امتازت هذه الحلقة عن سابقتها بهذه الخاصية المتميزة .

والحلقة الثالثة تتساوق مع سابقتها، وكأن بالوصية الإبراهيمية تعود من جديد على لسان موسى ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ، فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[6]، ورغم أن السرد القصصي لا يكشف عن أجواء الفتنة التي يعاني من ويلاتها قوم موسى عليه السلام، لكن يكفي أن نتذكر أن فرعون وبطانته وراء إشعال فتيلها لردعهم.

فكان موقف موسى عليه السلام متسقا مع المواقف السالفة لمن سبقه من الأنبياء، في دعوة المؤمنين للثبات على الحق، وتقديم البرهان على ذلك ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ وكان ردهم ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي " ربنا لا تفتنا بما نلاقي من عذاب منهم أو لا تجعلنا فتنة لهم يفتنون بسببنا و هم يرون ما نلاقيه من عذاب."[7]

وقد تحمل كلمة "فتنة"، في دعاء قوم موسى عليه السلام سمتا خاصا، يوحي بطبيعة المجتمع، وذهنيات المنزل عليهم، وهذا ما جعل الوسائل تعرف تطورا في هذه الحلقة من سلسلة الرسالات

1- البقرة 132 .
2- يونس 72 .
3- البقرة 131.
4- البقرة 132 .
5- النحل 120 .
6- يونس 84 – 85 .
7- القصص القرآني إيحاؤه و نفحاته ص256 .

تتمثل أساسا في إنزال التوراة، وما فيها من توجيهات مكتوبة توجه المجتمع الجديد، وتحفظ سيره من العثرات، وترتقي به من رواسب الفتنة التي تخبط فيها، وبالتالي استدعى الظرف إيجاد تفاصيل تنظيمية، وتشريعية[1].

وتعطي لهذه الحلقة في تواصلها مع الحلقات السابقة، خصوصية في المسار الحضاري لأمة التوحيد لأنها عرفت مع موسى عليه السلام بذور تشريع مستقل، وله من القيمة البالغة في بداية الحلقة الآتية على يد عيسى عليه السلام، في نسق منتظم.

والدلالة على هذا التواصل نتمثلها من هذا النموذج ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[2]

وهذه الحلقة تلتحم بسابقتها، أقوى ما يكون الالتحام، لأن رسالة عيسى عليه السلام جاءت تصديقا لرسالة موسى عليه السلام، وذلك ما يعبر عنه النص السردي بصراحة ووضوح ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ ثم كانت الخصوصية في إضافة لبنة أخرى في البناء، وكل قصة ما هي إلا لبنة، تحمل إضافة لما سبقها من اللبنات بقوله ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[3].

ومن ثمة فرسالة عيسى عليه السلام امتداد لرسالة موسى عليه السلام، والدليل أنها جاءت بتعديلات تمس الأصل الأول، التوراة ويبني على ما سبق، لتظهر اللبنة الجديدة متسقة مع سابقتها، وتتمثل في قوله: ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[4] والآية دلالة على الجدة والخصوصية، قد تكون في شخصه،

1- زاهر غرب الزغبي الإسلام ضرورة عالمية الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970 ص 80 – 81.

2- آل عمران 50 – 52 .

3- آل عمران 50 .

4- آل عمران 1 –3.

أو المعجزات الروحية التي أيده الله بها، و تحتمل أن تكون من جنس المذكور سالفا أي يقصد بالآية الإنجيل وما يحمل من تعديلات وإضافات في ذات الوقت.

ويتجسد التواصل بين الحلقات، في تكرار كلمة ــ مسلمون ــ ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [1] والكلمة ذاتها توارثها إبراهيم عليه السلام عن نوح، وموسى عن إبراهيم، ويحفظها عيسى عليه السلام، لتظهر بصورة نهائية ومكتملة على يد محمد ﷺ في الحلقة الأخيرة ﴿ الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [2].

وبناء على كل المقدمات السابقة، كانت النتيجة. ومن تواصل الحلقات السالفة اتضحت معالم هذه الحلقة، التي تتسق مع كل الحلقات كالسلك الخفي الذي ينظم السلسلة المتصلة، وهي أم النتائج في حوصلتها لسير الرسالات، و إحاطتها بما تفرق من كمالات، شاملة لكل الحلقات، ومتكاملة بهيمنتها على الانحرافات، والتحريفات.

وببلوغ الإنسانية النضج، كان أوان إرسال محمد ﷺ "بالحلقة الأخيرة من رسالة الإسلام، شاملة لكل نواحي الحياة، عالمية لكل الأمم، خالدة لكل زمان، و أنزل عليه القرآن الكريم دستورا شاملا للإنسانية في حاضرها وآتيها، لتسير وفق منهجه، وتطبق نظامه."[3]

وهذا تفسير لتكرار كلمة ــ مسلمون ــ لأن الإسلام دعوة كل الرسل، لواء يسلمه السابق للاحق، ومن ثمة عرض في قصص أولي العزم كاسم لدين مشترك، وليس إسما لدين خاص، يقترن بشخصية واحدة، بل هو القاسم المشترك و العروة الوثقى، بصبغة ثابتة الأصول، وإن اختلفت صورها، وتدرجت أساليبها [4].

1- آل عمران 1-3.

2- آل عمران 1-3.

3-منهج القصة في القرآن ص26 .

4- الدين ص185.

وامتازت الحلقة الأخيرة عن سابقاتها، إلى جانب كونها قامت بدور السلك الناظم للحلقات، بخاصيتين هما " العنصران الضروريان، لسعادة المجتمع البشري، عنصر الاستمرار الذي يربط حاضر البشرية بماضيها، وعنصر الإنشاء والتجديد الذي يعد الحاضر للتطور والرقي، إتجاهها إلى مستقبل أفضل وأكمل "[1].

وبالتالي جمعت كل مؤهلات الانتشار والخلود ومقومات ومقومات وصل الحاضر بالماضي من خلال عرض قصص الأوليين في الصورة الأكثر إنصافا وعدلا، وإبراز قيمة إنسانية الإنسان فردا و كيانا فاعلا ضمن النسيج الاجتماعي، وحرصه على إنماء الروابط بين الأفراد بما يحفظ تماسك هذا النسيج، في امتداده وتجذره بمعزل عن حدود الإقليم أو العرق.

وهو بهذه الخصائص يحرر طاقات الإنسان أين ما كان، وكيف ما كان عرقه ويتعامل معه بتراهة وعدل كفعل حضاري، قائم على أسس ثابتة، ومبادئ رصينة شاملة لكل احتياجات البشرية "وهذا دليل ثان على عموم الدعوة وعالميتها، ونسخها لما قبلها من الدعوات، لأن كل دعوة قبلها جاءت لتعالج ناحية من نواحي حياة الإنسان"[2]، والرسالة الخاتمة، تحمل في تكاملها وشموليتها معالجة كل جوانب الحياة، ماديا وروحيا .

وما تواصلت الرسالات من نوح إلى محمد عليهم السلام إلا متضافرين متآزرين لأداء المنهج الحق فهي "سياسة حكيمة رسمتها يد العناية الإلهية، لتربية البشرية، تربية تدريجية، لا طفرة فيها و لا ثغرة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا تعارض ، بل تضافر وتعانق، وثبات واستقرار ثم نمو واكتمال وازدهار. "[3]

ليس بمنطق نقض اللاحق للسابق، ولا بمنطق استفادة اللاحق من السابق، أي كل واحد يغرف من معين السابق، وفق مبدأ التأثير والتأثر يأخذ ما يشتهي ويطرح الباقي، ويضيف ويغير مع إغفال وحدة المصدر التصور الجامع الذي تمثله كل الأنبياء من أصل واحد، ثم كان التطور في وسائل ومناهج التبليغ، إبراهيم عليه السلام أضاف بعض المناسك، و موسى عليه السلام أضاف الحدود و جاء عيسى

1- المرجع السابق ص179 .

2- عبد الحليم محمود،عالمية الدعوة الإسلامية،شركة مكتبات عكاظ ط1984/2ص443.

3- الدين ص180 .

عليه السلام ليحل لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم ومحمد ﷺ قام بتعديل بعض أحكام الإنجيل والتوراة[1] " وإذا أخذنا في الحسبان أن التنزيلات تتعاقب، فالحقيقة لم تنتقل إلى الناس مرة واحدة وأخيرة، وتبقى كل رسالة إلهية سارية المفعول حتى تأتي الرسالة التالية، فتؤكدها وتحتويها، وتعمقها. ولما كان القرآن الكريم التعبير الأخير عن إرادة الله فقد كفل أصالة الرسالات السابقة وصحتها دون أن يؤكد سريان مفعولها الذي بطل جزئيا بمجيء الإسلام، ولما كان دينا تاما كاملا فقد تجاوز كل الأديان الأخرى."[2]

ومن ثمة تتضح لنا قيمة تواصل الرسالات في إبراز جمالية التناسق السنني بين وحدة الرسالة وحركة التاريخ، لأن أهم مقصد من إرسال الرسل متتابعين في حلقات متواصلة، هو تبليغ رسالة التوحيد وإحلال الإيمان في كل مجالات الحياة.

حركة بناءة فاعلة بالتعمير الحضاري، " الإيمان الذي يقوم عليه بنيان الدين، يجئ دائما بمثابة معامل حضاري، يمتد أفقيا لكي يصب إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب ويوجهها في مسالكها الصحيحة و يجعلها تنسجم في علاقاتها وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسها، فيزيدها عطاء وقوة وإيجابية وتناسقا كما يمتد عموديا في أعماق الإنسان لكي يبعث فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية "[3] لترجمة التجربة الإيمانية في الواقع الاجتماعي في سيرورته التاريخية، و تحقيق معاني التجذر والامتداد لتواصل الرسالات بالتحكم في سنن البناء والتعمير .

ولو عمدنا إلى تقييم كل حلقة من حلقات قصص أولي العزم، لوجدنا أن الحلقة الأخيرة تجسد في تساوقها جمالية التناسق السنني، في عرض قصص الأوليين ليس فقط بما يتناسب مع واقع الرسالة الخاتمة، بل بما ينفتح بها على الآفاق الرحبة، ومشكلة بذلك الشهود الواقعي الحي، والشهود الحضاري المتجدد[4]،في حرصها على الاستمداد من الوقائع والأحداث الماضية القواعد العامة، واستخلاص من الظواهر المطردة، قوانين سننية للتحكم في أسباب البناء الحضاري، وهذا بعرض جمالية التناسق السنني بين وحدة الرسالة وحركة التاريخ.

1- التوحيد مفتاح دعوة الرسل ص266.

2- مارسيل بوزار إنسانية الإسلام ، د. عفيف دمشقية،منشورات دار الآداب،بيروت ط1/1980 ص176 .

3- عماد الدين خليل،التفسير الإسلامي للتاريخ،دار العلم للملايين،بيروت ط5/1991 ص225 .

4- كيف نتعامل مع القرآن ص13 .

ومن هنا يظهر الفرق بين التصور والواقع، ولا يضير التصور انحراف الواقع عن خطه المرسوم بعناية بالعكس الضير يقع على المجتمع، نظير انحرافه عن التصور وفق قانون الأسباب والمسببات[1]، لأن الآثار العملية لهيمنة الإيمان على مناحي الحياة في حركة بناءة للتعمير الإنساني مشهودة وقائمة في التاريخ الإنساني .

وهذه هي القيمة المستخلصة من تواصل الرسالات، تحقيق معاني الاستخلاف، وليست الخلافة قائمة على التعبد بمعناه الخاص المتمثل في الشعائر المعروفة، وإنما هي قائمة على التعبد بمعناه العام، التي تصير به كل حركة الإنسان المادية والمعنوية عبادة الله تعالى "فإن مهمة الخلافة بذلك تعني أول ما تعني ترقية الذات الإنسانية من خلال جهاد مع النفس وجهاد إزاء البيئة الكونية يهدف إلى تحقيق السمو الفردي في مراقي التعاون والتراحم والتكافل والسمو المنهجي في التعامل مع بيئة الكون بما يضمن الانتفاع بها والمحافظة عليها على أحسن الوجوه من الانتفاع والمحافظة."[2]

والمحور الأولي هو عبادة الله، هذا المحور الثابت الذي تواصلت حلقات قصص أولي العزم في نسق منتظم، لتوريثه جيلا بعد جيل حتى وصل إلى محمدﷺ الذي أورثه للأمة من بعده، ويقوم الاستخلاف الحضاري على فهم التصور وتطبيقه على كل مناحي الحياة، ويحمل هذا التصور الجمال المطلق ويحقق الهوية الحضارية للأمة، وهي في تواصلها مع بقية الأمم مطالبة بتقديمه في أجمل الوسائل، بعد اندحار وتراجع الهيمنة الوثنية والمادية، لإعطاء التصور الشامل للإنسان والكون والحياة .

تعرض قصص أولي العزم لجمالية التواصل بين الرسالات، لتحقيق معاني التجدر والامتداد في ترجمة التصور في الواقع الاجتماعي في سيرورته التاريخية، بالتحكم في سنن البناء والعمران،لأن التصور محور التغيير ومبدأ التعمير وأساس الهوية الحضارية.

1- النظرية القرآنية في تفسير حركة التاريخ ص263 .

2- عبد المجيد النجار، الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي، مجلة التجديد علمية فصلية محكمة، الجامعة الإسلامية ماليزيا السنة الأولى يناير 1997 العدد الأول ص 93-94 .

وبناء على ما سبق نخلص إلى:

1- تظهر أهمية البعد الحضاري في قصص أولي العزم من قيمة السنن الجامعة، والقوانين الكلية، التي تفسر على ضوئها الظواهر تفسيرا يتجاوز البنية الشكلية إلى البنى العميقة.

2-تتجلى جمالية عرض البعد الحضاري في قصص أولي العزم في تجسيد الوحدة الإيمانية، لأن جذور الإنسانية متسقة مع المحور الجامع، وتنعكس آثارها العملية في البناء الحضاري والرقي العمراني.

3- قيمة تتابع الرسل في عرض جمالية التناسق السنني في تجاوزها الدلالة التاريخية الشكلية للتتابع ، إلى الدلالة السننية الجامعة، دون نقض للدلالة التاريخية، في تحقيقها جمالية التواصل بين الحلقات دون نقض لموضع كل حلقة في حركة التاريخ.

4- تعرض قصص أولي العزم لجمالية التواصل بين الرسالات لتحقيق معاني التجدر والامتداد في ترجمة التصور في الواقع الاجتماعي، في صيرورته التاريخية، بالتحكم في سنن البناء والعمران، لأن التصور محور التغيير، ومبدأ التعمير وأساس الهوية الحضارية .

5- تمتاز الحلقة الأخيرة من حلقات قصص أولي العزم بالشهود الواقعي، والشهود الحضاري المتجدد في عنايتها باستخلاص القواعد العامة من الوقائع والأحداث الماضية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نتائج الفصل الثاني

أولا: احتفل المنهج القرآني في عرض قصص أولي العزم بإبراز الأبعاد والمقاصد، ويعد البعد العقدي المحور الجامع والقاسم المشترك بين أولي العزم مشكلا في ذلك منظومة قصصية، يتوحد فيها التناسق السنني مع التناسق البنائي .

ثانيا : تظهر قيمة رسالة التوحيد في حركتها الفاعلة في المجتمع، وتتجلى جمالية عرض البعد الاجتماعي في قصص أولي العزم في تتبع الظواهر المطردة، والسنن العامة المواكبة لمسار رسالة التوحيد في المجتمعات الإنسانية، وذلك في حسن توظيف البنية القصصية في حركيتها بالوقائع والأحداث لخدمة الواقع المتجدد .

ثالثا: تظهر قيمة البعد الحضاري في قصص أولي العزم، من قيمة السنن الجامعة، والقوانين الكلية التي نفسر على ضوئها الظواهر .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

جمالية عرض العناصر الفنية في قصص أولي العزم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الاول: جمالية عرض الشخصية في قصص أولي العزم

المبحث الثاني: جمالية الزمان وقيمته في عرض شخصيات أولي العزم

المبحث الثالث: جمالية المكان وقيمته في عرض شخصيات أولي العزم

توطئة:

لاشك أن تحديد طبيعة القصص القرآني قد ألقى بعض الضوء على المنهج المختار لدراسة قصص أولي العزم، المنهج الجمالي لتناسبه مع أدبية الإعجاز القرآني، في وحدة الفكر والفن وبما أنه من أهم مقتضيات الدراسة المنهجية هي تقسيمات الفصول والمباحث، ومن ثمة انتهاج الطريقة التجزيئية لأهم العناصر المشكلة لبنية قصص أولي العزم، وذلك لصعوبة الإحاطة بكل العناصر .

وبالتالي التحديد المنهجي يسمح باستعمال العناصر الأخرى لإضاءة جوانب العناصر المختارة، لأن "الطابع التضامني القائم بين عناصر البنية والذي يقضي بأن تكون السمات الشكلية للرواية متداخلة، ومتعاضدة إلى درجة التلاحم والاندماج"[1].
وهذا يعزز فكرة أن النزول عند الضرورة المنهجية، في تجزيئات العناصر لا تعني إغفال نسق المنظومة الكلية، واختيار عناصر بالدراسة، لايوتي ثماره إلاّ ضمن النسق بربطه ببقية العناصر بطريق مباشر مقصود أو غير مقصود.

وتفسير اختيار العناصر الثلاثة يعود إلى طبيعة الموضوع المتناول بالدراسة، فقصص أولي العزم تتمحور حول شخصيات لأنبياء بعينهم، هل يمكن أن تعد قصص أولي العزم نموذجا قرآنيا لقصص الشخصيات ؟ والإجابة على هذا السؤال كان لزاما أن نرصد حركة شخصيات أولي العزم في فضائها المكاني المختلف وسيرورتها الزمانية من عهد نوح إلى محمد عليهم السلام جميعا.

1- حسن البحراوي،بنية الشكل الروائي،المركز الثقافي العربي،ط1/1990م ص19.

المبحث الأول

جمالية عرض الشخصية في قصص أولي العزم

المطلب الأول

بنية الشخصية في قصص أولي العزم

وقبل ذلك يجدر بنا الوقوف على حقيقة هذا المصطلح النقدي وموقعه في القصص القرآني لاستجلاء مقتضيات توظيفه لدراسة بنية الشخصية لقصص أولي العزم .

أولا:الشخصية في القصص الإنساني

يجمع النقاد أن الشخصية من أهم المقومات التي تعتمد عليها القصة كشكل فني قائم بذاته فأي قصة"كي تروي تكون بحاجة إلى شخصية موضوعة في زمان ومكان خاصين بها "[1] وهذا ليس غمطا لقيمة الحدث بل العكس تماما مادامت الصلة بينهما وثيقة"باعتبارهما المكونين الأساسيين للسرد وذلك ليس هناك شخصية خارج الحدث، كما أنه ليس هناك حدث بمعزل عن الشخصية. "[2]

1- بنية الشكل الروائي ص223 .

2- المرجع السابق ص218.

الحدث في القصة يستمد حيويته من حركة الشخصيات الإنسانية، في تفاوت أساليبها ومسالكها في الحياة إسقاطا للواقع؛ والشخصية تستمد وجودها وكينونتها بقوة حبك الأحداث وانتظامها المنطقي والواقعي ومن ثم فالشخصيات في القصة إما فاعلة مؤثرة في حركة الأحداث ،أو منفعلة متأثرة بسيرورتها في نسق منتظم [1]، وهذا ليس مدعاة لتفخيم الشخصيات عن بقية العناصر المتضافرة في كلية منسجمة لأداء الهدف العام"والحدث والشخصية كلاهما يستعرض جزءا من الفكرة العامة صاعدا بها نحو الغاية المحدودة من القصة "[2].

والاختلاف بين الشخوص في القصة والشخوص في الواقع ظاهر فإن "الوجود في أحدهما يختلف عن الوجود في الآخر، فالحياة تفرض علينا وجودا مستمرا، بينما الشخصية في القصة، لا تظهر إلا في الأوقات التي ينتظر منها أن تقوم فيها بعمل ما بينما نحن في حياتنا الواقعية نعيش أياما بل سنين دون أن نعمل عملا هاما يلفت النظر"[3].

ولذلك تمثلت فنية القصة في انتقاء أفعال الشخوص ورصد حركاتهم في نسق واضح ومنسجم وبالتالي لم يخرج المصطلح النقدي للشخصية "عن معنى الفاعل الذي يقوم بالفعل ويكون مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار والآراء العامة "[4] وتظهر قيمة الشخصيات في كونها، تنفخ الحياة في الأحداث الجامدة[5]"فتسيطر على مناخ القصة بحركاتها أو من خلال استعراضها للأحداث ، أو استعراض الأحداث لمختلف جوانبها ، وبهذا تكون الشخصية قطب الجذب فلا تفتأ تطل علينا من خلال الحدث والمتسع الزمني ،والبيئة المكانية "[6].

وبالتالي نلمس العناية الفائقة التي يوليها النقاد لدراسة الشخصيات والتي تظهر في التروع الدائب في تطوير الوسائل والفنيات لإبراز دورها الكامل وتحديد وظائفها في البنية السردية[7].

1- أنظر فن القصة، ص9

2- الجانب الفني في القصة القرآنية ص167.

3- فن القصة ص77.

4- البنية السردية في القصص القرآني ص56.

- أنظر النقد الأدبي الحديث ص526.

- انظر الخطاب القرآني ص81.

5- عبد الحميد جودت السحار القصة من خلال تجاربي الذاتية، دار مصر للطباعة د.ط ، د.ت ص81.

6- التعبير الفني ص168

7- بنية الشكل الروائي ص218

ثانيا: الشخصية في القصص القرآني

إذا أردنا تتبع مصطلح "الشخصية" في القرآن الكريم، فلا نجد أثرا لهذا اللفظ بدلالته على الفاعل الحدث، وإنما ورد لفظ يقوم مقامها من حيث الدلالة على الإنسان وهو "المرء "[1] .

ومثل هذه الدراسات لا مجال لها في الروايات والقصص، بل مجالها هو الكتب النقدية ،ناهيك أن الدارس للقرآن لا يعتبر القصص جنسا فنيا مستقلا بذاته ،بل وسيلة من وسائله لآداء مقاصده .

ولا نجد في القصص القرآني احتفالا بالجزئيات والتفصيلات التي" يصبح الاستطراد فيها هدفا في حد ذاته، وحجابا عن الغاية الأصيلة"[2]، دون إغفال لخصوصية وتميز السرد القصصي في القرآن في عرضه للشخصيات المختلفة فقد أولاها " ما تستحق من اهتمام ،بل صورها أحسن تصوير وأعطاها قوامها الذي كانت تدب به الناس بطريقة تخول لنا أن نتابعها بدقة"[3] ونتلمس ملامحها بوضوح وجلاء .

وبالنظر لطبيعة المنهج القرآني في عرض الشخصيات نجده" قد أمدنا بمفاهيم جديدة حول الشخصية، إذ لم يرسلها فضلة، بل جعلها تدخل في صميم الفكرة العامة، ومن ثمة حدد الشخصية، وأوصافها التي تمارسها دورا في بنية القصة، وأدخلها على التدفق الروائي كمفصل متحرك من مفاصل الحركة العامة لنمو الفكرة."[4]

ولو تتبعنا دراسة أبي جندي لقصة يوسف عليه السلام نجد إجمالا لهذه الخواص المميزة للعرض القرآني للشخوص في قصصه:

1- وضوح الشخصية وجلاء دورها في أداء المقصد، ولذكر الأسماء في مواقف وحقائقها في مواقف أخرى، ليس ميلا للإغراب، ونزوعا للغموض، وإنما وفقا لمهمة الشخصية ووظيفتها في أداء الهدف[5].

1- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص663

2- خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث ص335.

3- البنية السردية في القصص القرآني ص56.

4- الجانب الفني في القصة القرآنية ص168.

5- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ص100.

2- تلاحم الشخصية مع المحور العام، أي اتساق حركتها مع الهدف المحوري ومنه يتحدد تعريف الشخصية أو تنكيرها .

3- الانسجام بين الصفات التي تتصف بها الشخصية، وما تقوم به من مواقف وسلوك[1].

ومن ثم نحاول تعميق هذه الخصائص من خلال التطبيق على قصص أولي العزم .

ثالثا: بنية الشخصية في قصص أولي العزم

علما أنّ قصص أولي العزم تعرض لأخبار وسير خاصة بشخصيات، لأنبياء معروفين فإلى أي مدى حفل المنهج القرآني بعرض شخصيات أولي العزم ؟!

إن تصريح النص القرآني بصيغة الامتياز والتميز التي خص بها الأنبياء الخمسة، معناه انفرادهم بخصوصية في العرض وذلك بالنسبة لشخصيات القصص القرآني وهل يمكن تصنيف، قصص أولي العزم في ما يعرف بقصص الشخصيات[2]؟

الذي يترع لعرض سير وأخبار شخصية أو مجموعة من الشخصيات،وهل نجد لكل شخصية، من أولي العزم ملامحها الذاتية الخاصة أم ندرسها كشخصية واحدة، منطبقة الملامح؟

أ-خاصية الوضوح والذكر

لو تتبعنا شخصيات أولي العزم في القرآن الكريم، لوجدنا الصورة الواضحة والحقيقية التي لا يلامسها شك أو ريبة، ردا على ما لحقهم من تشويه في الكتب السماوية السابقة ومن ثم كان من الضروري الإفصاح عن أسمائهم تصديقا للرسالة الخاتمة.

وقبل تحليل الآيات التي تشير إلى شخصيات من أولي العزم، نرى ضرورة الإشارة إلى الدافع الأساسي في الإشارة إلى الذكر، ذلك لأن هناك شخصيات في القرآن، يشير لها القرآن تلميحا لا تصريحا مثل قوله تعالى﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾[1]﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾[2] وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة[3] لاسيما ما يتعلق بالشخصيات السلبية التي قلما تذكر، وإن

1- الجانب الفني في القصة القرآنية ص168-169.

2- القرآن والقصة الحديثة ص46.

- أنظر فن القصة ص17-19.

ذكرت، فإن ذكرها قليل، مثل فرعون وهامان، أما بالنسبة لأولي العزم، فإن القرآن، ما فتئ يكرر أسماء هذه الشخصيات، وذلك يعود إلى أنها بمثابة معالم في مسيرة التاريخ الإنساني، تذكر للاستضاءة الدائمة التي لا تنقطع والتي يعود الفضل في ذكرها إلى أنها من أولي العزم .

ومن خلال هذا الجدول نحاول إجلاء خاصية الوضوح وقيمتها في بناء شخصيات أولي العزم من خلال عرض الملامح الخاصة، لكل شخصية على ضوء الطبيعة العامة، التي تجمعهم في زمرة واحدة .

النموذج	الآيات	الرقم	السورة
نوح عليه السلام	﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾	45	هود
إبراهيم عليه السلام	﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾	114	التوبة
موسى عليه السلام	﴿قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين﴾	19-18	الشعراء
عيسى بن مريم عليه السلام	﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾	116	المائدة
محمد صلى الله عليه وسلم	﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾	113	التوبة

1- غافر 28

2- القصص 20

3- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ص102-103

تفصح لنا شخصيات أولي العزم في هذه النماذج عن الطبيعة الواحدة التي تجمع بينهم من نوح عليه السلام إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم، الطبيعة البشرية التي تكشف عن نفسها من خلال التراحم الوجداني بين الأب وابنه في قصّة نوح عليه السلام، وبين إبراهيم وأبيه في قصة إبراهيم عليه السلام .

وتتجلّى ملامح شخصية نوح عليه السلام في مناشدته الله لإنقاذ ابنه من الهلاك، تغمره العاطفة الأبوية لرؤية فلذة كبده تطويه الأمواج في جوفها؛ ويحرص السرد القصصي على عرض شخصية نوح عليه السلام على سجيتها، يصور للعيان لهفة الأب وجزعه في الإلحاح على ابنه ركوب سفينة النجاة في إشفاق بالغ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾[1]، إن لوعة الأب هي التي ترسم شخصية النبي،الذي كابد السنين الطوال في الدعوة إلى الله صلبا جلدا في وجه المكابرين من غلاة القوم وأشدّهم سطوة وبطشا،يكاد يتفطر حزنا وحسرة على مصير ابنه الهالك.

ومن هذا الموقف الإنساني المؤثر يتعلم نوح عليه السلام الدرس القيم الذي يورثه لعقبه من كبده[2]؛ سيادة رحم العقيدة ونقض غيره من الأرحام إن داخلها الكفر[3] وكما تظهر قسمات الألم والحسرة على نوح عليه السلام تسفر أيضا تجليات الرضى والتسليم بعد أن استوعب الدرس ووصلته العظة البالغة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4] .

ونجد شخصية إبراهيم عليه السلام في موقف مشابه ولكن بملامح خاصة تميزه عن شخصية نوح عليه السلام ترتسم عليه سحنة الهدوء والحلم[5] فهو يختار أرق العبارات ويحاول دعوة والده

1- هود 41.

2- القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ص75 .

3- هود 46.

4- هود47.

5- التصوير الفني ص167.

بلغة ودودة مفعمة بالبر والتلطف[1] وكان رده زجر أبيه وتهديده[2] بالأدب والحلم وعدم اليأس منه، في قوله تعالى ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[3] وبنفس الهدوء ورباطة الجأش يتحدد موقفه الحاسم من إصرار والده على ملة الكفر ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[4].

وعلى نفس النسق يقف موسى عليه السلام في مواجهة مع من ربّاه في قصره صغيرا؛ وهو أعلم بطغيانه وتجبره، لقد خاف نقمته وبطشه بعد أن تسبب في قتل القبطي،دون قصد إلى ذلك، وفرّ من مواجهته هائما على وجهه سنين عدة عند أهل مدين[5] ، والأمر الآن مختلف تماما إنها مواجهة الكفر والطغيان تبليغا لرسالة الله؛ وفرعون يحاول تثبيط همته وتمييع القضية العلوية، في القضايا الشخصية بتذكيره بصفات الماضي وتصويره في صورة الجاحد الناكر للجميل ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا، وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ...﴾[6].

ومن خلال هذه المواجهة تظهر شخصيته، مكتملة العدة، قوية المراس، بقوة الإيمان برسالته تلوح منها سمات حدة المزاج والاندفاع العصبي[7] سواء في المواقف السابقة لرسالته والتي لم تتغير في مواقفه اللاحقة مع بني إسرائيل[8].

وفي وقفتنا مع عيسى عليه السلام في هذه الآية ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ نستوحي الملامح الخاصة ببدايته التي شاء الله تعالى أن يجعلها آية على قدرته اللامتناهية،والتي اتخذها النصارى ذريعة واهية

1- مريم/41-45 .
- أنظر المعجزة الكبرى (القرآن) ص155.
2- مريم/45-47.
3- مريم/47.
4- التوبة /114.
5- طه/40-
6- انظر البنية السردية في القصص القرآني ص62-63 .
- انظر التصوير الفني ص164.
7- القصص/15.
8- الأعراف 150.

لجعله إله وإخراجه من الطبيعة البشرية "فصلة المسيح عليه السلام بالله من حيث الخلق والتكوين كصلته باي مخلوق سواه، ولا يؤثر في هذه الصلة التكوينية أنه عبد ممتاز، وأنه رسول من رب العالمين" [1].

وبطبيعة الحال اختلاف طريقة تكوينه عن غيره من البشر تذكير ببداية البشرية مع خلق آدم عليه السلام، وما كان للمسيح عليه السلام إن ينقض التوحيد وهو الداعي المرسل إليه ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [2].

وبالتالي اتخذ السرد القصصي طابع تفنيد للتشويه الذي لحق بشخصية المسيح، واثبات طبيعته البشرية من شانه إعطاء شخصيته ملامحها الحقيقية الكاملة كنبي مرسل بكتاب سماوي .

وخاتمة المرحلة مع محمد ﷺ ونلمس في شخصيته طابع الشمول واتساع دائرة التأثير فالخطاب لم يسرد لنا الموقف الخاص الذي تم بين الرسول ﷺ وبين عمه الذي مات على كفره .. بل سلط الأضواء الكاملة على الهدف العام، بتقرير مبدأ القطيعة بين الإيمان والكفر والتأكيد على سيادة رحم العقيدة، كمحور عام، غير مرتبط بشخص، أو زمان أو مكان.

ومنه تتضح ملامح شخصية محمد ﷺ في أعظم سمة، وهي استيعابه للآثار السابقة، وإعادة بلورتها كمبادئ عامة للناس كافة ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [3].

1- المعجزة الكبرى (القرآن) ص179.

2- المائدة 75.

3- التوبة 113.

ونستخلص ممّا سبق حرص السرد القصصي على إبراز :

1- الملامح الذاتية الخاصة لكل نبيء من أولي العزم، وذلك لإقامة الحجة على المرجفين من أحبار اليهود والنصارى، نظرا لقيامهم بتشويه وتحريف لصفاتهم ومواقفهم، ومن ثمّ لم يحفل المنهج القرآني بعرض شخصيات أولي العزم تمجيدا لسيرهم أو تغنيا ببطولاتهم وإنما كان ذلك لأداء الهدف العام.

2- رغم جلاء الملامح الخاصة لكل نبيء من أنبياء أولي العزم،إلا أننا لا نلمس طغيان الذاتية على المهمة الرّسالية، بل تتكشف من بين الثنايا الطبيعية العامة التي ترسم الخط الواحد المشترك.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني

جمالية عرض الشخصية في قصص أولي العزم

توطئة:

لو رصدنا أشكال تقديم شخصيات أولي العزم في السرد القصصي القرآني لوجدنا مزاوجة بين العرض المباشر والعرض غير المباشر .

وتقديم الشخصيات بشكل مباشر تتضح من خلال إخبارنا عن طباعها وأوصافها، أما التقديم غير المباشر هو تتبع الشخصيات من خلال الأفعال والأقوال التي تصدر عنها [1].

أولا: العرض المباشر للشخصيات

وهو ما يعرف بالطريقة التحليلية[2] في رسم الشخصيات، ويتميز السرد القصصي بالوصف المباشر لكل ما من شأنه إضاءة الجوانب المعتمة لإجلاء قسمات الشخوص وتفسير تفاعلها وانفعالاتها.

ومن خلال هذا الجدول نحاول إبراز جمالية السرد القصصي في عرض شخصيات أولي العزم بالطريقة التحليلية، بالوقوف مع هذه النماذج لأسماء مختلفة الزمان والمكان وتتساوق في طريقة العرض.

1- انظر بنية الشكل الروائي ص223-224.

2- فن القصة ص81.

النموذج	الآيـــــــــــــــــات	الرقم	السورة
نوح عليه السلام	﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾	13 – 9	القمر
إبراهيم عليه السلام	﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ. اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً. وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾	122-120	النحل
موسى عليه السلام	﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا. وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾	14	القصص
عيسى عليه السلام	﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾	45	آل عمران
محمد ﷺ	﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾	45-44	القصص

إن وقفتنا مع أول نموذج في الجدول تظهر شخصية نوح عليه السلام وقد استنفذ طاقته وبلغ منه الجهد مداه الأقصى بعد مكابدة أطول حقبة في عمر الدعوات[1].

ويكشف السرد القصصي عن صورة نوح عليه السلام في قوله تعالى ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾.

تقدم شخصية نوح عليه السلام أجمل تقديم وتعرض خلجاته النفسية مباشرة للعيان "وما تكاد هذه الكلمة تقال، وما يكاد الرسول يسلم لصاحبه الجليل القهار إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة فتدور دورتها المدوية المجلجلة"[2]، وتظهر شخصية نوح بكلمة (فانتصر) في قمة القوة، قوة اليقين بأنّ الغلبة حتما لدعوة الحق، ومن ثم مظهر الضعف والوهن لم يبق له أثر بتسليم الآمر لصاحب الأمر بل على العكس تماما إذ يكشف السرد القصصي عن شخصية نوح كباعث الحيوية والحركة في الأحداث التي ترتبت عن كلمة (فانتصر) أي تمثل انتهاء مهمة نوح عليه السلام مع قومه وليس استكانة أو تنصلا من مسؤولية التبليغ[3].

إنّ الأمر مع إبراهيم عليه السلام يسير على نفس النسق في العرض المباشر بالتصوير المشخص الدقيق ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، "القرآن الكريم يرسم إبراهيم عليه السلام نموذجا للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله، ويقول عنه هنا إنه كان أمة، واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة، ويحتمل أنه كان إماما يقتدى به في الخير، وورد في التفسير المأثور هذا المعنى وذاك، وهما قريبان، فالإمام الذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدايته، فكأنه أمة من الناس في خيره وثوابه لا فردا واحدا"[4].

يحمل إلينا السرد إشعارات جمالية بالغة الأثر في تصوير شخصية إبراهيم عليه السلام بهذه الصورة الفذة التي توحي بالامتداد والتجذر، وتتصل اتصالا كبيرا بمحور الأحداث التي قام بها وهي وبناء

1-محمود السيد حسن مصطفى،الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية،ط1/1981 ص103.

2- الظلال ج27 ص3430.

3- الحوار في القرآن ص29-30.

4- الظلال ج14 ص2201.

الكعبة ومن ثم توريث الدعوة والنبوة ذريته الكريمة حتى استلم اللواء محمـــــد-ﷺ-[1] ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[2].

ومع موسى عليه السلام من خلال الآية ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يطلعنا السرد القصصي، اطلاعا مباشرا، على صفاته الشخصية وماله تأثير علـــى ســـير الأحداث وإصباغها بصبغة جمالية، لأن تقديم النص السردي لشخصية موســـى عليه السلام، بســـمات الاكتمال والنضج الجسدي" كان له دور تحضيري لما سيناط به من أحداث تلعب فيها قوته البدنية دورا أساسيا" [3]، بداية بضربه للقبطي انتصارا للإسرائيلي من شيعته[4] والذي أسفر عن خروجـه إلى مدين، وقيامه بمساعدة الفتاتين على سقاية أغنامها .

وفي وقفتنا مع عيسى عليه السلام من خلال الآية ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[5] تحمل لنا بشرى الملائكة لمـــــريم الصورة الواضحة المميزة لشخصه وهذا التقديم المباشر لخصوصية مولده نجدها شاخصة في لفظـــة – بكلمة منه – والتي تترك ظلالا من الجمال الفني الأخّاذ إنها بهذا الموقع المؤثر تمهد لحدث الميـــلاد المعجز في وصله بكلمة الله وأسرار حكمته العلوية، والتي تكرمه بالوجاهة في الدنيا وهـــي النبـــوة والتي تخول له المنزلة الرفيعة، السامقة في الآخرة لأداء رسالة الله وسيره في قافلة الأنبيـــاء الأعلام.

1- أنظر القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ص181-183.

-أحمد الصباحي عوض الله، حياة وأخلاق الأنبياء، دار إقرأ ط3 / 1405-1985 ص102-103.

2- الحديث 26.

3- البنية السردية في القصص القرآني ص62.

4- القصص 15.

5- آل عمران 45

وخاتمة النماذج مع خاتم الأنبياء عليهم السلام يعود بنا النص السردي إلى الوراء﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهو بعرضه لقصص الأولين من أولي العزم، لبناء شخصيته الرسالية وتقوية همته في مواجهة مشاق الدعوة[1] من جهة .

ومن جهة أخرى إرساله بالرسالة الخاتمة أكبر حجية على قصص الأولين، مع أميته وعدم اتصاله بأي مصدر سابق "لا نقول أنّ العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأمّيين، فإن هذه النتف اليسيرة قلما تعزب عن أحد من أهل البدو أو الحضر، لأنّها مما توارثته الأجيال وسارت به الأمثال، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأمّيين و لم يكن يعرفه إلاّ القليل من الدّارسين، وإنّك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محرّرا في القرآن" [2].

وهذا تفسير اعتناء النص السردي في القصص القرآني على عرض جزئيات التفاصيل المتّصلة بشخوص الأنبياء اللذين مسهم التشويه والتي لم يذكرها أي مصدر سابق، وفي ذلك أقوى حجة على رسالته الخاتمة، وإقرار صريح ومباشر على شخصيته النبوية، و الإحاطة بتفاصيل الأولين وتقديمها لمعالجة الأحداث الواقعة والمشكلات الطارئة، يكشف عن أكبر سمة تمتاز بها شخصيته عن إخوانه الأنبياء وهي خاصية العموم، على كافة الناس في كل مكان وزمان لأنه النبي الخاتم[3].

وبالتالي يهدف العرض المباشر لشخصيات أولي لعزم لإقرار خاصية الوضوح، في تصوير ورسم شخصية كل نبي من أولي العزم ، لرفع اللبس والغموض الذي يؤدي إلى تشويه صفاته .

1- سيكولوجية القصة في القرآن ص312-313.

2- عبد الله دراز ،النبأ العظيم دار القلم الكويت ط4/ 1397ه - 1977م ص37.

3- القرآن المعجزة الكبرى ص175.

ثانيا: العرض غير المباشر للشخصيات

اللون غير المباشر في عرض شخصيات أولي العزم في السرد القصصي القرآني يطلق عليه أيضا بالطريقة التمثيلية[1] حيث الشخصية تكشف عن نفسها، وتعبر عن كينونتها ومواقفها في حركة الفعل، نتابع رسم الشخصيات بحركة الفعل في هذا الجدول ليشكل من فعالية الصراع مجالا خصبا لاحتدام الأفكار.

النموذج	الآيات	السورة	الرقم
نوح عليه السلام	﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾	هود	38
إبراهيم عليه السلام	﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾	الصافات	93-91
موسى عليه السلام	﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ، هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ، فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾	القصص	15-14
عيسى عليه السلام	فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا . .فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾	مريم	26-24
محمد ﷺ	﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ، أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾	عبس	6-1

1- حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ـ المغرب ط1 /1991 ص32

أول نموذج في الجدول يرسم شخصية نوح عليه السلام رسما شاخصا دقيقا ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[1] يرسم السرد القصصي شخصيته بحركة الفعل الذي يقوم به، وهو صناعة سفينة النجاة بوحي الله لتحمل البذرة المؤمنة من واقع الكفر إلى واقع الإيمان" والتعبير بالمضارع «فعل الحاضر» هو الذي يعطي للمشهد حيويته وجدته، فنحن نراه ماثلا لخيالنا من وراء هذا التعبير، يصنع الفلك. ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم إنه رسول ويدعوهم، ويجادلهم فيطيل جدالهم، ثم هو ينقلب نجارا يصنع مركبا.

إنهم يسخرون لأنهم لايرون إلا ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر شأنهم دائما في إدراك الظواهر والعجز عن إدراك ما وراءه من حكمة وتقدير.

فأما نوح عليه السلام فهو واثق عارف وهو يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادله سخرية بسخرية[2]وكأن بحركة الفعل وقوة الأداء في هذا المشهد تمد شخصية نوح بطاقة فنية عالية يكشف السرد القصصي من خلال انكبابه على صناعة الفلك في واضحة من أنظار الكافرين لا تصرفه سخريتهم ولا تزعجه تقريعاتهم همزاتهم، وهو في عمله قد أقبل على ما يجذب إليه أنظار القوم ويشغل اهتمامهم بهذا الصنيع المختلف عن سابق عهده في الدعوة طيلة حقبة مديدة.

وما جاء في إبراهيم عليه السلام لا يخرج من هذا النطاق ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[3] والأمر لا يختلف في طريقة العرض التي تكشف عن شخصيته بواسطة حركة الفعل المتمثل في تحطيم الأصنام، مما أكسبه صفة الجرأة والعزم في إثبات أن ما يعبدونه لا يملك لنفسه نفعا حتى ينفع غيره بالأسلوب العملي الذي يقرع الأذهان بحجته .

1- هود 38.

2- الظلال ج12 ص 1877.

3-الصافات 91-93.

ويبرز هذا العمل روح الإيجابية[1]والحكمة في التعامل مع العقليات المتحجرة، فتحطيم الأوثان وإن كان يحمل دلالة ظاهرية عن العنف فالمقصد الجوهري هو إحداث زلزال لتحطيم الصخور الصلدة المترسبة في الأذهان فكانت المحاجة بالمنطق العقلي والفعل الشاخص بالحركة السريعة المدوية جراءة وعنفا.

ومع موسى عليه السلام تعرض لنا حركة الفعل لخواص بنيته الجسدية ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾وتظهر ما يتمتع به من اكتمال فائق في القوة البدنية[2] " إن معالجة موسى عدوه بوكزة واحدة في صدره زهقت لها روحه، تعد دليلا واضحا على ما يتمتع به موسى من قوة جسدية هائلة"[3]، والأمر ذاته يتساوق مع ما جاء سابقا في النص السردي حيث التصريح المباشر بهذه الصفة،وفي ذلك دلالة على العناية بالبعد الجمالي في تناسق ألوان عرض الشخصية الواحدة باتباع الترتيب المنطقي .

إنَّ الإشعارات الجمالية التي نستشفها من النموذج الموالي بالغة القيمة في عرض شخصية عيسى عليه السلام ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي، قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا..﴾ ويرسم لنا الفعل شخصية النبي المرتقب بملامحها الخاصة من حركة خروجه من رحم أمه ومناداتها، للتخفيف من معاناتها المادية بعد ألم المخاض وتلبية الحاجة إلى الطعام والشراب، ومعاناتها اليومية لتولي الإجابة عنها في الإعراب عن شخصيته دون خجل أو مواربة لأن كلامه في المهد ليس فعلا عاديا وإنما آية ومعجزة تطلعنا على سماته الخاصة ومهمته الرسالية.

يحمل لنا النَّص السردي إشعارات بالغة القيمة في رسم الشخصية الرسول ﷺ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾

1- المعجزة الكبرى ص153.

- أنظر التصوير الفني ص 127.

2- القرآن والقصة الحديثة ص47 .

3- البنية السردية ص62.

ويظهر قمة التوظيف الفني الرائع لحركة الفعل النابض بالحياة في تجلياته الفنية المعجزة، ورغم ما فيه من عتاب شديد اللهجة للرسول ﷺ على مسلكه من الرجل الفقير الأعمى الذي بخل عليه طلبا للاستزادة من العلم والفقه في وقت انشغاله مع رؤوس قريش ، فاستثقل قدومه وأعرض عنه، ليس لأمر شخصي بل لحرصه على إزالة العقبات التي تحاصر الدعوة الوليدة بإسلام خاصة القوم.

وفي هذا السياق توحي لنا بدلالات بالغة القيمة[1] في رسم شخصية محمدﷺ، فهي تبرز أكثر ما تبرز الطبيعة البشرية التي تحكم أفعاله ومواقفه قوة وضعفا "وهي من القصص التي يظهر فيها الرسول بكل ما يمكن أن يتعرض الإنسان من أخطاء نفسية وكيف يمكنه أن يقوم مثل هذه الأخطاء"[2] فشخصية الرسول في النص السردي القصصي لا تبعد عن مقام التربية والتسامي عن الهناة البسيطة لتأهيله لمهمة تربية المؤمنين.

ومن جهة أخرى دلالة باهرة على أن ما جاء في القرآن لا يمثل شخصية الرسولﷺ "ففي أكثر الأوقات لا يذكر شيئا عنه، ويتجرد تماما من الإشارة إليه، وعندما يورد شيئا عنه فلكي يحكم عليه أو يضبط سلوكه، أو يسيطر عليه"[3] لو كانت شخصية الرسولﷺ تؤثر في النص ، لما جاء بهذه الصورة المهيمنة على أفعاله وخلجاته النفسية بحيث لا تظهر شخصيته إلا في صورة المتلقي للعمل بما جاء فيه[4] ومن خلال العرض غير المباشر نستشف انسجام الأفعال مع الصفات وعدم تناقضها مع مبادئ الرسالة.

ثالثا: جمالية الحوار وقيمته في رسم شخصيات أولي العزم

ولا نبرح هذا المبحث حتى نقف على لون جمالي من ألوان التعبير القرآني وله قيمته في عرض الشخصية بطريق غير مباشر ألا وهو الحوار حيث نتحسس من خلاله حرارة المواقف وخلجات الخواطر ماثلة مشاهدة، لأن الحوار مولده الحركة و باعث روح الحياة في الشخوص بما له من قدرة بارعة في إجلاء مكامنها، وتصوير طبيعتها ناطقة الملامح، واضحة القسمات " إن القرآن حين ينطق شخصية من الشخصيات فإنما يحمل على لسانها ما يدور في خاطرها إن كانت

1- أنظر الظلال ج30 ص3824.

2- القرآن والقصة الحديثة ص114 .

3- عبد الله دراز، المدخل إلى القرآن الكريم، دار القلم الكويت، 1406هـ/1986م ص 170 .

4- سيكولوجية القصة في القرآن ص336 .

- أنظر الظاهرة القرآنية ص159-160.

من الشخصيات التي تلتزم الصدق، أما إن كانت من تلك الشخصيات التي تراوغ و تخادع وتنافق فإنه لا يدعها تنطق بما نطقت به دون أن يفضحها ويكشف أمرها و يعلن عما أخفته، وأضمرته "[1].

وهذا هو منهج القرآن في إدارة دواليب الصراع بين الحق والباطل، والذي تتكرر صورته مع كل نبي من الأنبياء على مر العصور " فإن هذا الجانب يكون غالبا أقوى جوانب القصة إثارة لحب الاستطلاع، ومتابعة ما ينتهي إليه صراع هاتين القوتين، وإذا كانت هناك لفتات جانبية في هذه الملحوظة فمن هذه اللفتات أن المتابع لصراع قوتين في أي قصة، يكون غالبا منحازا بعواطفه ومشاعره من حيث لا يقصد مع القوة الأساسية في القصة، أو مع الجانب الأقوى منها "[2].

وبالتالي يعمد الحوار إلى عرض شخصيات أولي العزم من الرسل ناطقة بالحجج الدامغة، وتصويرها في أقوى ما تكون القوة على أساس أنهم يمثلون الحق والصلاح في دعوتهم لتوحيد الله ونبذ الأوثان والمعارضة تمثل الباطل والفساد[3].

ومع ظاهرة الصراع التي يفعلها الحوار كظاهرة مطردة تتكرر في مسار الدعوة إلى الله، يحمل لنا السرد القصصي "ظاهرة تعدد الأصوات التي تشكل شبكة الحوار فيها وإذا كان منطلق الحوار مرده هو الله بحكم صدور الأمر بالدعوة عنه، فإن الفاعل المرسل يظل واسطة تبليغية حوارية بين هذا المصدر الإلهي و بين المرسل إليهم (قومه).

ومن هنا تحتل الصلة الحوارية بين الفاعل المرسل وبين قومه، مساحة أوفر في سياق قصة الموقف على أن صلة الحوار بين الفاعل المرسل و بين الله المصدر تظل حيوية ، توجيها للمرسل و تعضيدا له بواسطة القول (الوحي) و بالفعل الخارق كذلك "[4].

1- التعبير الفني في القرآن ص221.

2- القصص القرآني في منطوقه و مفهومه ص123 .

3- عبد الحليم حفني/أسلوب المحاورة في القرآن/الهيئة المصرية العامة للكتاب ط2/1985م ص52 .

4- الخطاب القرآني ص184 .

وبهذا الشكل تنطبق شخصيات أولي العزم مشكلة صورة واحدة، ونمطا متشابها مكررا وهذا ما سنحاول التمثيل له في هذا الجدول[1].

المرحلة الأولى				
النماذج	الآيات	الفاعل المصدر	الفاعل الواسطة	العلاقة
نوح عليه السلام	الشعراء 105-120	الله جل جلاله	نوح عليه السلام	التواصل
إبراهيم عليه السلام	الأنبياء 25-70	الله جل جلاله	إبراهيم عليه السلام	التواصل
موسى عليه السلام	الشعراء 43-66	الله جل جلاله	موسى عليه السلام	التواصل
عيسى عليه السلام	آل عمران 48-55	الله جل جلاله	عيسى عليه السلام	التواصل
محمد ﷺ	الإسراء 90-93	الله جل جلاله	محمد ﷺ	التواصل

المرحلة الثانية			
الفاعل الواسطة	الفاعل المتلقي	العلاقة	النتيجة
نوح عليه السلام	القوم	التعارض	الإغراق
إبراهيم عليه السلام	القوم	التعارض	النجاة من الحرق
موسى عليه السلام	فرعون وبطانته	التعارض	الإغراق
عيسى عليه السلام	بنو إسرائيل	التعارض	النجاة من الصلب
محمد ﷺ	كفار قريش	التعارض	الدين

وتستمد شخصيات أولي العزم نمطيتها من الوظيفة المشتركة التي تعود إلى المصدر الواحد "إذ أن فواعل هذه القصص تأخذ هذا الإطار النمطي (الله-النبي-القوم) وهناك المعجزة التي كانت ثابتة في كل دعوة وإن اختلفت نوعيتها، فالعلاقة الحوارية في القصة القرآنية، تؤطر القصة ،وتشيع فيها حيوية سردية تجعل من الموضوع القصصي بنية واضحة المعاني، حيال ذهن المتلقي، يتملاها من سائر جوانبها، من خلال وضيفة الحوار الكشفية"[2] والتي تضيء الجوانب المعتمة للشخصية بإنطاقها وتحركها على مسرح الأحداث الواقعة[3].

1- انظر بنية النص السردي ص35 – 37 .

- انظر الخطاب القرآني ص184 .

- انظر يمنى العيد، السرد الروائي في ضوء المنهج النبوي ط1/ 1990م ص55-56

2- الخطاب القرآني ص185

3- أنظر سيكولوجية القصص القرآني ص414

ومن ثم نلمس موقع شخصيات أولي العزم عبر النسق الحواري من خلال الجانب الوظيفي، في تبليغ رسالة التوحيد ومحاجة الكفار والمشركين بأسلوب منفتح على كل القيم الجمالية حيث يستوعب العقل والوجدان، المنطق والعاطفة، يعرض الحجج وينير الانفعالات "الأمر الذي يجعل من النص القرآني في جوهره إطارا حواريا مفتوحا على الوجود وعلى ميتافيزيقاه وعلى إطرادية حضارته وصرامة نظمه الإلهية التي لا تفتأ تعصف بالكينونات البشرية، كلما زاغ الاجتماع الإنساني عن ثوابتها"[1].

مما يجعل للحوار القيمة الظاهرة في السرد القصصي القرآني لما يحمله من إشعارت جمالية مؤثرة في عرض الشخصية شاخصة بالحياة، في توازن بليغ بين ذاتية الحوار في إبانته عن خصوصية كل نبي من أولي العزم، وتوحد الفكرة الجامعة، مشكلة من حوارات الرسل لأقوامهم، حوارا واحدا في نسق المنظومة السردية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- الخطاب القرآني ص192 .

- انظر دينامية النص ص96.

وبناء على ما سبق نخلص إلى:

1- لا يمكن تصنيف قصص أولي العزم في ما يعرف بقصص الشخصيات، لان ذلك يتناقص مع منهج القران في عرض القصص، ولأن القصص القرآني ليس بقصص سير ذاتية أو تمجيد بطولات شخصية، بل المقصد هو الذي يحدد بروز شخصيات أولي العزم عن غيرها من شخصيات الأنبياء، منه تصريح النص القرآني بصيغة الامتياز والتميز والتي انفردت بها شخصيات أولي العزم بمناحي جمالية خاصة.

2- جمالية السرد القصصي في عرض شخصيات أولي العزم في توازنها بين الطبيعة العامة والملامح الخاصة، وبالتالي ذكر الأسماء صريحة واضحة في سياقها الزماني وفضائها المكاني، لحجية الرسالة الخاتمة.

3- جمالية السرد القصصي في عرض شخصيات أولي العزم في تنوعها بين العرض المباشر والعرض غير المباشر، ويهدف العرض المباشر لشخصيات أولي العزم لإقرار خاصية الوضوح، في تصوير ورسم شخصية كل نبي من أولي العزم، لرفع اللبس والغموض الذي يؤدي إلى تشويه صفاتهم، ومن خلال العرض غير المباشر للشخصيات، نستشف انسجام الأفعال مع الصفات، وعدم التناقض بين الأفعال الخاصة بكل نبي من أولي العزم ومبادئ الرسالة العامة.

4- جمالية الحوار في عرض الشخصيات شاخصة بالحياة، ناطقة القسمات، في توازنها بين إبانة خصوصية كل نبي من أولي العزم، وتوحدهم في إطار الفكرة الجامعة في نسق المنظومة السردية على اختلاف الزمان والمكان ولإجلاء هذه السمة الجمالية نتتبع النماذج في مبحثي الزمان والمكان.

المبحث الثاني

جمالية الزمان وقيمته في عرض شخصيات أولي العزم

المطلب الأول

بنية الزمان في قصص أولي العزم

أولا: مفهوم الزمن و أهمية دراسته

إن محاولة تحديد مفهوم الزمن في التراث البياني العربي تشكل صعوبة كبيرة لأنه " زمن مندمج في الحدث بمعنى أنه يتجدد بوقائع حياة الإنسان وظواهر الطبيعة وحوادثها، وليس العكس إنه نسبي حسي يتداخل مع الحدث مثله مثل المكان الذي يتداخل مع المتمكن فيه "[1].

وهذا يمكن إرجاعه إلى الطبيعة التجريدية للزمن، في ارتباطه بالقضايا الفكرية الكبرى، التي شغلت الفكر الإنساني عن الوجود والمصير والموت والخلود" لقد أدرك الإنسان أنه لا وجود إلا بالزمان أو قل أن الوجود والزمان مترادفان، لأن الوجود هو الحياة، والحياة هي التغير، والتغير هو الحركة، والحركة هي الزمان، فلا وجود إذن إلا بالزمان "[2].

1- بنية العقل العربي ص179.

2- د . كريم زكي حسام الدين في الزمان الدلالي مكتبة الأنجلو المصرية ط 1 / 1991 م ـ 1410 ص27 .

ولا يمكن تحديد هويته إلا ضمن ثنائية المكان، والمتمكن فيه لأن« الزمان ينتظم في ثلاث ثنائيات تظهر الأولى في ثنائية الزمان والحركة، لأن الحركة هي التي تحدد للزمان كميته، وتظهر الثانية في ثنائية الزمان والمكان لأن المكان هو الذي يساهم في تحديد هويته وتظهر الثالثة في ثنائية الزمان والإنسان، لأن الإنسان هو الذي يعطيه دلالته الموضوعية والذاتية»[1].

وأهمية دراسته تزداد إلحاحا في الفكر الإنساني، ومن الوظيفة الجزئية في النحو والصرف إلى الوظيفة المحورية الكلية، في النقد المعاصر و« إذا كان الزمن من إحدى المقولات لتي اعتنى بها النحو التقليدي ، فإنها إحدى أهم المقولات التي سيعيد البحث اللساني طرحها ومساءلتها من منظور جديد » [2].

ألا وهو إدراجه في نظرية الأدب والدراسات النقدية وقد سجلت إضافات بالغة القيمة في تأصيل دراسة الزمن بآليات إجرائية خاصة في نقد الرواية[3] على أساس أن «لا سرد بدون زمن، فمن المتعذر أن نعثر على سرد خال من الزمن»[4]، ومن ذلك اهتم النقاد المعاصرون بدراسة طبيعة الزمن، ومؤشراته الجمالية في السرد الروائي .

ثانيا : مفهوم الزمن في القصص القرآني

إن المتتبع لما جاء في النص القرآني عموما و السرد القصصي خصوصا ، يلتمس الاعتناء بإبراز الزمن كعامل أساسي لإيضاح معالم العقيدة وذلك من أول آية قرآنية [5]«وبها تأصل المبدأ الزمني في النص القرآني بهذه الأولوية التأسيسية التي اختصه بها الله حين ربط الفعل الخلقي الأول بالزمن »[6]، حيث أقام أساسيات العقيدة على مؤشر زمني يوضح بداية الإنسانية ومصيرها.

1- المرجع السابق ص26.

2- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي ط 1 / 1989 ص 63 .

3- تحليل الخطاب الروائي ص63 .

أنظر سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي 1989ص41.

4- بنية الشكل الروائي ص117 .

5- الخطاب القرآني ص95 .

6- المرجع السابق ص96 .

وأول أساسيات العقيدة أن" الله لا يجري عليه طارئ الزمان فهو غير مستزمن بالزمان مثلنا، وليس له يوم وليلة وحاضر وماض ومستقبل، وهو لا ينصرم ولا يتغير ولا يتطور ولا يشيخ ولا يكبر، ولا يبدأ ولا ينتهي، وحينما يصف القرآن الله بأنه " الأول والآخر " فإن الأولية المقصودة ليست أولية زمانية، كما أن الآخرية ليست آخرية زمانية فالله ليس عنده "قبل ولا بعد" فالزمن كله مخلوق مع الكون و الله كائن قبل مخلوقاته، وباق بعد فنائها، فهو موجود قبل الزمان وبعده، لأنه خارج عن الزمان "[1].

ومن دلائل قدرته المعجزة بروز هيمنته على الزمن في عرض قصص الأولين عرضا يقوم على أساس الانتقاء من أحداث الماضي ما يفيد حاضر زمن الخطاب وينفتح على المستقبل في ثراء وتنوع القراءات، وهذا صميم منهج القرآن في عرض القصص" فلا يعرض سلاسل أجيال تعاقبت من لدن آدم ولا تعقب في أسماء، ولا أنبياء مكتفيا بمعالم بارزة في تاريخ النبوات ذاكرا بكل وضوح أن الأنبياء بعض المرسلين ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [2].

وبهذا احتوى القرآن امتداد الزمان الذي أثبته العلم لحياة الإنسان على هذه الأرض، واحتوى الاتساع المكاني في الأزمان المتعاقبة، وما قام فيها من حضارات، وما اعتنقه أهلها من قيم وأخلاقيات تقارب أو تشابه ما نادت به الأديان السماوية التي ذكرها القرآن تفصيلا "[3] .

ومن هذا المقام نلمس حرص السرد القصصي على عرض شخصيات أولي العزم كل في سياقه الزمني الخاص به، على أساس أن كل شخصية تمثل حقبة زمنية، ومرحلة من مراحل الدعوة وهذه الشخصيات بالنسبة لغيرها " تعد معلما زمنيا في تاريخ البشرية فضلا عما تصرح به الأدوات الدالة على الزمن لما يرد به على قول الذين يجردون القصة القرآنية من الزمن والمكان، وفي الوقت نفسه يشير إلى أن الزمن في القصص القرآني مرتبط بالمعالم الشخصية للأنبياء والمرسلين الذين تداولوا وراثة الأرض من آدم عليه السلام إلى محمد-ﷺ-، إن القصص القرآني

1- مصطفى محمود من أسرار القرآن، دار المعارف ط4/ص91

2- غافر 78 .

3-عبد العزيز كامل/القرآن والتاريخ عالم الفكر . المجلد الثاني عشر العدد الرابع 1982 ص15 .

إذن ليس مجردا من الزمن، بل مصهور به يشير إليه أحيانا بظروف الزمن، ويرمز إليه أحيانا بأشخاص وأدوات حسية ومعنوية "[1] وقد أشار في الهامش لما جاء به التهامي نقرة بما يوحي أنه واقع في تناقض بحيث لم يقطع برأي واحد في نزوع السرد القصصي للتحديد الزمني.

وللخروج بنتيجة فاصلة لا بد للوقوف مع ما جاء في النص "فإن القصة القرآنية بكشفها عن سنن تجري عليها الأمور وبتجردها عن الزمان والمكان، وخلوها من التفاصيل، والاسترسال في الوصف والإسهاب في القص، إنما تعرض حقيقة إنسانية تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتعالج قضايا الإنسان، وتداوي علله المتشابهة بما تروي من روائع الحكم التي قرعت آذان الأمم منذ أقدم العصور على لسان الرسل، فيما سجل القرآن من هديهم ووصاياهم لأقوامهم في شريط واحد، وكأنهم بعثوا في فترة واحدة "[2] .

نعم كان من الممكن أن يكون القصص القرآني كذلك لو أن الدلالة التي نتحدث عنها بالنسبة للزمان هي الدلالة التاريخية لأن ذلك من شأنه أن يجعل القصص معبرا عن فترة زمانية من فترات التاريخ، وهذا يتعارض طبعا مع الهدف من القرآن الكريم الذي هو إصلاح الإنسان في كل زمان ومكان.

فمن هذه الزاوية يمكن أن نقول،إن النص القرآني بما في ذلك القصص، لا يرتبط بزمان محدد ولكن في الوقت نفسه ، لا يمكن أن نقول إن الأحداث في حركيتها مع النبي الواحد، ومع الشخصية المحورية للقصة تخلوا من زمن، إذ أننا مثلا ندرك الزمن في صناعة السفينة بالنسبة لنوح، وندركه في الفترة الزمانية التي دعا فيها قومه و هي محددة في القرآن بـ 950 سنة، وعلى هذا فإننا لا نشارك الباحث في رؤيته للزمن بصفته المطلقة، وإن شاركناه في الزمان بصورة تاريخية على اعتبار أن النص القرآني يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان بغض النظر على ارتباطه بزمان محدد .

1- البنية السردية في القصص القرآني ص41 – 42 .

2- سيكولوجية القصة في القرآن ص324 .

وقد تعرض لهذا الأمر سيد قطب في عدة مناسبات في تفسيره وأوردها من بين آثار خضوع القصص للأغراض الدينية "فنشأ عن خضوع القصة لهذه الأغراض أن يعرض شريط الأنبياء والرسل الداعين إلى الإيمان بدين واحد، والإنسانية المكذبة بهذا الدين الواحد، مرات متعددة بتعدد هذه الأغراض، وأن ينشئ هذا ظاهرة التكرار في بعض المواضع، ولكن هذا أنشأ جمالا فنيا من ناحية أخرى، ذلك أن عرض هذا الشريط يخيل للمتأمل أنه نبي واحد، وأنها إنسانية واحدة على تطاول الأزمان والآماد "[1]، وتبعه في هذه الفكرة كثير من الباحثين[2].

والنتيجة التي نفصل بها هذا التعارض الشكلي بالعودة إلى طبيعة منهج القرآن في عرض القصص، حيث أنها مجرد وسيلة من وسائله لأداء مقاصده، وبالتالي التحديد الزمني لشخصيات أولي العزم ضروري لتحقيق المقصد، ألا و هو حجية الرسالة الخاتمة، التي لا تظهر إلا على ضوء الخلفية التاريخية السابقة، بالوقوف على المحطات الزمانية الثابتة كمعالم كبرى نستدل بها على حركة الحضارات نحو البناء والعمران أو نحو الفناء والدمار وفق سنن الله الجامعة في اطرادها كمنظومة موحدة تحكمها قواسم مشتركة، يتطابق فيها جماليا كل العناصر لأداء المقصد التذكيري الاعتباري، " فصراع الحق مع الباطل ظاهرة تاريخية، تتكرر بنفس الوتيرة التفجيرية، رغم اختلاف الملابسات الزمانية المكانية المحدقة بها والصور القرآنية في هذا الصراع جاءت متناسقة مع طبيعة تلك الظاهرة الدورية التي عكستها أدبية القرآن، في سياق منظومة تواترية، تعبر عن ذات الحال والمآل لكل دعوة ولكل قوم مع كل مبعوث مرسل"[3].

إنها تتجاوز الزمان والمكان لتسلط الضوء على المقصد بحيث يستوعب الإنسان عصارة الماضي في حاضره الراهن ومستقبله المتجدد، ما دام مستخلفا في الأرض فالمقصد الجامع الذي يريد الخطاب القرآني الوصول إليه من خلال عرض القصص هو هداية الإنسان إلى سبيل الحق والرشاد .

1- التصوير الفني ص141 .

2- انظر خصائص الأدب العربي ص335 .

- فتحي رضوان/الإسلام و المذاهب الحديثة ، سلسلة إقرأ ،دار المعارف بمصر، ص156 .

3- الخطاب القرآني ص123 .

ومن ثمة نخلص إلى أن السرد القصصي في القرآن يوظف العناصر الجمالية بقدر ما يضيء المقصد ويحقق الغاية، فهو يترع إلى القرائن الزمانية المحددة بالنسبة للأحداث المحورية والشخصيات التي تمثل المعالم الكبرى للمسار الزمني لدعوة التوحيد من نوح إلى محمد عليهم السلام جميعا "والزمن له مكانه الملحوظ دائما في سير الأحداث القصصية وفي تنميتها وإنضاجها، وخروج الحدث القصصي عن حدود الزمن وقيوده يجعله في عزلة عن الحياة، وفي انقطاع عن الروافد التي يتغذى منها، أشبه بالشجرة تنفصل عن مغارسها في الأرض، حيث لا ينتظر أحد منها بعد هذا ظلا، ولا ثمرا "[1]، لأن الأصل هو إبراز العناصر بقدر ما يخدم الغاية والزمن جزء أصيل من بنية السرد القصصي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- القصص القرآني في مفهومه و منطوقه ص75 .

المطلب الثاني

جمالية الزمن وقيمته في عرض شخصيات أولي العزم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: أولوا العزم معالم زمنية تؤرخ لحركة الدعوة

يحمل إلينا السرد القصصي في القرآن مؤشرات زمنية بالغة القيمة في رسم شخصيات أولي العزم بداية، تقدم ألي العزم، كمعالم لحقب تاريخية تحمل دلالة الزمن، الظاهرة في إثباتها كشخصيات بأسمائها لتدل بوجودها على أسماء أخرى تشترك معها في الزمن فأكبر خصوصية لشخصيات أولي العزم،أن السرد القصصي يسوقها في معرض التأريخ لغيرها من الأسماء وهذا الجدول يوضح بعض الأمثلة عن ذلك .

النماذج	الآيـــــــــات	الرقم	السورة
نوح عليه السلام	﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾	13	الشورى
إبراهيم عليه السلام	﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾	27-26	العنكبوت
موسى عليه السلام	﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾		
عيسى عليه السلام	﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾	7	مريم
محمد ﷺ	﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾	7	الأحزاب

النموذج الأول في آية : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [1] يوحي لنا أن نوحا عليه السلام يمثل في المسار الزمني لحركة الدعوة، نقطة البداية، هذه الأولية في الزمن تشير إليها الآية الكريمة بوضوح، فالأمر يحتاج إلى دقة وضبط، لأنه يتعلق بعرض قرائن ثابتة وهذه الأولية لها قيمتها و تأثيرها في سيرورة الزمن كمنطلق أساسي لتتبع حركة الدعوة . و من ثم نقول أن نوحا عليه السلام يذكر كمَعلم زمني يؤرخ به لبداية الدعوة .

ويعد إبراهيم عليه السلام أيضا معلما زمنيا لكن ليؤرخ به لنبي في عهده هو لوط عليه السلام بحيث تم توظيف الأول للدلالة الزمنية على وجود الثاني مشتركا معه في نفس الحقبة ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [2].

1- الشورى 13.

2- العنكبوت 26 – 27 .

وعلى نفس النسق يوظف السرد القصصي شخصية موسى عليه السلام للتاريخ لقارون ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ [1]، وشخصية عيسى عليه السلام للدلالة الزمنية على يحيى ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [2] وزكريا هو كافل مريم أم عيسى عليه السلام، وهذه السمة المطردة تؤكد خصوصية أولي العزم عن غيرهم من أسماء الأنبياء حيث يسوقهم السرد القصصي، كمعالم زمنية يؤرخ على ضوئها لحركة الدعوة .

والحلقة الأخيرة متناسقة مع الحلقات السابقة ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [3] وفي ذلك يبرز السرد لموقع محمد-ﷺ- في مسار الدعوة، إلى جانب كونه يمثل مرحلة زمنية ثابتة، هي نقطة الختام في خط سير أولي العزم، فهو البناء الكلي الذي تندرج تحته كل الحلقات والجزئيات، فهو بتقديم ذكره عن ذكر من سبقه من الأنبياء، دلالة على فضله وامتيازه، فهو بما أنزل عليه من قرآن بما فيه من قصص الأوليين يعد معلما زمنيا يؤرخ به لكل السابقين من الأنبياء، ويستدل بوجوده على موقع كل واحد من حركة الدعوة في سيرورتها الزمنية المتعاقبة .

ثانيا : دلالة الزمن في رسم شخصيات أولي العزم

إن لعنصر الزمن أهمية بالغة في رسم الشخصيات" لأن الإنسان هو الذي يعطيه دلالته الموضوعية والذاتية " [4] حيث يمدنا السرد القصصي بعدة إشعارات جمالية تكشف عن المراحل المختلفة والأطوار الزمنية التي أثرت في تشكيل شخصيات أولي العزم، وتقديم الإضاءات المتناسبة طردا مع تحقيق المقصد.

1- آل عمران 39 .

2- مريم 7.

3- الأحزاب 7 .

4- الزمان الدلالي ص 27 .

وهذا الجدول يوضح ذلك من خلال النماذج المختارة .

النماذج	الآيـــــــــات	الرقم	السورة
نوح عليه السلام	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾	14	العنكبوت
إبراهيم عليه السلام	﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾	57	الأنبياء
موسى عليه السلام	﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾	40	طـــه
عيسى عليه السلام	﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾	33	مريم
محمد ﷺ	﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾	1	الإسراء

إنَّ لذكر الزمن في النموذج الأول إشعارات جمالية بالغة القيمة في رسم شخصية نـــوح عليه السلام في أدق ما يكون التصوير، فسمة الصبر والثبات وإن كانت القاسم المشترك بين أولي العزم فهي تتجلى أكثر ما يكون الجلاء مع طول الفترة الزمانية .

وأيضا فيها إيحاء لمتوسط عمر الإنسان في تلك الفترة [1] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[2] .

1- القصص القرآني إيحاؤه و نفحاته ص90 .

2- العنكبوت 14 .

ومع النموذج الثاني يطلعنا السرد القصصي من خلال اختيار إبراهيم للوقت المناسب لإنجاح خطّته على صورة شاخصة بملامحه، ناطقة بسمته، فهو نموذج للحكمة في التخطيط والقوة في التنفيذ،وفق هدف واضح ومقصد محدد﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [1].

فخطة تحطيم الأصنام لم تكن على رأس الملأ من القوم، ولكن كانت في وقت غفلتهم وانصرافهم وتفسير هذا التخطيط بما يشمل اختيار التوقيت وتوخّي الفرصة، ليس عن جبن أو خور أو ضعف مواجهة، وإنّما السياق يكشف أنّ لهذا الترتيب الزمني إيحاء جمالي بالحكمة البالغة التي أراد إبراهيم عليه السلام إيصالها للقوم، بأسلوب جديد وفيه تجسيد لما كان يدعوهم إليه من قصور الأصنام عن نفع نفسها حتّى تنفعهم، وتنفيذ هذه الخطة بكل ملابساتها الزمانية الدقيقة، في تشخيص عقلية الإنجاز عند إبراهيم عليه السلام ، وإبراز ما فيها من معالم للتطور في أساليب الدعوة بالإقناع المنطقي وبالتجربة العلمية .

ومن النموذج الثالث نستمد قيما جمالية رائعة من خلال الإشارة إلى المدة الزمنية التي قضاها موسى عليه السلام في مدين وهي التي أبرمها مع مضيفه كصداق لزواجه بابنته[2]، ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [3]، فاعتناء النص السردي بهذه الالتفاتة، يشعرنا بأهمية تلك الفترة، لأنها فترة التأهيل للرسالة، والتأهيل لحمل مهمة الدعوة" وفي الوقت المقدر، عندما نضج واستعد، وابتلي فثبت وصبر، وامتحن فجاز الامتحان، وتهيأت الظروف كذلك والأحوال في مصر "[4]، في الوقت الذي حدّده الله تعالى بعلمه، وتقديره بعد فترة والتهيئة لتحمل مسؤولية مواجهة أعتى طاغية .

1- الأنبياء 57.

2- القصص27.

3- طـه40.

4- الظلال ج10 ص2335.

يحمل إلينا السرد القصصي دلالات بالغة القيمة في رسم خواص شخصية عيسى عليه السلام عن طريق الإشعارات الزمنية، في قوله تعالى﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ. وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [1] حيث تشير إلى مراحل حياته، والتي تحددها هويّته الخاصّة التي صرّح بها السياق في قوله تعالى﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2] فكون السياق قد صرح بأن عيسى عليه السلام آية معجزة في شخصه، فإنّ من القرائن الثابتة في المعجزات والآيات هو خروجها عن الاعتياد، وتجاوزها للمألوف.

ولو أسقطنا ذلك على دلالة " الآية " في شخصية عيسى عليه السلام لوجدنا أن حقيقتها تكمن في تجاوزه للقرائن الزمنية المألوفة، هذا ما يجسده كلامه في المهد وما يحوي من خوارق للزمن الاعتيادي، حيث يوظفه توظيفا جماليا متناسبا مع موقف رد التهمة الباطلة؛ وفي حقيقة الأمر وبمنظور الواقع التهمة متجسدة في شخصه ولا مردّ لها إلاّ بخارقة تتجاوز الزمن المادي، وقرائنه الحسية إلى العوالم الروحية حيث دلائل قدرة الله اللامحدودة.

ومن خلال تكلمه في المهد يصل بنا إلى تأكيد استناده على خرق حدود الزمن لإثبات هويته وحجّية رسالته[3] يقف على الحاضر الذي يتمثل في مواجهة التهمة، بالارتداد إلى الماضي﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾[4] ثمّ استشراف المستقبل والتنبؤ به ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ، وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[5] وما يتخلل ذلك من تجاوز لقرائن الزمن المادي، إلى الزمن المطلق اللامحدود، لارتباطه بمقصد الإعجاز الإلهي .

1- مريم33.

2- الأنبياء 91

3- مريم30-31.

4- مريم33.

5- مريم33 .

- انظر الظلال ج16 ص2308.

ويتجلّى هذا المقصد في المعجزات التي أيّده الله بها، والتي لا تختلف في طبيعتها عن طبيعة شخصيته، في تجاوزها لحدود الزمن المادي[1]، سواء تعلق الأمر بمولده، أو وفاته أو بعثته .

ومع النموذج الأخير في سلسلة أنبياء أولي العزم، نقف مع دلالة الزمن في رسم شخصية محمد ﷺ في قوله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى، الذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[2]، وهذا النموذج يعدّ من أكثر الشواهد تداولا عند دارسي القصص القرآني، حتى عند القائلين بإخراج أحداث السيرة المحمدية من القصص القرآني على أساس أنّ مادة القصص من الماضي البعيد والزمن السحيق.

ونحاول فك التعارض البسيط، بالتعارض للإشعارات الزمنية التي تؤكد أن السرد القصصي في تعرضه لشخصية محمد ﷺ، يحمل خصوصية زمن الخطاب، الذي يختلف عن تعرضه لقصص الأولين في الزمن الغابر، وهذه الخصوصية التي تحفل بالجمال الفني، تعتبر النص المنزل في شأن محمد ﷺ الهيكل الجامع، الذي تنتظم في بنيته الكلية، كل قصص السابقين، التي يعتبرها السياق كخلفية زمنية لتغذية قصة الدعوة المحمّدية في حاضرها.

وفي انفتاحها على الزمن المتجدد" السياق ينص على الليل﴿ سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ للتظليل والتصوير على طريقة القرآن الكريم، فيلقي ظل الليل الساكن، ويخيم جوه الساجي على النفس، وهي تتملّى حركة الإسراء اللطيفة، وتتابعها، والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم، وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين ﷺ، وتربط بين الرسل قبلة، واشتمال رسالته على هذه المقدّسات، وارتباط رسالته بها جميعا، فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آمادا وآفاقا أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة

1- آل عمران 49.

2- مريم 33.

الأولى "[1] معاني الوحدة والاجتماع وحدة المصدر ووحدة الغاية؛ التي تذوب فيها حدود الزمان المادي.

فالمسافة التي تقطع عادة في أيام طويلة تختزلها قدرة الله في ليلة واحدة، وتختزل معها الحقب الزمنية المتعاقبة في اجتماع الأنبياء على صلاة واحدة خلف إمام واحد هو إمام الأنبياء والمرسلين جميعا.

ونخلص إلى أن سرد بعض جوانب سيرة محمد ﷺ في القرآن تتجلّى فيها أكثر ما يكون الجلاء جمالية التحكم في الزمن وفق المقصد، فهي الحاضر المتحرك في نسق منتظم، بالارتداد إلى الوراء في سرد قصص السابقين وفي استشراق المستقبل في اسقاطات العبر والعظات غير متزمنة بزمان محدد في انفتاح على المطلق المتدفق بديمومة التواتر والتجدّد .

ثالثا: مستويات الزمن في قصص أولي العزم

إنّ دراسة مستويات الزمن بآليات إجرائية محددة هو موضوع بحث الألسنة الحديثة، ومدار اهتمام الفكر الجمالي المعاصر ونجد"تو دوروف" قد قسم الزمن إلى ثلاثة مستويات، زمن القصة، وهو زمن الوقائع المتناولة، زمن الكتابة وهو الزمن السردي للخطاب، وزمن القراءة[2]والفرق بين زمن الكتابة وزمن القراءة أن الأول "يصبح عنصرا أدبيا بمجرد ما إن يتم إدخاله في القصة، أو في الحالة التي يتحدث فيها الراوي، في حكيه الخاص عن الزمن الذاتي، يكتب فيه أو يحكيه لنا، أمّا الثاني فيتحدّث في إدراكنا إياه ضمن مجموع النص؛ ولا يصبح أدبيا إلا بشرط كون الكاتب معتبرا في القصة "[3].

إلى أي مدى يمكن الإفادة من هذا التقسيم في دراسة النص القرآني والسرد القصصي بالدرجة الأولى؟

1- الظلال جزء 15ص2212 .

2- تحليل الخطاب الروائي ص73-74.

- انظر عبد الجليل مرتاض،البنية الزمنية في القص الروائي،ديوان المطبوعات الجامعية ص26 .

3- تحليل الخطاب الروائي ص74.

- انظر انفتاح النص الروائي ص46.

وهذا ما نجده عند –د. سليمان عشراتي– حيث يقول:" إنّ تصور الزمن داخل الخطاب القرآني يتطلّب أن نميّز:

1- الزمن التاريخي أو الفترة الزمنية المتناولة.

2- الزمن السردي المرتبط بحدث الجملة القرآنية ضمن سياقها الدلالي ."[1]

وهو يميز بين الزمن الداخلي الذي يخص الزمن السردي وزمن الفترة المتناولة من الأزمنة الخارجية مثل زمن الوحي، الزمن التاريخي الموضوعي،عصر الطوفان، عصر موسى،عصر القارئ،والروابط بينها متلاحمة ومنسجمة[2].

على أنّ زمن القارئ مسؤول بوجه خاص، على تكييف النص القرآني مع المعطيات الفكرية والحضارية، والمعرفية، المستجدة التي يقدمها كل عصر، فالزمن يحكم إلى حد كبير عملية الإدراك أو التأويل، التي تتناول بها ذهنية كل عصر المادة القرآنية، إنّ المفاعلة بين المتلقي والنص، تنطوي على نوع من الإسقاط المعرفين والتروعي التي تميز حقبة أو مرحلة ما، على الثابت من الآثار، من هنا تتفرد حيوية هذا الثابت الخالد، المفتوح على التجديدات التي لا تحيد مقرراته عن العقل والفكر في كل حين."[3]

وهذه المستويات الثلاث للزمن ظاهرة مطردة سواء تتبعنا قصص أولي العزم من سورة واحدة، أو جمعنا الحلقات المشتركة بينهم في السور المتفرقة.

1- الخطاب القرآني ص96 .

2- الخطاب القرآني ص96-97.

3- المرجع السابق ص97.

وبما أنه قد سبق لنا التمثيل بجمع الحلقات المشتركة بين أولي العزم في السور المتفرقة، نحاول التدليل على مستويات الزمن في قصص أولي العزم في سورة الأنبياء عن طريق هذا الجدول:

الفاعل	الفضاء السردي من آية – إلى آية	مستويات الزمن	الصيغة
موسى عليه السلام	49–48	زمن بعثة موسى عليه السلام	مختزلة
إبراهيم عليه السلام	73–51	زمن بعثة إبراهيم عليه السلام	مفصّلة
نوح عليه السلام	77–76	زمن بعثة نوح عليه السلام	مختزلة
عيسى عليه السلام	91	زمن بعثة عيسى عليه السلام	مختزلة
محمّد ﷺ	الفضاء السردي ممتد ليشمل هيكل السورة	زمن السورة زمن البعثة المحمّدية	مفصلة

وسورة الأنبياء تحفل بالإشعارات الزمنية البالغة القيمة في توصيل مقاصدها الكبرى، حيث وظفت النسق القصصي الإخباري توظيفا جماليا باختزال أزمنة الرسالات السابقة وإدراجها في البنية الزمنية للرسالات الخاتمة.

ونلمس هذا جليا من مطلع السورة التي تعرض لزمن البعثة المحمدية[1]، "وقد جعلتها تستوعب أزمنة رسولية أخرى سابقة عليها مبرزة بهذا الاستحضار الزمني، وحدة الغاية، وتماثل الظروف وتشابه المواجهات بين تلك الأزمنة المستدعاة، وزمنية السورة ،أي زمانية الرسالة المحمدية" [2].

1- الأنبياء 1-25.

2- الخطاب القرآني ص140.

وهذه النمطية في عرض قصص أولي العزم لتغذية حقل الدعـــوة الجـــديد بالخـــبرات حيـــث" تتجلّى سنة الله في إرسال الرسل من البشر، ووحدة العقيدة والطريق، لجماعة الرســـل على مدار الزمان، حتى لكأنّهم أمة واحدة على تباعد الزمان والمكان "[1]، بعد أن عرض الســـرد القصصي لإشارة عن قصة عيسى عليه السلام قرر هذا المقصد كأصل ثابت، تتوارثه الأجيـــال غـــير مرتبط بزمنية الرسالة المحمّدية ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[2].

وانفتاحية النص القرآني على الزمان المطلق متناسقة مع ما جاء في مطلع السورة عن قيمـــة المعجزة القرآنية عن غيرها من المعجزات الحسية التي تنقضي بانقضاء زمانها، بينما النص القـــرآني تتأكد فعاليته وقيمته في كل زمـــان، ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3] من ذلك نصل إلى إقرار جمالية التحكم في الزمن وفق المقصد[4] والهيمنة عليه وتسخير طبيعته المرنة لآداء الهدف المحوري.

1- الظلال ج17 ص 2384.

2- الأنبياء 92.

3- الأنبياء 10 .

4- خصائص القصة الإسلامية ص86.

وبناء على ما سبق نخلص إلى الآتي :

1. لايمكن تجريد القصص القرآني من الزمن، لأن الزمن جزء أصيل في بنية السرد القصصي،والتحديد الزمني لشخصيات أولي العزم ضروري لتحقيق المقصد ألا وهو حجية الرسالة الخاتمة التي تظهر قيمتها الخالدة على ضوء الخلفية الزمانية السابقة.

2. تقديم أولي العزم كمعالم زمنية ثابتة تؤرخ لمسار دعوة التوحيد، نستدل بها على حركة الحضارات نحو البناء والعمران أو نحو الفناء والدمار، وفق سنن الله الجامعة في اطرادها لتختصر الحقب الزمنية، في منظومة موحدة، تحكمها قواسم مشتركة، يتطابق فيها جماليا عنصر الزمن لأداء المقصد التذكيري.

3. جمالية الإشعارات الزمانية، وقيمتها في رسم شخصيات أولي العزم، يكشفها عن المراحل المختلفة التي أثرت في تشكيل شخصيات أولي العزم .

4. جمالية التحكم في الزمن وفق المقصد، فيعرض السرد القصصي، شخصيات الأولين من أولي العزم على سبيل الانتقاء من الجزئيات والتفاصيل ما يفيد حاضر زمن الخطاب، وينفتح على المستقبل في ثراء وتنوع القراءات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث

جمالية المكان وقيمته في عرض شخصيات أولي العزم

المطلب الأول

جمالية المكان وقيمته في البنية السردية

أولا: قيمة المكان في السرد القصصي

يسجل المكان حضورا أساسيا في البنية السردية فهو الذي يترتب عن وجـــوده حركيـــة الشخصيات بالأحداث.

ومن ذلك كان اهتمام النقاد بإبراز قيمة الفضاء المكاني وتأثيره في عرض الشخصيات" علـــى أن يكون بناؤه منسجما مع مزاج وطبائع شخصياته، وأن لا يتضمن أية مفارقة، وذلك لأنه من اللازم أن يكون هناك تأثير متبادل بين الشخصية، والمكان الذي تعيش فيه أو البيئة التي تحيط بها بحيـــث يصبح بإمكان بنية الفضاء الروائي أن تكشف لنا عن الحالة الشعورية التي تعيشها الشخصية، بـــل وقد تساهم في التحولات الداخلية التي تطرأ عليها" [1] .

1- بنية الشكل الروائي ص 30

وهذا لأن المكان مثله مثل الزمان يعطي للأحداث والشخوص على السواء دلالات وجودها وهذا يعود " إلى أن الأشياء تستمد مفاهيمها وهويتها من الكينونة والصيرورة معا، الكينونة في المكان، والصيرورة في الزمان "[1] وكما أن العلاقة بينهما وثيقة " للزمان حسابا وتقديرا في بناء القصة وضبط حركات الأحداث وانتظام خطوها، فكذلك الشأن في المكان حيث يكون هو للأحداث أشبه بالوعاء الحامل لها، على حين يكون الزمن هو اليد الحاملة لهذا الوعاء "[2].

ومن هنا كان تلاحم ثنائية الزمان والمكان في القصة تلاحما فنيا لإضاءة الجوانب المعتمة للشخصيات، بضبط حركة سيرها في خط الحياة [3]، ولرسم البيئة أو الوسط أهمية جمالية في تصوير خواص الفضاء المكاني ، بحيث يعطي لشخوص القصة أبعادها الواقعية [4] مما يؤدي إلى إدماج القارئ في أجوائها [5] شاخصة بالحياة ومشحونة بالحركة .

ثانيا: قيمة المكان في السرد القصصي القرآني

يتبوأ المكان في السرد القصصي القرآني مكانا أساسيا ليس فضلة مهملة، بل تتجلى مكانته في الاعتناء بإبراز جمالياته وفق المقصد العام للقصة " والمكان في القرآن مادة توصيل و إلحاح، لذلك فهو يأتي صريحا، مباشرا له دلالة مرجعية إشارية، كما هو حال أسماء الأمصار مصر، يثرب، سيناء، الطور، حنين، بدر، أو الأماكن المعلومة، أو التي اكتسبت علميتها من خلال إثبات السياق القرآني لها، مثل سدرة المنتهى، الكهف -في قصة أصحاب الكهف- أو هو يأتي ضمنيا، وهذا اعتبارا لغائية الخطاب القرآني العامة، التي تستهدف الرشاد الإنساني لذلك فإن أدبية الخطاب القرآني حتى وإن تخطت أحيانا الإشارة الصريحة إلى المكان فإنها تضل موصولة به، بحكم مرماها الكلي "[6] .

1- الزمان الدلالي ص96

2- القصص القرآني في مفهومه و منطوقه ص94

3- فن القصة ص89

4- داود غطاشة حسين راضي ، قضايا النقد العربي قديمها و حديثها ، مكتبة دار الثقافة ، عمان الأردن ط3 / ص 138

5- القصة و الرواية ص31

6- الخطاب القرآني ص147

من ذلك وبناء على نتائج المبحث السابق لا يمكن إرسال حكم تجريد السرد القصصي القرآني من الزمان والمكان على إطلاقه كحكم جاهز[1]، بل الأرجح أن نربط الحكم بالمقصد ومن ثمة نجد فضاء رحبا لأن توظيف المكان في السرد القصصي يصدق عليه ما يصدق على كل العناصر الجمالية حيث يتحكم فيها تحكما معجزا مزاوجا في تنوع هادف بين التصريح والتضمين وفق ما يحقق المقصد الجامع.

فهو يحدد المراكز العمرانية الكبرى بأسمائها أو بأسماء الشخصيات المحورية، ويراعي أسماء الأمكنة المتعلقة بالأحداث الهامة لأن "تعيين الأماكن وتسميتها بأسمائها يوقعها موقعا من التصور، وقد يحلها محل الامتحان ثم التصديق، إذ أن بعضا منها كان لا يزال قائما عند نزول القرآن بمثل هذا القصص ألم ينبهنا القرآن إلى أن مساكن الكافرين ما زالت بيننا و أننا نسكن مساكنهم ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾[2].

وأنه من العسير أن نتصور القرآن غير مثبت لأماكن جرت فيها بعض قصصه، حين يكون ذكر هذه الأماكن مهما ومساعدا العقل البشري على التمثل"[3].

خاصة إذا تعلق الأمر بشخصيات أولي العزم فهم إلى جانب تمثيلهم لحقب زمانية متفاوتة، أيضا أرسلوا إلى أماكن مختلفة، ومن مقتضيات أداء المقصد من عرض شخصيات أولي العزم تحديدا للإطار المكاني الذي تحركت فيه للكشف عن تفاوت مظاهر العمران والحضارة بين حقبة زمنية وأخرى، فإرسال أولي العزم للمناطق التي وصلت إلى درجة مشهودة من الحضارة والرقي .

ومن ثمة يعرض السياق قصص أولي العزم كمعالم للمراكز العمرانية الكبرى في حركة الدعوة ويحمل لنا السرد القصصي دلالة المكان في رسم شخصيات أولي العزم .

1- الإسلام والمذاهب الحديثة ص 156

2- إبراهيم 45

3- البنية السردية ص47 - 48

المطلب الثاني

جمالية المكان وقيمته في عرض شخصيات اولي العزم

إن الوشائج وثيقة بين تقديم الأمكنة وتقديم الشخصيات، فإن هذه الأخيرة لا تخضع كليا للمكان، بل العكس هو الذي سيحصل، إذ أن الأماكن في هذه الحالة، هي التي سيوكل إليها مساعدتنا على " هم" الشخصية "[1] بإعطائنا إضاءات بالغة القيمة للجوانب المعتمدة من صورتها، والتي لا تظهر إلا بوضعها في الإطار المكاني .

أولا: أولوا العزم أعلام للمراكز العمرانية الكبرى

يظهر حرص السرد القصصي القرآني على ذكر المكان من جهة كونه يحمل دلالة على مكانة شخصيات أولي العزم، كونهم "بعثوا إلى المراكز الرئيسية الآهلة حيث توجد الجماعات والتجمعات والاجتماعات المستقرة وحيث تكون الحياة الاجتماعية بكل ما فيها من تعقيدات، وملابسات وعوارض منسجمة مرة، ومتنافرة أخرى، وحيث تكوم للدعوة فعالية إيجابية في توجيه العلاقات والمعاملات توجيها راشدا، يحقق الوجود الاجتماعي ويدعم بقاءه ويحافظ على منتوجه الحضاري "[2].

1- بنية الشكل الروائي ص30 .

2- المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص28.

فملامح شخصيات أولي العزم تظهر من صورة البيئة التي تتحرك فيها، لم تكن دعوتهم إلى شتات من الناس بل " أنها جرت في مجملها على صعيد عمراني اجتماعي لذا كان موضوع القرية، أهل القرية، وأهل القرى في القرآن يحيل بشكل أو بآخر، على حدث سماوي، يضطلع فيه نبي أو رسول بدعوة دينية في وسط عمراني بشري، مستقر على صعيد أرضي معلوم، مرتبط بضرورة المعاش والتواطن."[1]

ومن خلال هذا الجدول نحاول رصد بعض الأمثلة :

النموذج	الآيات	الرقم	الآية
نوح عليه السلام	﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾	40	هود
إبراهيم عليه السلام	﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾	37	إبراهيم
موسى عليه السلام	﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾	27-25	الدخان
عيسى عليه السلام	﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾	22	مريم
محمد ﷺ	﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾	4-1	قريش

1- الخطاب القرآني ص173

- انظر عبد العزيز كامل،القرآن والتاريخ،عالم الفكر، مجلد 12 العدد 4/1982م ص21

النموذج الأول مع نوح عليه السلام في الآية أعلاه ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ .

يطلعنا السرد القصصي على أن المكان الذي أرسل إليه من المراكز العمرانية المستقرة، ولا يمكن الجزم في كونه الوحيد في المعمورة، ولكن هناك إيحاء على كونه من المراكز الهامة اقتصاديا واجتماعيا. المدة الزمنية التي قضاها نوح في دعوة قومه و لم يذكر السياق تنقلا من مكان إلى آخر ضربا في الأرض، بل الواضح من أمر الله تعالى لنوح يحمل معه في سفينة النجاة من كل زوجين اثنين أن المكان من المراكز العمرانية الهامة.

ومن ثم حرص السرد القصصي على إمدادنا بهذه المعلومة التي توحي بأن تطهير المكان من الكفر والفساد، يحمل معه بذور العمران والإصلاح من جديد .

ومع أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام في دعائه إلى الله بعد تنفيذ أمره بترك زوجه وابنه في المكان المحدد ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [1]

تستوحي إشعارات جمالية بالغة القيمة عن المكان الذي لم يكن آهلا أو تظهر فيه مظاهر الحياة، بل قفرا جدبا، مهجورا، ولكن سمت الأنبياء الطاعة والامتثال، لأمر الله، وكانت حكمة الله أن يجعل من بذرته الطاهرة وفي هذا المكان الاقفر الخالي، دوحة غناء، والدعاء الإبراهيمي يكشف عن تأسيس أكبر المراكز العمرانية في المعمورة وإلى يومنا هذا [2].

ويقابله في ذلك ما جاء في شأن قوم فرعون ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [3] وتحمل لنا إشارة مهمة عن منازل المكذبين وما كانوا يتنعمون فيها من ألوان الترف ومظاهر الحضارة، والسياق يزاوج بين

1- إبراهيم 37

2- المعجزة الكبرى ص 150

- انظر الظلال ج30 ص 1982

3- الدخان 25-27

الإشارة إلى الجمال الطبيعي للمكان وما تصبغه عليه اليد الإنسانية، ليشكل مع الزمن أكبر مركز عمراني، ولكن هذا المقام الكبير لا أساس له مع الكفر بالله، وبالتالي ترتب الحال عن تطهير المكان بإخراج أهل الكفر[1].

ولو جئنا لمكان ولادة عيسى عليه السلام ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾[2] لوجدنا ظلالا لقرية آهلة مستقرة "فالسرد يكشف عن مستوطن قار، ذي زرع"[3] ويدعمه في ذلك ما جاء في سياق الحديث عن معجزاته، في ما يتعلق بإنبائهم بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم، و يدل ذلك على حال الاستقرار ومظهر العمران[4].

والسياق في سورة قريش يعود بنا إلى الوراء حيث ظلال الدعاء الإبراهيمي ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[5] وحيث حجر الأساس في مكة المكرمة، صار حرما آمنا، محجة للناس وقبلة للتجار من كل فج "وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة، وزيادة مكانة أهله، وسدنته من قريش، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية.

وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة عن طريق القوافل إلى اليمن في الجنوب، وإلى الشام في الشمال و إلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين - إحداهما إلى اليمن في الشتاء والثانية إلى الشام في الصيف."[6]

وكان خوفهم من ضياع هذا المركز التجاري الضخم الذي يدعمه في ظنهم المكانة الدينية لأصنامهم في الكعبة وراء موقفهم المعارض للتوحيد، والسياق يحمل تذكيرا يستجيش الوجدان

1- الخطاب القرآني ص175
2- مريم 22
3- الخطاب القرآني ص 175
4- آل عمران 49
5- قريش 1 - 4
6- الظلال ج 30 ص 3982

ويطرق الفكر، أن الفضل لهذه المنة العظيمة لرب البيت ورب الكون كله، وبعد هذه الوقفات نخلص إلى أن أولي العزم هم الأنبياء الأعلام في تمثيلهم للمراكز العمرانية الكبرى وإرسالهم إلى أماكن التجمعات السكانية والحضارات الإنسانية.

وبالتأكيد هناك مبررات أخرى لأن الله تعالى يختار لرسالته وفق معايير، بعضها يمكن التوصل غليه وفق قرائن واضحة وبعضها لا يمكن التوصل إليه، وبطبيعة الحال لا يتصور بعثتهم إلى الشتات من الناس والقفار الخالية، ولكن هناك أماكن حضارية لم تشهد بعثة أي نبي من أولي العزم مثل: الهند، واليونان وربما يعود ذلك إلى أن إرسال أولي العزم خاصة كان للمراكز العمرانية المتميزة لخلوها من المطروحات الفكرية والفلسفية وميلها إلى الفطرة .

ثانيا: جمالية المكان و قيمته في رسم الشخصيات

ويمكن البناء على ما سبق في محاولة استجلاء دلالة المكان على رسم شخصيات أولي العزم على أساس الصلة بين الشخصية والفضاء الذي تتحرك فيه، حيث يظهر المكان "كما لو كان خزانا حقيقيا للأفكار والمشاعر والحدوس ، حيث تنشأ بين الإنسان والمكان علاقة متبادلة يؤثر كل طرف فيها على الآخر"[1].

وفي هذا الصدد يطلعنا السرد القصصي على إشعارات جمالية توحي بدلالة المكان على ملامح الشخصيات من خلال هذا الجدول:

1- بنية الشكل الروائي ص 31

النماذج	الآيـــــــــــات	الرقم	السورة
نوح عليه السلام	﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾	44	هود
إبراهيم عليه السلام	﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾	71	الأنبياء
موسى عليه السلام	﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾	30	القصص
عيسى عليه السلام	﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾	55	آل عمران
محمد ﷺ	﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	40	التوبة

بداية مع هذا النمـــوذج ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].

ينقلنا السرد القصصي إلى بيئة هبوط السفينة ورسوها على الجودي وهذا ما أفادنـــا بـــه السياق، ولا يوجد أي ذكر لاسم المكان أو لموقعه الجغرافي سواء كان بالموصل [2] أو بمكان آخـــر ذلك لاستيفاء المقصد من تصوير البيئة العامة،وما تعكسه من ظلال على عموم الطوفان لكل مكان

1- هود 44

2- دراسات فنية في قصص القرآن ص183

- انظر الظلال ج12 ص1879

فلا حاجة لتحديد موقع خاص حيث أن ''ظاهر النصوص القرآنية يلهم أن قوم نوح كانوا هم مجموعة البشرية في ذلك الزمان وأن الأرض التي يسكنونها كانت هي الأرض المعمورة في ذلك الحين، وأن الطوفان قد عم هذه الرقعة وقضى على جميع الخلائق التي تقطنها فيما عدا ركب السفينة الناجين.''[1]

وبالتالي جمالية تصوير البيئة العامة تنسجم انسجاما كبيرا مع عموم الطوفان فذكر أسماء الأماكن وتحديد المواقع يجمل مع احتراز التباسها بغيرها .

أما في هذا المقام فالحدود كلها رقعة واحدة والمقصد الذي يصلنا بشخصية نوح عليه السلام هو وسمه بأولية تطهيرية للمكان من بذور الكفر،وفيها انتقال من مكان إلى مكان بواسطة سفينة الإيمان، أي الانتقال من دار الكفر لتأسيس دار الإيمان.

ولو جئنا إلى إبراهيم لوجدناه يسير على هذا النسق في استغلال المكان المقدس عند قومه لتنفيذ مهمة التطهير ليكون الدرس أبلغ ''ومثلما كان فعل التطهير من أوحال الشرك يتحقق في صيغة فعل إلهي طبيعي، كالطوفان – الريح – الغرق ..إلخ فإنه قد يحصل أيضا بفعل أنبياء الله أو بواسطتهم فموقف إبراهيم (الأنبياء) مع أصنام قومه حين بددها موقف تطهيري ألهمه الله إياه لعل أن يجد فيه الوثنيون عبرة عن ضلالتهم''[2] ولكنهم ازدادوا تعنتا ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾''[3].

وهي أرض الشام التي هاجر إليها هو وابن أخيه لوط فكانت مهبط الوحي فترة طويلة ومبعث الرسل من نسل إبراهيم عليهم السلام وفيها الأرض المقدسة (وثاني الحرمين) وفيها بركة الخصب والرزق إلى جانب بركة الوحي و النبوة جيلا بعد جيل''[4]

1- الظلال ج12 ص1881

2- الخطاب القرآني 177

3- الأنبياء 70

4- الظلال ج17 ص2388

والمقصد من تغيير المكان هو تأسيس دار الإيمان بمعزل عن دار الكفر وتم ذلك مجسدا في بناء الكعبة الشريفة في مكة المكرمة مثالا للتواصل والاستمرارية وصرحا للتوحيد وخصيصة يعرف به أبو الأنبياء عن غيره وما نجده مع موسى عليه السلام لا يختلف في سورته العامة مع سابقه لكن التفاوت موجود في التفاصيل الخاصة ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1]

ومن خلال النموذج ينقل إلينا السرد القصصي لدلالة المكان على أهم سمة من سمات موسى عليه السلام ، هي تكليفه بالرسالة دون واسطة، وبالكلام الإيماء المباشر، وتم ذلك بعد فترة التأهيل التي قضاها في مدين فرارا من بطش فرعون، وبعد أن قضى الأجل المتفق عليه كصداق لزوجه يفكر في العودة إلى مصر، وفي الطريق ترآءت له النار، فأنجذب إليها "وهاهو ذا في شاطئ الوادي إلى جوار جبل طور، الوادي إلى يمينه في البقعة المباركة ..المباركة منذ هذه اللحظة ثم هذا هو الكون كله تتجاوب جنباته بالنداء العلوي الآتي لموسى من الشجرة، ولعلها الوحيدة في هذا المكان "[2] .

وتصوير المكان في هذا السياق يحمل إشعارات جمالية بالغة القيمة في تأكيد شرفه وفضله فهو في آية أخرى ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[3] "وطوى إسم الوادي على الأرجح وهو بجانب الطور الأيمن بالنسبة للقادم من مدين في شمال الحجاز "[4] .

وفي هذا المكان كان منطلق الدعوة إلى الله التي واجهها فرعون بمعارضة شديدة ومتواصلة حتى كان إذن الله تعالى لموسى بالخروج و تغيير المكان ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾[5] فالانتقال من أرض الكفر لم يتم بسورة عادية مالوفة، بل صنعته العناية الإلهية بتوظيف الخارق.

1- القصص30

2- الضلال ج 20 ص2691

3- النازعات 16

4- الظلال ج30 ص3814

5- طـــه 77

وفي هذا السياق تكشف دلالة المكان عن طبيعة المعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام فشق طريق في وسط البحر من جهة يحمل إلينا نجاة المؤمنين وانتصار الإيمان ومن جهة أخرى يسفر عن إغراق الكافرين وتطهير المكان من الكفر .

ومع عيسى عليه السلام ينقلنا السياق إلى دلالة فريدة، للانتقال من مكان إلى مكان و صلتها الوثيقة بشخصه ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [1] .

يتعرض السرد القصصي لتصوير المحطة الأخيرة في مساره وهي تنسجم مع المحطة الأولى انسجاما كبيرا وذلك لأن وفاة عيسى عليه السلام اتسمت بنفس طابع ولادته.[2]

فقد شاء الله تعالى أن يجعل منه آية في مولده ووفاته فهو في شخصه معجزة متنقلة ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[3] وبالتالي اقترنت حادثة وفاته بإشعارات غير مألوفة ومتسقة مع طبيعة معجزاته الروحية، ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [4] .

فوفاته اقترنت بالرفع "ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا أكان بالجسد والروح في حالة الحياة ؟! أم كان بالروح بعد الوفاة ؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين ؟ وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع القتل والصلب على من شبه لهم سواه "[5] وهذا ما جاء في سياق رد الشبهات عن عيسى عليه السلام ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [6] .

1- آل عمران 55

2- المعجزة الكبرى ص375 - 376

3- الأنبياء 90

4- آل عمران 55

5- الظلال ج 6 ص 802

6- النساء 156 - 158

وبما أنه كثرت الأساطير الإسرائيلية حول هذا الموضوع فلا نفتح المجال إلا بقدر حاجتنا لإيضاح دلالة الرفع والتطهير على استبدال المكانية وما فيها من جمالية الانتقال من مكان إلى مكان بسورة غير مألوفة وخاصة بعيسى عليه السلام دون بقية الأنبياء، والمتفق عليه أن السرد القصصي ينقل إلينا أجواء مؤامرة خسيسة للإطاحة بعيسى عليه السلام وأن الله تعالى قد أنجاه منها بوفاة غير مألوفة لقرنها بالرفع ، و الاختلاف في طريقة الرفع، وسواء كان الانتقال من الأرض إلى السماء بالروح، أو بالروح والجسد معا[1] فالظلال الجمالية المشحونة بالإثارة والإعجاز قائمة.

ويترتب عنها المقصد المشترك لدلالة استبدال المكانية في أجواء غير عادية وهو المصرح به في السياق أي تطهير عيسى عليه السلام في بيئة الكفر بإخراجه ونقله من الأرض إلى السماء من مكان الكفر وما فيه من أجواء المطاردة والمكابدة إلى مكان الأمن والأمان، وخفاء الطريقة وإضمارها يضفي على المكان جمالية الإثارة والإعجاز.

وخاتمة النماذج مع محمد-ﷺ- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ينقل لنا السرد القصصي جمالية تقديم شخصية محمد-ﷺ- في مقام الإقتداء بثباته في أحلك الظروف، ويصور من حدث الهجرة الماضي في الزمان والبعيد في المكان درسا للواقع الجديد، يواكب تشكيل النواة الأولى للمجتمع الإسلامي في المدينة المنورة .

فالقصة وقعت في غار ثور بين مكة والمدينة، ولتحديد المكان دلالة قيمة على إبراز جمالية العرض مع الوفاء بالمقصد فهذا التحديد المكاني، لم يرسل فضلة بل يتجلى دوره في كونه يتوسط مكانين اتخذا كمعلمين للتقويم الزمني، ويشكل فيصلا بين بيئتين، بيئة الكفر وبيئة الإيمان وهذه المفاصلة واضحة وصريحة بين زمن القصة وزمن الخطاب، بين مكان القصة ومكان نزول الخطاب

1- أبو يحيى زكرياء الأنصاري، فتح الرحمان بكشف ما يلتبس في القرآن، حققه و علق عليه محمد علي الصابوني، مكتبة رحاب الجزائر ط2 / 1408 هـ.ص 91

وهذا دليل على أن السرد القصصي القرآني لا يحفل فقط في عرضه لأحداث الزمن الغابر، بل يسوق من أحداث الزمن الماضي القريب ما يحقق المقصد .

فمكان وجود الخطاب القرآني محدد و قاطع الثبوت في المدينة المنورة يواجه نفوسا تكاد تتآكل بالوهن والفتور عن نصرة رسول الله-ﷺ- يربيها بالعودة بها إلى الماضي القريب "ويضرب لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه، على نصرة الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء "[1]، ينقلهم السياق إلى مكان ليس ببعيد، إلى غار ثور حيث الرسول-ﷺ- متخفيا عن أنظار مطارديه الذين لم يكفهم التآمر على قتله بل رصدوا جائزة لمن يتعقب أثره ويصده عن اللحاق بركب المهاجرين .

والسرد القصصي القرآني يشخص من خلال عرض المكان صورة محمد-ﷺ- في مقام الدرس والعظة، ويطرق " أعماق الجانب البشري في الرسول-ﷺ - الذي يطمئن صاحبه، ويربط على قلبه في ساعة الروع الأكبر ويقول له﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ وهي إشارة بليغة إلى أثر من آثار صنائع الطاقة الإيمانية الهائلة التي لم يفقد لحظة في صدق وعد الله، ولذا استحقت أن ينصرها الله ويترل على الرسول-ﷺ- وصاحبه سكينته ويؤيده بجنود لم يرها أحد "[2] .

وظلال المكان توحي من جهة بالتأزم و الضيق الذي صاحب الدعوة في مهدها ومن جهة أخرى بالانفراج والسعة بالانتقال بها إلى مكان أرحب لتأسيس النواة الأولى للمجتمع الإسلامي "لقد كانت الهجرة سبيلا استراتيجيا، للتأسيس الديني والجيو إجتماعي، المطهر من درن الشرك، والعصيان، فهجرة موسى بقومه المؤمنين وهجرة إبراهيم(إني مهاجر إلى ربي)، وهجرة نوح من دار الكفر إلى رحاب الله كانت أبدا خطوة الترجيح، في موازين القوى، بين حزب الله، وبين الضالين من أهل الشرك، الخطوة المرهصة للفتح، والتمكين لدين الله في الأرض .. لقد كانت هجرة محمد-ﷺ- نقلة في المكان انعطف بها الزمن العربي نحو التجدد، وميلاد الوتيرة الإسلامية، في مضمار التأسيس الحضاري" [3].

1- الظلال ج 10 ص1656

2- السيرة النبوية في القرآن الكريم ص128

3- الخطاب القرآني ص 178

ومنه تظهر جمالية المكان وقيمته في رسم شخصيات أولي العزم، بتأكيد الصلة الوثيقة بين الشخصية والفضاء المكاني الذي تتحرك فيه .

ومن خلال ما سبق نخلص إلى الآتي :

1- توظيف المكان في السرد القصصي، يصدق عليه ما يصدق على كل العناصر الجمالية حيث يتحكم في بروزه المقصد العام، ولا يمكن إطلاق حكم تجريد السرد القصصي من المكان، لأن من مقتضيات أداء المقصد من عرض شخصيات أولي العزم تحديد الإطار المكاني الذي تحركت فيه للكشف عن تفاوت مظاهر العمران، والحضارة، بين حقبة زمنية و أخرى .

2- تظهر جمالية المكان في قصص أولي العزم من خلال عرضه للشخصيات كأعلام للمراكز العمرانية الكبرى، والقرائن دالة وشاهدة على أماكن التجمعات السكانية، والحضارات الإنسانية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نتائج الفصل الثالث

أولا: لا يمكن تصنيف قصص أولي العزم، في ما يعرف بقصص الشخصيات، لأن ذلك يتناقض مع منهج القرآن في عرض القصص، ولأن القصص القرآني، ليس بقصص سير ذاتية أو تمجيد بطولات شخصية، بل المقصد هو الذي يتحكم في ذلك .

ثانيا: احتفال المنهج القرآني بعرض الشخوص في قصصه بناء على دورها في أداء المقصد، ومنه تصريح النص القرآني بصيغة الامتياز والتميز، التي وسمت شخصيات أولي العزم بمناحي جمالية خاصة .

ثالثا: جمالية السرد القصصي في عرض شخصيات أولي العزم،في توازنها بين الطبيعة العامة والملامح الخاصة، وبالتالي ذكر الأسماء صريحة واضحة في سياقها الزماني وفضائها المكاني، لحجية الرسالة الخاتمة .

رابعا: جمالية السرد القصصي في عرض شخصيات أولي العزم في تنوعها بين العرض المباشر، والعرض غير المباشر، ويهدف العرض المباشر لشخصيات أولي العزم، لإقرار خاصية الوضوح، في تصوير ورسم شخصية كل نبي من أولي العزم لرفع اللبس والغموض الذي يؤدي إلى تشويه صفاتهم .

ومن خلال العرض غيرالمباشر للشخصيات نستشف إنسجام الأفعال مع الصفات، وعدم التناقض بين الأفعال والسلوكات والمواقف الخاصة بكل نبي،ومبادئ الرسالة العامة .

خامسا: لا يمكن تجريد القصص القرآني من الزمن، لأن الزمن جزء أصيل في بنية السرد القصصي، والتحديد الزمني لشخصيات أولي العزم ضروري لتحقيق المقصد ألا و هو حجية الرسالة الخالدة على ضوء الخلفية الزمانية السابقة .

سادسا: تقديم أولي العزم لمعالم زمنية ثابتة تؤرخ لمسار دعوة التوحيد، نستدل بها على حركة الحضارات نحو البناء والعمران أو نحو الفناء والدمار، وفق سنن الله الجامعة، في اطرادها لتختصر الحقب الزمنية، في منظومة موحدة، تحكمها قواسم مشتركة، يتطابق فيها جمالية عنصر الزمن لأداء المقصد التذكيري .

سابعا: جمالية التحكم في الزمن وفق المقصد، أين يعرض السرد القصصي شخصيات الأولين من أولي العزم على سبيل انتقاء من جزئيات وتفاصيل تفيد حاضر زمن الخطاب، المنفتح على المستقبل في ثراء وتنوع القراءات .

ثامنا: توظيف المكان في السرد القصصي يصدق عليه ما يصدق على كل العناصر الجمالية حيث يتحكم في بروز المقصد العام ولا يمكن إطلاق حكم تجريد السرد القصصي القرآني من المكان، ومن مقتضيات أداء المقصد من عرض شخصيات أولي العزم تحديد الإطار المكاني الذي تحركت فيه للكشف عن تفاوت مظاهر العمران، والحضارة بين حقبة زمنية وأخرى.

تاسعا: تظهر جمالية المكان في قصص أولي العزم من خلال عرضه للشخصيات كأعلام للمراكز العمرانية الكبرى، والقرائن دالة شاهدة على أماكن التجمعات السكانية، والحضارات الإنسانية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن تحديد نمط دراسة قصص أولي العزم في بعديها الجمالي والفكري ابتداء، يسفر عن القيمة التي حاول هذا البحث الإشارة إليها والتنويه بها، للارتقاء العلمي المنهجي بجماليات القصص القرآني تأكيدا على النظرة الكلية الشاملة .

والقيمة المحورية التي انتهينا إليها من دراسة قصص أولي العزم هي : أن جمالية التناسق السنني تسير جنبا إلى جنب مع جمالية التناسق البنائي، مشكلة وحدة متلاحمة بين الأبعاد والمقاصد والبنية الشكلية ، تجسد في ذلك أحسن تجسيد لأدبية الإعجاز القرآني ، في وحدة الفكر والفن .

وبناء على ذلك يمكن حوصلة أهم النتائج، والتي لا ترقى في هذه المرحلة الابتدائية من البحث إلى النضج والأصالة وإنما هي نقاط ضوء تفتح الطريق لبحوث جديدة أكثر عمقا ودراية.

أولا: أسفر التحقيق في هوية أولي العزم من الرسل عن تحديد للفئة المقصودة بالصيغة، وهي متعلقة بشخصيات الأنبياء الخمسة عليهم السلام الذين ذكروا في آيتي الأحزاب والشورى وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد -عليهم الصلاة السلام- جميعا.

ثانيا: القصص القرآني سابقة تاريخية ثابتة، وسابقة فنية معجزة لا يملك أي أثر فني تجاوزها، ومن ثمة لا يمكن إخضاع منهجه للمقاييس النقدية البشرية فالقصص القرآني هو المصدر للمناهج البشرية وليس العكس.

وهذا لا يمنع من استثمار الجهود الإنسانية في التفسير والدراسات القرآنية والنقد بتسخير التقنيات والوسائل للكشف عن جماليات قصص القرآن بما يناسب طبيعتها ويحقق مقاصدها، لاسيما تلك التقنيات المستنتجة من القصص القرآني نفسه.

ثالثا: جمالية الفكر الوضعي في اعتمادها على تعددية محورية للمنظـور الفكـري، المتشـبعة بـالقيم الوثنية، المبنية على صراع الإنسان مع الآلهـة، فشـلت في بنـاء مصطلـح جمـالي مضبـوط ودقيـق وشامل، نظرا لتناقض المفاهيم، وتضارب الأهداف ولذلك لا تصلح نموذجا يقاس عليه القصص القرآني .

أما منهج الجمالية الإسلامية فيمكن صياغته من خلال التصور كمحور ثابت، تدور على فلكه ثلاث دوائر، دائرة التفسير، دائرة الدراسات القرآنية، ثم دائرة النقد في اتسـاعها علـى حقـل الإبداع الإنساني المتنوع، ومن ثمة تستمد الجمالية الإسلامية أبعادها من المحـور الثـابت، ووسـائلها من الدوائر المتلاحقة تأثيرا وتأثرا.

رابعا: احتفل المنهج القرآني في عرض قصص أولي العـزم بإبراز الأبعـاد والمقـاصد، يعـد البعـد العقدي المحور الجامع والقاسم المشترك بين أولي العزم مشـكلا في ذلـك منظومـة قصصيـة، يتوحـد فيها التناسق السنني مع التناسق البنائي، ويتجلى البعد الاجتماعي في حسن توظيف البنية القصصية في حركيتها بالوقائع والأحداث لخدمة الواقع المتجدد.

ومنه تظهر قيمة البعد الحضاري في قصص أولي العزم، من قيمة السنن الجامعة، والقوانـين الكلية التي نفسر على ضوئها الظواهر، تفسيرا يتجاوز البنية الشكلية إلى البنى العميقة، لإبراز قيمـة تتابع الرسل في عرض جمالية التناسق السنني في تجاوزهـا الدلالـة الشـكلية، إلى الدلالـة السـننية، في تحقيقها جمالية التواصل بين الحلقات دون نقض لموقع كل حلقة في حركة التاريخ.

خامسا: لا يمكـن تصنيـف قصـص أولي العـزم، فيمـا يعـرف بقصـص الشـخصيات، لأن ذلـك يتناقض مع منهج القرآن في عرض القصص ولأن القصـص القرآنـي ليـس بقصـص سـير ذاتيـة، او تمجيد بطولات شخصية، بل المقصـد هـو الـذي يتحكـم في ذلـك، ومنـه تصريـح النـص القرآنـي بصيغة الامتياز والتميز التي وسمت شخصيات أولي العزم بسمات جمالية خاصة.

سادسا: تقديم أولي العزم كمعالم زمنية ثابتة تؤرخ لمسار دعوة التوحيد، نستدل بها على حركة الحضارات نحو البناء والعمران أو نحو الفناء والدمار، وفق سنن الله الجامعة في اطرادها، لتختصر الحقب الزمنية في منظومة واحدة تحكمها قواسم مشتركة يتطابق فيها جماليا عنصر الزمن لأداء المقصد التذكيري.

ومن ثمة لا يمكن تجريد القصص القرآني من الزمان والمكان ليصدق عليها ما يصدق على كل العناصر الجمالية، حيث يتحكم المقصد العام في إبراز قيمة الزمان والمكان في السرد القصصي القرآني.

وختاما ما هذه المحاولة المتواضعة إلا لبنة في هرم شامخ، وموضوع قصص أولي العزم من الرسل من الخصوبة والاتساع، حيث يتطلب دراسات وافرة للإلمام والوفاء بكل أطرافه وجزئياته. وما هذه الدراسة إلا فاتحة لدراسات أكثر عمقا ونضجا إن شاء الله، فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهـــرس الأعـــــلام

– أ –

إبراهيم بن عمر بن حسين الرباط البقاعي.....84

أبو أحمد عبد الرحمان بن أبي حاتم.....18

أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني أبو بكر.....18

آرثور شوبنهاور.....54

أرسطو.....51

إسماعيل بن عمر بن كثير.....15

أفلاطون.....50

أفلوطون.....52

ألكسندر غوتليب بومجارتن.....53

أوغستين القديس.....52

إيمانويل كانط.....53

– ب –

بندتو كروتشه.....54

– ج –

جان بول سارتر.....55

جلال الدين بن أبي بكر السيوطي.....18

– ح –

الحسين بن مسعود بن الفراء.....05

– د –

ديني ديدوروا.....53

– ع –

عبد الكريم بن هوزان القشيري.....60

عبد الله بن عباس.....05

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عبد الله بن وهب.....08
علي بن محمد بن العباس (أبو حيان التوحيدي).....65
– ق –
قتادة بن دعامة السدوسي 05
– م –
محمد بن أحمد الغزالي الطوسي (أبو حامد).....63
محمد بن أبي بكر (إبن القيم الجوزيه).....64
محمد بن جرير الطبري.....07
محمد بن زيد بن المهاجر.....08
محمد بن عمر الرازي.....09
محمود بن عبد الله الألوسي.....
محمود بن عمرو الزمخشري..... 11
– ك –
كارل ماركس.....54
– ي –
يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة الصدفي.....08

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

– أ –

1. ابن الجزيري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد،**غاية النهاية في طبقات القراء**، دار الكتب العلمي بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 1402 هـ / 1982م .

2. ابن خلدون عبد الرحمان، **تاريخ العلامة ابن خلدون**، دار الكتاب اللبناني بيروت الطبعة الثانية 1979 م .

3. ابن خلكان،**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**،دار صادر بيروت 1977 م / 1397 هـ .

4. ابن سعد **الطبقات الكبرى** ، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان الطبعة الأولى 1410 هـ / 1990 م .

5. ابن عاشور، محمد الطاهر،**التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر تونس د،ط / د،ت

6. ابن العماد،الحنبلي،**شذرات الذهب في أخبار من ذهب**،دار الكتب العلمية بيروت لبنان د.ط،د.ت

7. ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر،**روضة المحبين ونزهة المشتاقين**،مطبعة السعادة مصر د،ط 1956 م.

8. ابن كثير، أبو الفدى اسماعيل القرشي،**تفسير القرآن العظيم**،دار الفكر د،ط 1401 هـ /1981م.

9. ابن منظور، جمال الدين بن مكرم،**لسان العرب**،دار بيروت دار صادر د،ط 1383 هـ / 1968م.

10. أبو جندي، خالد،**الجانب الفني في القصة القرآنية**،دار الشهاب باتنة الجزائر د،ط / د،ت .

11. أبو زهرة، محمد،**المعجزة الكبرى القرآن**،دار الفكر العربي د،ط / د،ت .

12. الأتابكي جمال الدين، يوسف بن تغري بردي،**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** تحقيق إبراهيم علي طرخان، وزارة الثقافة والإرشاد القومي **د، ط /د،ت**

13. إسماعيل، عز الدين،**التفسير النفسي للأدب**،دار العودة بيروت الطبعة الرابعة 1981 م .

14. إسماعيل، عز الدين،**الأسس الجمالية في النقد العربي**،دار الفكر العربي الطبعة الثالثة 1974 م .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

15. أفاسيجيف، ومجموعة من المؤلفين،**دراسات في الأدب والمسرح**، ترجمة نزار عيون السود.منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي د،ط/د،ت

16. الألوسي، محمد بن عبد الله،**روح المعاني**،إدارة الطباعة المنيرية د،ط / د،ت .

17. أمين بكري،الشيخ ،**التعبير الفني في القرآن**،دار الشروق الطبعة الرابعة 1400هـ / 1980 م.

18. الأنصاري، أبو يحي زكريا،**فتح الرحمان يكشف ما يلتبس في القرآن**.حققه وعلق عليه محمد علي الصابوني مكتبة رحاب الجزائر الطبعة الثانية 1408 هـ / 1988 م .

- ب -

19. باجودة، حسن محمد،**الوحدة الموضوعية في سورة يوسف السعودية**،الطبعة الثانية 1983 م .

20. باختين، ميخائيل،**الخطاب الروائي**،ترجمة محمد برادة،دار الفكر القاهرة الطبعة الأولى 1987 م .

21. باقر الصدر، محمد،**فلسفتنا**،دار التعارف للمطبوعات بيروت الطبعة الخامسة عشر 1410هـ/1989 م .

22. البحراوي، حسن،**بنية الشكل الروائي**،المركز الثقافي العربي بيروت الطبعة الأولى 1990 م .

23. بريغش، محمد،حسن في **الأدب الإسلامي المعاصر**، مكتبة المنار الأردنية الطبعة الثانية 1985 م.

24. البستاني، محمود،**دراسات فنية في قصص القرآن** دار البلاغة الطبعة الأولى 1989 م .

25. البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي،**تاريخ بغداد** دار الفكر مكتبة الخانجي القاهرة د.ت ، د.ط.

26. البقاعي، برهان الدين،**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1415 هـ / 1995 م .

27. البنا، جمال،**حرية الإعتقاد في الإسلام** دار الجليس سطيف الطبعة الثالثة 1412 هـ .

28. ابن نبي، مالك،**ميلاد مجتمع**،دار الفكر د.ط 1986 م .

29. ابن نبي، مالك،**شروط النهضة** ترجمة عبد الصابور شاهين دار الفكر دمشق د.ط 1986

30. ابن نبي، مالك،**الظاهرة القرآنية**،ترجمة عبد الصابور شاهين دار الفكر دمشق 1402هـ/1981م.

31. بهجت،أحمد،**أنبياء الله** دار الشروق الطبعة عشرون 1993م .

32. بوتور، ميشال،**بحوث في الرواية الجديدة**،ترجمة فريد أنطونيس منشورات عويدات بيروت باريس الطبعة الثانية 1982 م .

33. بـــوزار،مارسيل،**إنسانـــية الإسلام**،ترجمة عفيف دمشقية منشورات دار الآداب بيروت الطبعة الأولى 1980م .

– ت –

34. تليمة، عبد المنعم،**مداخل إلى علم الجمال الأدبي**،دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة 1978 م .

35. التوحيدي، أبو حيان ،**الإمتاع والمؤانسة**،منشورات دار مكتبة الحياة بيروت د.ت ، د.ط .

36. التومي، محمد،**المجتمع الإنساني في القرآن الكريم**،الدار التونسية للنشر المؤسسة الوطنية للكتـاب الطبعة الثانية د.ت .

– ث –

37. ثامر، فاضل،اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطـــاب النقـــدي العـــربي الحديث،المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى 1994 م .

– ج –

38. الجابري، محمد العابد،بنية العقل العربي،الطبعة الثالثة بيروت 1996 .

39. الجرار، مأمون فريز،**خصائص القصة الإسلامية**،دار المنار للنشر والتوزيع جدة السعودية الطبعـــة الأولى 1408 هـــ / 1988 م .

40. الجرجاني، علي بن محمد،**التعريفات**،عالم الكتب الطبعة الأولى 1407 هـــ / 1987 م .

41. جمال، أحمد محمد،**القصص الرمزي في القرآن**،مكتبة رحاب الجزائر الطبعة الخامسة 1987 م .

42. الجندي، أنور،**خصائص الأدب الإسلامي في مواجهة نظريات النقد الحديـــث**،دار الكتـــاب اللبناني بيروت ، مكتبة المدرسة الطبعة الثانية 1985 م .

– ح –

43. حجازي، محمد محمود،**الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**،دار الكتب الحديثة د.ط 1970 م .

44. الحربي، علي جابر،**منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية**،الزهراء للإعلام العربي الطبعـــة الأولى 1406هـــ .

45. حسام الدين، كريم زكي،**الزمان الدلالي**،مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الأولى 1991 م/1410هـــ.

46. حفني، عبد الحليم ، **أسلوب المحاورة في القرآن**،الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعـــة الثانيـــة 1985 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

47. الحمصي، أحمد فائز ، **قصص الرحمان في ظلال القرآن**،مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى 1415هـ/1995 م .

- خ -

48. الخالدي، صلاح عبد الفتاح،**التصوير الفني عند سيد قطب**،شركة الشهاب الجزائر د.ت /د.ط

49. الخضري ، محمد الصالح،**منهج الدعاة إلى الله في رحاب سورتي الكهف والقصص**،دار النفائس الأردن الطبعة الأولى 1998 م .

50. الخطيب، عبد الكريم ، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه** دار الفكر العربي الطبعة الأولى 1384هـ/1964 م .

51. خلف الله، محمد أحمد، **الفن القصصي في القرآن الكريم** ، مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الثالثة 1965 م .

52. خليل، عماد الدين،**في النقد الإسلامي المعاصر**،مؤسسة الرسالة د.ت ،د.ط .

53. خليل، عماد الدين،**التفسير الإسلامي للتاريخ**،دار العلم للملايين بيروت الطبعة الخامسة 1991م.

54. خليل ، عماد الدين،**مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي**،الشركة المتحدة للتوزيع بيروت د.ت،د.ط

55. خليل ، عماد الدين،**الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي**،مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية 1401هـ/1981م .

- د -

56. دراز، عبد الله،**النبأ العظيم**،دار القلم الكويت الطبعة الرابعة 1397 هـ/1977 م .

56. دراز، عبد الله،**مدخل إلى القرآن الكريم**،دار القلم الكويت 1406هـ/1986 م .

57. دراز، عبد الله،**الدين**،دار القلم الكويت الطبعة الثانية 1310 هـ/1970 م .

58. الديدي، عبد الفتاح الأسس المعنوية للأدب دار المعرفة الطبعة الأولى 1966 م .

- ر -

59. الرازي، أبو بكر،**التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي الطبعة الثالثة د.ت .

60. راضي، داود غطاشة حسين،**قضايا النقد العربي قديمها وحديثها**،مكتبة دار الثقافة عمان الأردن الطبعة الثانية د.ت .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

61. الرافعي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية دار** الكتاب العربي لبنان د.ط،د.ت.

62. رحماني، أحمد،**نظريات الإعجاز القرآني** مكتبة وهبة القاهرة الطبعة الأولى 1998 م .

63. رحماني، أحمد،**مصادر التفسير الموضوعي** ، مكتبة وهبة القاهرة الطبعة الأولى 1997 م.

64. رشدي، محمد بسام، وسالم، محمد عدنان ، . **المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم**، دار الفكر دمشق سوريا دار الفكر المعاصر بيروت لبنان الطبعة الأولى 1416 هـ / 1995 م .

65. رضا، فؤاد علي،**من علوم القرآن** دار إقرأ بيروت الطبعة الأولى 1986 م / 1406 هـ .

66. رضوان، فتحي،**الإسلام والمسلمون** دار الشروق د.ط 1402 هـ / 1982 م .

67. رضوان، فتحي،**الإسلام والمذاهب الحديثة** سلسلة إقرأ العدد 415 دار المعارف .

68. روزنتال ، ب يودن،**الموسوعة الفلسفية** ترجمة سمير كرم، **دار** الطليعة – بيروت الطبعة السادسة أكتوبر 1987 م .

– ز –

69. الزحيلي، وهبة،**أصول الفقه الإسلامي** دار الفكر د.ت ، د.ط .

70. الزحيلي، وهبة،**التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج** دار الفكر المعاصر بيروت الطبعة الأولى1991 م.

71. زرزور، عدنان محمد،**علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن، وبيان إعجازه** المكتب الإسلامي بيروت دمشق الطبعة الأولى 1401 هـ /1981 م .

72. الزركلي، خير الدين،**الأعلام** دار العلم للملايين بيروت، لبنان الطبعة السابعة 1986 م .

73. الزغبي، زاهر **غزب،الإسلام ضرورة عالمية** الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر د.ط 1971 م .

74. الزمخشري، محمود بن عمر،**الكشاف** دار المعرفة بيروت د.ط / د.ت

– س –

75. ستروك جون تعريب محمود عصفور،**عالم المعرفة** الكويت رمضان 1416

76. السحار، عبدالحميد جودت،**القصة من خلال تجاربي الذاتية** دار مصر للطباعة

77. سلام، محمد زغلول،**أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع هجري** دار المعارف الطبعة الثالثة د.ت .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

78. سلمان، حسن،**النظرية القرآنية لتفسير حركة التـــاريخ**،مؤسســة الوفــاء بــيروت لبنــان 1406هـــ/1986م.

79. السيوطي، **الدار المنثور في التفسير بالمأثور**، دار المعرفة بيروت د.ط ، د.ت .

– ش –

80. الشاطبي، إبراهيم بن موسى،**الموافقات**،المكتبة التجارية الكبرى د.ت ، د.ط .

81. الشامي، صالح أحمد،**الظاهرة الجمالية**،المكتب الإسلامي الطبعة الأولى 1986م.

82. شديد، محمد،**منـــهج القصـــة في القـــرآن**،دار عكـــاظ للطبـــاعة والنشـــر الطبعـــة الأولى 1404هـــ/1984م.

83. شرف، عبد العزيز،**الأدب الإسلامي ومواكب النور** دار الجيل بيروت الطبعة الأولى 1993م

84. شلبي، أحمد،**الإسلام** مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثامنة 1985.

85. شلبي، رؤوف،الدعوة الإسلامية في عهدها المكي (**مناهجها وغاياتها**) دار القلم الكويت الطبعة الثالثة 1402هـــ/1982م.

86. شولز، روبرت،**البنيوية في الأدب** ترجمة حنا عبود منشورات اتحاد الكتاب العـــرب الطبعـــة السابعة 1977م.

– ص –

87. صايغ، سمير،**الفن الإسلامي** دار المعرفة بيروت لبنان الطبعة الأولى 1985م.

88. صبح، علي علي وشرف وعبد العزيز وخفاجي محمد عبد المنعم،**الأدب الإســـلامي المفـــهوم والقضية** دار الجيل بيروت الطبعة الأولى 1412هـــ

89. صبيح، محمد **بحث جديد عن القرآن الكريم** دار الشروق الطبعة الثامنة 1403هـــ/1983م.

90. صفوت، **محمد،القصص في القرآن الكريم** مكتبة مصر 3شارع صقي فجالة القاهرة د.ت،د.ط

– ط –

91. الطحاوي، **أصول العقيدة الإسلامية** دار الشهاب للطباعة والنشر باتنة الجزائر د.ط ، د.ت.

92. طول، محمد،**البنية السردية في القصص القرآني** ديوان المطبوعات الجامعية.

– ع –

93. عباس، إحسان،**فن الشعر**،دار الشروق عمان الطبعة الأولى 1996م.

94. عباس، فضل حسن،**القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**،شركة شهاب الجزائر د.ت ، د.ط.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

95. عبد الباقي، محمد فؤاد،**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** دار الجيل بيروت د.ت ، د.ط.

96. عبد ربه، السيد عبد الحافظ بحوث في قصص القرآن دار الكتاب اللبناني الطبعة الأولى 1972 م.

97. عبد الرحمان، عائشة،**القرآن وقضايا الإنسان** دار العلم للملايين الطبعة الخامسة أكتوبر 1982م.

98. عبده، محمد رسالة التوحيد كتاب الهلال د.ط ، د.ت .

99. عبود، عبد الغني،**أنبياء الله في الحياة المعاصرة** دار الفكر العربي الطبعة الاولى سبتمبر 1978 م .

100. عبود، عبد الغني،**العقيدة الإسلامية والإيديولوجيات المعاصرة** دار الفكر العربي الطبعة الأولى 1976م.

101. عرجون، محمد الصادق،**سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم** الدار السعودية للنشر والتوزيع الطبعة الثالثة 1404هـ/1984م.

102. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر،**لسان الميزان** دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1416هـ/1996م .

103. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر،**تحرير تقريب التهذيب** مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى 1417هـ/1997م.

104. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر،**تقريب التهذيب** دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الثانية 1415هـ/1995م .

105. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر،**تهذيب التهذيب** حققه وعلق عليه مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1415هـ/1994م .

106. عشراتي، سليمان،**الخطاب القرآني** ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 98 مكة المكرمة الطبعة الأولى 1401هـ/1981م .

107. العطار، أحمد عبد الغفور،**الديانات والعقائد في مختلف العصور** مكة المكرمة الطبعة الأولى 1401هـ/1981م .

108. العقاد، عباس محمود،**توحيد وأنبياء** دار الكتاب العربي بيروت لبنان الطبعة الأولى د.ت،د.ط.

109. عكاشة شكايف،**نظرية الأدب في النقدين الجمالي والبنيوي في الوطن العربي** ديوان المطبوعات 1994م .

110. علي، موسى محمد،**التوحيد مفتاح دعوة الرسل** الناشر محمد نجيب الصابوني د.ط ، د.ت .

111. العمري، أحمد جمال، **دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني**، مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة الأولى 1406هـ/1986م .

112. عوض الله، أحمد الصباح، **حياة وأخلاق الأنبياء**، دار إقرأ الطبعة الثالثة 1405هـ/1985م .

113. العيد، يمنى، **تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي**، الطبعة الأولى 1990 .

– غ –

114. الغزالي، أبو حامد، **إحياء علوم الدين**، عالم الكتب دمشق د.ط ، د.ت .

115. الغزالي، محمد، **نظرات في القرآن**، دار الشهاب للطباعة باتنة الجزائر الطبعة السادسة د.ت

116. الغزالي، محمد، **كيف نتعامل مع القرآن الكريم**، دار الوفاء للطباعة والنشر .

117. غلاب، عبد الكريم، **صراع المذهب والعقيدة في القرآن**، دار الكتاب اللبناني بيروت الطبعة الأولى 1973م .

– ف –

118. فاضل، سيف الله، **إنجيل برنابا**، دراسات حول وحدة البناء عند موسى وعيسى ومحمد – عليهم السلام – الطبعة الثانية 1403هـ/1983م .

119. فضل الله، محمد الحسين، **الحوار في القرآن**، دار المنصوري للنشر د.ت ، د.ط .

120. فضل الله، محمد الحسين، **مع الحكمة في خط الإسلام**، مؤسسة الوفاء بيروت الطبعة الأولى 1406هـ/1986م .

121. فيصل شكري، **المجتمعات الإسلامية في القرن الأول**، دار العلم للملايين الطبعة الخامسة 1981م.

– ق –

122. القشيري عبد الكريم بن هوازن، **لطائف الإشارات**، مركز تحقيق التراث الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية 1981م.

123. قطب، محمد، **منهج الفن الإسلامي**، دار الشروق بيروت/ القاهرة الطبعة السادسة 1403هـ/1983م

124. قطب، سيد **في ظلال القرآن**، دار الشروق القاهرة /بيروت الطبعة العاشرة 1981م.

125. قطب، سيد، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، دار الشروق .

126. قطب، سيد، **في التاريخ فكرة ومنهاج**، دار الشروق 1995م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

127. قطب، سيد،**التصوير الفني في القرآن**،دار المعارف الطبعة التاسعة د.ت

128. قلعه جي ، عبد الفتاح رواس،**علم الجمال الإسلامي**،دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى 1411هـ/ 1991م .

129. قورة، محمد فتحي،**القرآن والأنبياء والحديث عن المعجزة الخالدة وأولي العزم من الرسل** مكتبة مصر دار مصر للطباعة الطبعة الأولى د.ت

– ك –

130. كامل، عبد العزيز عبد القادر،**المشكلة العنصرية**،دار الفكر الحديث اليونسكو د.ط ، د.ت .

131. كمال الدين، خوجة،**المثل الأعلى**،دار الفكر المعاصر بيروت الطبعة الأولى 1409هـ/1989م .

132. كولونجود، روبن جورج،**مبادئ الفن**،ترجمة أحمد حمدي محمود،الدار المصرية للتأليف والترجمة د.ت ،د.ط

133. الكيلاني، نجيب،**آفاق الأدب الإسلامي**،مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى 1406هـ/1985م .

134. الكيلاني، نجيب،**الإسلامية والمذاهب الأدبية**،مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة 1403هـ/1983م .

– ل –

135. لحمداني، الحميد،**بنية النص السردي من منظور نقدي**،المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى 1991م .

– م –

136. مبارك، محمد،**دراسة أدبية لنصوص من القرآن**،الطبعة الرابعة 1973.

137. المباركغوري، صفي الرحمان،**الرحيق المختوم**،دار الوفاء للطباعة والنشر القاهرة شركة الشهاب الجزائر 1408هـ/1987م .

138. المحامي، محمد كامل حسن،**القرآن والقصة الحديثة**،دار البحوث العلمية دار الكتب بيروت الطبعة الأولى 1970م .

139. محمد،يوسف كمال،**مستقبل الحضارة بين العلمانية الشيوعية الإسلام المختار**،الإسلامي للطباعة والنشر الطبعة الأولى 1974م .

140. محمود،عبد الحليم،**عالمية الدعوة الإسلامية**،شركة مكتبات عكاظ ، الطبعة الثانية 1404هـ / 1984م .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

141. محمود عبد الحليم،**التذكير الفلسفي في الإسلام**،دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة بيروت د.ط، 1402هـ/1982م .

142. محمود مصطفى **من أسرار القرآن**،دار المعارف الطبعة الرابعة .

143. محمود مصطفى،**القرآن محاولة لفهم عصري**،دار المعارف بمصر 1976م .

144. مورتاض، عبد الجليل،**البنية الزمنية في القص الروائي**،ديوان المطبوعات الجامعية د.ت د.ط.

145. مرزوق عبد الصابور،**السيرة النبوية في القرآن الكريم**،مطبوعات رابطة العالم الإسلامي دعوة الحق السنة الأولى 1401هـ رمضان العدد06 مكتبة رحاب د.ط د.ت .

146. مريدن، عزيزة،**القصة والرواية**،دار الفكر د.ط 1980 م.

147. المزي، الحافظ،**تهذيب الكمال في أسماء الرجال**،حققه وضبطه بشار عواد معروف مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى 1413هـ/1992م .

148. المسدي، عبد السلام،**المصطلح النقدي** مؤسسة عبد الكريم للنشر والتوزيع تونس أكتوبر 1994م.

149. مطر أميرة حلمي،فلسفة الجمال،دار الثقافة 1984.

150. مفتاح، محمد **دينامية النص**،المركز الثقافي العربي بيروت لبنان المغرب الطبعة الأولى 1987م.

151. المناوي، محمد عبد الرؤوف،**التوقيف على مهمات التعاريف**،دار الفكر المعاصر بيروت لبنان دار الفكر دمشق سورية الطبعة الأولى 1410هـ .

– ن –

152. نجم محمد يوسف،**فن القصة**،دار صادق بيروت الطبعة الأولى 1996.

153. النحوي، عدنان،**الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته**،الطبعة الثانية 1978م .

154. نقرة، التهامي،**سيكولوجية القصة في القرآن**،الشركة التونسية للتوزيع ديسمبر 1974 م .

155. نوكس،**النظريات الجمالية**،تعريب محمد شفيق سيا منشورات بحسون الثقافية بيروت الطبعة الأولى 1985م .

156. النويهي، محمد،**وظيفة الأدب بين الإلتزام الفني والإنقصام الجمالي**،مطبعة الرسالة 1916هـ/1967م

- هـ -

157. هلال محمد غنيم، **النقد الأدبي**، الحديث الطبعة الأولى 1982م .

158. هونكة، زغريد، **شمس العرب تسطع على الغرب**، دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الخامسة 1401هـ/1981م .

159. هويدي، فهمي، **القرآن والسلطان**، دار الشروق الطبعة الثانية 1402هـ/1982م .

160. هويماني، دي، **علم الجمال**، ترجمة ظافر حسن المكتبة العلمية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر الطبعة الثانية 1975 م

- ي -

161. يعلاوي محمد، **أشتات في اللغة والأدب والنقد**، دار الغرب الإسلامي حوليات الجامعة التونسية العدد24 . 1985 الطبعة الأولى 1992 م .

162. يقطين سعيد، **تحليل الخطاب الروائي**، المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى 1989 م .

الدوريـــــات

166. كامل عبد العزيز، **القرآن والتاريخ**، عالم الفكر المجلد الثاني عشر العدد الرابع 1982.

167. النجار، عبد المجيد، **الإيمان والعمران**، مجلة إسلامية المعرفة المعهد العالمي للفكر الإسلامي السنة الثانية العدد 8 .1417هـ/ 1997م .

168. النجار، عبد المجيد، **الإستخلاف في فقه التحضر الإسلامي**، مجلة التجديد علمية فصلية محكمة الجامعة الإسلامية ماليزيا السنة الأولى العدد الأول يناير 1997 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

المقدمة ..... أ

الفصل التمهيدي

أولوا العزم من الرسل مصطلحا ومنهجا 1

توطئة 1

المبحث الأول : أولوا العزم مصطلحا 2

المطلب الأول: حقيقة أولي العزم 3

المطلب الثاني: أولوا العزم عند المفسرين 7

النتائج 20

المبحث الثاني: القصص القرآني مصطلحا ومنهجا 21

توطئة 21

المطلب الأول: القصة القرآنية مصطلحا 22

المطلب الثاني: القصة القرآنية منهجا 33

النتائج 44

المبحث الثالث: الجمالية مصطلحا و منهجا 46

توطئة 44

المطلب الأول : مصطلح الجمالية في الفلسفة الوضعية 49

المطلب الثاني : مصطلح الجمالية في التصور الإسلامي 59

المطلب الثالث : الجمالية منهجا 67

النتائج الفصل الأول 79

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني

جمالية عرض الأبعاد الأساسية في قصص أولي العزم 80

توطئة..... 81

المبحث الأول : جمالية عرض البعد العقدي في قصص أولي العزم..... 82

توطئة..... 82

المطلب الأول : جمالية عرض وحدة الرسالة في قصص أولي العزم..... 83

المطلب الثاني :جمالية عرض التناسق السنني في قصص أولي العزم 91

النتائج..... 109

المبحث الثاني : جمالية عرض البعد الاجتماعي في قصص أولي العزم..... 110

توطئة..... 110

المطلب الأول : جمالية عرض البعد الاجتماعي في قصص أولي العزم 111

المطلب الثاني : جمالية عرض التناسق السنني في قصص أولي العزم..... 126

النتائج..... 146

المبحث الثالث : جمالية عرض البعد الحضاري في قصص أولي العزم 147

توطئة..... 147

المطلب الأول : البعد الحضاري في قصص أولي العزم..... 149

المطلب الثاني : وحدة الرسالة و حركة التاريخ 156

نتائج الفصل الثاني 172

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

جمالية عرض العناصر الفنية في قصص أولي العزم..... 173
توطئة..... 174
المبحث الأول : جمالية عرض الشخصية في قصص أولي العزم 175
المطلب الأول : بنية الشخصية في قصص أولي العزم..... 175
المطلب الثاني : جمالية عرض الشخصية في قصص أولي العزم..... 184
النتائج..... 196
المبحث الثاني: جمالية الزمان وقيمته في عرض شخصيات أولي العزم 197
المطلب الأول : بنية الزمان في القصص القرآني..... 197
المطلب الثاني: جمالية الزمان وقيمته في عرض شخصيات أولي العزم 203
النتائج..... 214
المبحث الثالث: جمالية المكان وقيمته في عرض شخصيات أولي العزم..... 215
المطلب الأول: جمالية المكان وقيمته في البنية السردية 215
المطلب الثاني: جمالية المكان وقيمته في عرض شخصيات أولي العزم..... 218
نتائـــج الفصل الثالث..... 230
الخاتمـــة..... 232
الفهارس..... 235

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية